

الباب الأول

الخلاص وصورة الإنسان في المسيحية ويشتمل على أربعة فصول

الفصل الأول :- معنى الخلاص ونشأته.

الفصل الثاني :- حالة الإنسان قبل السقوط في الخطيئة في

التصور المسيحي.

الفصل الثالث :- سقوط الإنسان في الخطيئة في التصور المسيحي.

الفصل الرابع :- عهد الله للإنسان بعد السقوط بالخلاص.

obeikandi.com

الفصل الأول

معنى الخلاص ونشأته

obeikandi.com

تعريف الخلاص

إن ضرورة البحث تقتضينا التعرف على معانى اللفظ الذى نتناوله بالبحث والدراسة، والطريق الطبيعى والوضع المنطقى هو الرجوع إلى كتب اللغة أولاً.

الخلاص فى اللفظة:

يقول الإمام أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابى^(١) المعروف بالجوهري -: خلص الشيء - بالفتح - يخلص خلوصاً أى صار خالصاً.

وخلص إليه الشيء: وصل

وخلصته من كذا تخليصاً أى نجّيته فتخلص^(٢).

ويقول أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن على بن منظور^(٣):

خلص الشيء - بالفتح - يخلص خلوصاً وخلاصاً إذا كان قد نشب ثم نجا وسلم. وأخلصه وخلصه، وأخلص لله دينه: أحضه، وأخلص الشيء: اختاره. والمخلص: الذى أخلصه الله أى جعله مختاراً خالصاً من الدنس.

والمخلص: الذى وحده الله تعالى خالصاً ولذلك قيل لسورة "قل هو الله أحد" سورة الإخلاص.

والتخليص: التنجية من كل منْشَب، تقول: خلصته من كذا تخليصاً أى نجّيته تنجية فتخلص، وتخلصه وتخلصاً كما يتلخص الغزل إذا التبس.

(١) نسبة إلى أنه ولد بفاراب سنة ٣٣٣هـ. وفاراب: إقليم كبير وراء نهر "جيحون" على تخوم بلاد الترك وتوفى

سنة ٣٩٣هـ. د/ إبراهيم محمد نجا: المعاجم اللغوية ص ٩٦، ص ١٠٠.

(٢) الصحاح فى اللغة (تجديد صحاح العلامة الجوهري) إعداد/ نديم مرعشلى، أسامة مرعشلى، المجلد الأول ص ٣٦٢ دار الحضارة العربية بيروت الطبعة الأولى سنة ١٩٧٤م.

(٣) ولد بن منظور فى شهر المحرم ٦٣٠هـ وتوفى فى شعبان ٧١١هـ. د/ إبراهيم محمد نجا: المعاجم اللغوية ص

وخلص إليه الشيء: وصل. وخلص الشيء يخلص خلوصاً أى صار خالصاً، وخلص الشيء خلاصاً. والخلاص يكون مصدراً للشيء الخالص. يقال: خلص فلان إلى فلان أى وصل إليه، وخلص إذا سلم ونجا.

وفى حديث على رضى الله عنه: إنه قضى فى حكومة بالخلاص، أى الرجوع بالثمن على البائع إذا كانت العين مستحقة، وقد قبض ثمنها، أى قضى بما يتخلص به من الخصومة^(١).

وما جاء فى أساس البلاغة، والمعجم الوسيط لا يخرج عن دائرة هذه المعانى^(٢) وعلى هذا فلفظ "خلص" يحمل معنى التخليص، والخلاص: مصدر بمعنى السلامة والنجاة.

ولقد وردت كلمة الخلاص فى مصادر وكتابات المسيحيين بمعانى تشبه هذه المعانى اللغوية وزادوا عليها معانى تخدم فكرتهم عن عقيدة الخلاص كما سيظهر.

ففى "قاموس الكتاب المقدس": يراد بالخلاص فى العهد القديم: النجاة من الشر أو الخطر "خروج ١٤: ١٣"^(٣)، "مزمور ١٠٦: ٨ - ١٠"^(٤) أما فى العهد الجديد فقد خلع عليها معنى آخر وهو إنقاذ الخطاة بالإيمان بيسوع المسيح^(٥).

يقول القس / لبيب ميخائيل: "الواقع أن كلمة الخلاص" فى اللغتين العبرية واليونانية تعنى: النجاة، والأمان، والحفظ، والشفاء، والصحة، فالإنسان الخاطئ فى حاجة إلى النجاة من سلطان الشيطان، والأمان من دينونة الله العادلة، والحفظ فى يد المسيح القوية، والشفاء من لعنة الخطية، والصحة الروحية التى تكفل لهم القوة والانتصار وهو يجد فى خلاص الله كل هذه المعانى^(٦).

(١) ابن منظور: لسان العرب ص ١٢٢٨ ط دار المعارف.

(٢) أساس البلاغة: الزحشرى ص ١٧٢ دار بيروت للطباعة والنشر، المعجم الوسيط ج ١ ص ٢٤٩.

(٣) "فقال موسى للشعب لا تخافوا. قفوا وانظروا خلاص الرب الذى يصنعه لكم اليوم".

(٤) "فخلصهم ربه من أجل اسمه ليعرف مجبروته وانتهر بحر سوف فيس وسيرهم فى اللجج كالبرية. وخلصهم من يد المبعوض".

(٥) قاموس الكتاب المقدس ص ٣٤٤.

(٦) القس لبيب ميخائيل: يقين الخلاص ص ٨.

ويقول آخر "قد وردت كلمة" خلاص " فى الكتاب المقدس بمعانى مختلفة منها :

١- خلاص بمعنى الإنقاذ من العدو: عند البحر الأحمر قال موسى للشعب "لا تخافوا قفوا وانظروا خلاص الرب الذى يصنعه لكم اليوم"^(١).

ورغم موسى وبنو إسرائيل قائلين "الرب قوتى ونشيدى. وقد صار خلاصى"^(٢).

وقال شاول "لا يقتل أحد فى هذا اليوم لأنه فى هذا اليوم صنع الرب خلاصاً"^(٣).

وقال الشعب لشاول "أيموت يوناتان الذى صنع هذا الخلاص العظيم"^(٤).

وتحدث شمشون عن نفسه مصليا لله "إنك قد جعلت بيد عبدك هذا الخلاص العظيم"^(٥) وفى المزمور التاسع والستين "لأن الله يخلص صهيون وبنى مدن يهوذا فيسكنون هناك ويرثونها"^(٦).

وتنبأ زكريا قائلاً "أقام لنا قرن خلاص فى بيت داود... وخلاص من أعدائنا ومن أيدي جميع مبغضينا"^(٧).

فلقد وردت كلمة الخلاص فى كل هذه الأماكن بمعنى النصر والإنقاذ من أيدي الأعداء.

٢ - خلاص بمعنى الإنقاذ من مخاطر الحياة.

عندما كان التلاميذ فى القارب وهم فى رعب عظيم تقدموا نحو المسيح وأيقظوه قائلين "يا سيد نجنا فإننا نهلك"^(٨) وكلمة "نجنا" هنا جاءت فى الأصل اليونانى بمعنى "خلصنا"^(٩) وتحت هذا المعنى السابق أورد - القس / صموئيل حبيب - معانى كثيرة فجعل منها :

(١) خروج ١٢ : ١٣ .

(٢) خروج ١٥ : ٢ .

(٣) صموئيل الأول ١١ : ١٣ .

(٤) صموئيل الأول ١٤ : ٤٥ .

(٥) قضاة ١٥ : ١٨ .

(٦) مزمور ٦٩ : ٣٥ .

(٧) لوقا ١ : ٦٩ - ٧١ .

(٨) متى ٨ : ٢٥ .

(٩) القس صموئيل حبيب : الخلاص فى مفهومه الكتاب والتطبيقى ص ٩ ، ١٠ .

❖ الخلاص من الموت:

جاء فى المزمور الثامن والستين "الله لنا خلاص وعند الرب السيد للموت مخارج"^(١) وكاتب الرسالة إلى العبرانيين يحدثنا عن نوح "بالإيمان نوح لما أوحى إليه عن أمور لم تر بعد خاف فبنى فلكا لخلاص بيته فيه دان العالم وصار وارثا للبر الذى حسب الإيمان"^(٢).

❖ الخلاص من ضيقات الحياة:

"لماذا أنت منحنية يانفسى ولماذا تتنين فى ترجى الله لأنى بعد أحمدته خلاص وجهى وإلهى"^(٣).

وقال إشعياء "ويقال فى ذلك اليوم هوذا هذا إلهنا انتظرناه فخلصنا. هذا هو الرب انتظرناه. نبتهج ونفرح بخلصه"^(٤) فالخلاص هنا بمعنى انقاذ الإنسان من أتعاب الحياة.

❖ الخلاص من المرض والأرواح الشريرة:

"الذين رأوا كيف خلص المجنون"^(٥) فقد خرجت منه الشياطين ودخلت فى قطع الخنازير"^(٦).

❖ الخلاص بمعنى الأمن والضمان:

غنى داود "إله صخرتى به أحتمى، ترسى وقرن خلاصى. ملجأى ومناصى مخلصى من الظلم تخلصنى"^(٧) وهنا نجد كلمة "تخلصنى" بمعنى حمايتى فى المستقبل.

(١) مزمور ٦٨ : ٢٠.

(٢) عبرانيين ١١ : ٧.

(٣) مزمور ٤٢ : ١١.

(٤) إشعياء ٢٥ : ٩.

(٥) لوقا ٨ : ٣٦.

(٦) وذلك على أساس فكرتهم أن الأرواح الشريرة تسبب الأمراض الجسدية من الجنون والعمى والصرع، كما سنبين ذلك فى الفصل الثالث من هذا الباب.

(٧) صموئيل الثانى ٢٢ : ٣.

٣ - خلاص بمعنى الإنقاذ من الخطية :

قال يسوع للمرأة الخاطئة التى دهنت رجله بالطيب (إيمانك قد خلصك اذهبي بسلام)^(١).

وقال بولس "لأنكم بالنعمة مخلصون بالإيمان وذلك ليس منكم. هو عطية الله"^{(٢)(٣)}.

ولقد وردت كلمة "الخلاص" فى الكتاب المقدس بمشتقاتها زهاء خمس وأربعين وأربعمائة^(٤) ووردت فى العهد الجديد فقط مائة مرة منها أربع عشرة مرة عن الشفاء من المرض وإخراج الشياطين، وعشرين مرة عن الإنقاذ من الموت والمخاطر، وست وستين مرة بالمعنى الروحى^(٥).

يقول "باركلى" فى تفسير رسالة بولس إلى أهل رومية :

المقصود بالخلاص : إنه الخلاص من المرض الجسدى وهو نجاة للجسد والنفس. إنه الخلاص من الخطر، وليس هذا الخلاص يحفظ حياة الإنسان من الخطر لكنه يمنحه الاطمئنان والأمان حتى وسط الخطر.

إنه الخلاص من العدوى من العالم الأعوج الشرير وكل من عنده هذا الخلاص يملك مطهرا إلهيا يحفظه من عدوى وفساد هذا العالم الشرير.

إنه خلاص من الضياع : لقد جاء يسوع ليطلب ويخلص ما قد هلك، إن الإنسان غير المخلص يسير فى الطريق الخاطئ الذى يقوده للهلاك أما المخلص فهو الذى وجد الطريق الصحيح.

إنه خلاص من الخطية : الإنسان كعبد مستعبد لسيد لا يقدر أن يهرب منه إنه كالمريض الذى شخص الداء ويعرف العيب ولكنه لا يملك العلاج والخلاص المسيحى ينقذه من ذل الخطية.

(١) لوقا ٧ : ٥٠.

(٢) أفسس ٢ : ٨.

(٣) الخلاص فى مفهوم الكتابى والتطبيقات ص ١١ - ١٢.

(٤) د/ جورج بوست : فهرس الكتاب المقدس ص ١٧٩ ، ١٨٠.

(٥) الخلاص فى مفهوم الكتابى والتطبيقات ص ١٣ ، ويقصد بالمعنى الروحى : هو الإنقاذ من الخطية.

إنه خلاص من غضب الله: إن فى العالم قانوناً أخلاقياً لا يمكننا أن نتجاهله وإن فى الإيمان المسيحى فكرة الدينونة وبدون الخلاص الذى فى المسيح يقف الإنسان تحت العقوبة"^(١).

ويقول بنيامين بنكرتن فى تفسير "إنجيل متى"

قد تعودنا أن نجعل معنى كلمة "خلاص" قاصراً على خلاص النفس من الدينونة الأبدية ولكنها وردت فى مواضع كثيرة بمعنى الشفاء لكونه خلاصاً من الأمراض وبمعنى الإنقاذ من الأخطار والاضطهاد وما شاكل ذلك"^(٢).

كل هذه المعانى السابقة لكلمة الخلاص معانى عامة وضعها المسيحيون لتوسيع دائرة الخلاص.

المعنى الاصطلاحي:

أما المعنى الدقيق الاصطلاحي لكلمة الخلاص فهو (ينصب على الخلاص من الخطيئة)^(٣) حتى أصبح هذا المعنى لازماً للخلاص.

يقول القس إلياس مقار: "إن الخلاص كما هو واضح من رسالة المسيح والمسيحية هو خلاص الإنسان من الخطيئة"^(٤). إذ قال الملاك عن العذراء "فستلد ابناً وتدعو اسمه يسوع لأنه يخلص شعبه من خطاياهم"^(٥).

فالخلاص: هو التحرر من الخطيئة والتحرر بالتالى من آثارها^(٦) أى أن "الخلاص من قصاص الخطيئة لا يترتب عليه النجاة من دينونها إلى الأبد فقط بل يترتب عليه أيضاً تبرير الخطاة وتطهيرهم وتقديسهم ومصالحتهم مع الله وتمتعهم معه بالحياة الأبدية"^(٧).

وعليه فالخلاص من الخطيئة - فى نظرهم - يشمل الأزمنة الثلاثة:

(١) باركللى: تفسير العهد الجديد: رسالة بولس إلى أهل رومية ص ٣٤.

(٢) بنيامين بنكرتن: تفسير إنجيل متى ص ١٦٨.

(٣) د/ القس فهدى عزيز: المدخل إلى العهد الجديد ص ١٨٣.

(٤) القس إلياس مقار: "إيماني" أو قضايا المسيحية الكبرى ص ٣٨٦.

(٥) متى ١: ٢١.

(٦) جون ستوت: المسيحية فى جوهرها ص ١٣١.

(٧) عوض سمعان: طريق الخلاص ص ٢٥.

الماضى، والحاضر، والمستقبل.

الخلاص من الماضى: وهو ما يعبر عنه بغفران الخطية التى ورثها الإنسان، والتجديد.

الخلاص فى الحاضر: وهو ما يعبر عنه بالتقديس.

الخلاص فى المستقبل: وهو ما يعبر عنه بالتمجيد.

لذلك يقول كلايد تارنر:

للخلاص ثلاث مراحل:

اختبار أولى: تجديد

اختيار نام: تقديس

اختبار نهائى: تمجيد

أى خلاص من لعنة الخطيئة

خلاص من سلطان الخطيئة

وأخيرا الخلاص من الخطيئة

والخلاص من الخطيئة له ثلاث صيغ:

(ماضى) (تخلصنا) وهذا هو التجديد^(١).

"حاضر" "نحن نخلص" وهذا هو التقديس^(٢).

"مستقبل" "سنخلص" وهذا هو التمجيد^{(٣)(٤)}.

والتجديد: هو غفران الخطيئة التى ولد بها الإنسان والخطايا التى فعلها الإنسان

فى ماضى حياته. والتقديس: هو الحصول على الخلاص كل يوم بالتطهير فى ضعف

الإنسان وزلاته بروح القدس^(٥).

يقول: عوض سمعان: والتقديس يراد به أمران:

الأول: التكريس أو التخصيص فقول المسيح عن نفسه "لأجلهم أقدم أنا

ذاتى"^(٦) يراد به أن يخص ذاته لرعايتهم والعناية بهم.

(١) أفسس ٢: ٥ - ٨.

(٢) فيلبي ٢: ١٢.

(٣) رومية ٥: ٩ ، ١٣: ١١.

(٤) كلايد تارنر: هذه عقائدنا ص ١١٢ ، القس بخت متى: قضاء الله ومسئولية الإنسان ص ١٥٥.

(٥) نادى منيس: الخلاص فى الكتاب المقدس ص ٩.

(٦) يوحنا ١٧: ٩.

الثانى: التكميل فقول بولس إلى أهل تسالونيكي "إن السلام نفسه يقدسكم بالتمام"^(١) يراد به أن الله يكملهم إلى التمام ولذلك فتقديس المؤمنين لا يراد به فقط تخصيصهم لله بل وأيضاً جعلهم كاملين أمامه^(٢).

والتمجيد: هو الحصول على الحياة الأبدية عن طريق الحصول على جسد مجد وارث السماء مع المسيح^(٣).

يقول القس / صموئيل حبيب:

إن دعوة الله للخلاص تحمل المفاهيم الآتية:

أولاً: دعوة للتحرر من الخطيئة وعقابها:

وهذا هو المعنى الأساسى للخلاص إنه يعنى إنقاذ الإنسان من الخطيئة وأسرها واستعبادها وبالتالي فهو إنقاذ من عقابها.

ثانياً: دعوى للتقديس:

ويقصد بالتقديس "التخصيص والفرز" كما يقصد به التطهير^(٤) الروحى والأدبى.

ثالثاً: دعوة للمجد:

يقول بولس "نحن الذين لنا باكورة الروح نحن أنفسنا أيضاً نثن فى أنفسنا متوقعين التبنى فداء أجسادنا"^(٥) فإن الخلاص هنا يعنى الخلاص من الجسد أى - التمجيد^(٦).

وعلى ذلك يتبين لنا أن الخلاص من الخطيئة لكى يكون تاماً - فى نظرهم - لابد وأن يكون:

أولاً: خلاصاً من دين الخطيئة

ثانياً: خلاصاً من سلطان الخطيئة

(١) ١. تسالونيكي ٥ : ٢٣.

(٢) عوض سمعان: طريق الخلاص ص ٣٠.

(٣) الخلاص فى الكتاب المقدس ص ٩.

(٤) والتطهير يراد به إزالة كل أثر للخطية من المؤمنين من أمام الله حتى يظهروا أمام الله بلا عيب على الإطلاق (طريق الخلاص ص ٢٩).

(٥) رومية ٨ : ٢٣.

(٦) صموئيل حبيب: الخلاص فى مفهومه الكتابى والتطبيقات ص ٦٦.

١ - الخلاص من دين الخطيئة:

يقول القس إلياس مقار: الكتاب المقدس يفيد بأن الجنس البشرى ورث الأبوين الأولين فى سقوطهما وفساد الطبيعة، ألم يقل داود فى ذلك "هاأنذا بالإثم صورت وبالخطيئة جبلت بى أمى"^(١) فإذا أضيف إلى هذا أننا خطاة ومدنيون ليس على أساس الخطيئة الأصلية^(٢) فحسب بل على أساس ما نرتكب من خطايا فعلية مستمرة دائمة أمام الله أضحى مركز كل بشرى مركز المدين أمام الله بدين الخطيئة الأصلية والفعلية معا. والمسيح فى أكثر من مثل عبر عن الخطيئة كدين إذ قال فى مثل العبد الشرير: "فلما ابتدأ فى المحاسبة قدم إليه واحد مديون"^(٣) وفى المثل الذى تحدث به إلى سمعان الفريسي (وكان لمداين مديونان)^(٤).

لقد خلق الله الإنسان وربطه بطبيعته تعالى ونظامه وناموسه الأدبى وكل خروج على هذه الطبيعة وحكمها الأدبى وعدالتها وحققها وقداستها لابد أن ينال الجزاء، والإنسان بهذا المعنى مدين من هامة رأسه إلى أخمص القدم وفى حاجة إلى الخلاص من دين الخطيئة^(٥).

يقول بولس فى رسالته الثانية إلى تيموثاوس "الذى خلصنا ودعانا دعوة مقدسة لا بمقتضى أعمالنا بل بمقتضى القصد والنعمة التى أعطيت فى المسيح يسوع قبل الأزمنة الأزلية وإنما أظهرت الآن بظهور مخلصنا يسوع المسيح"^(٦).

وجاء فى أعمال الرسل عن المسيح (ليس بأحد غيره الخلاص. لأنه ليس اسم آخر تحت السماء قد أعطى بين الناس به ينبغي أن نخلص)^(٧).

(١) مزمو ٥١ : ٥.

(٢) ويقصد بالخطيئة الأصلية: خطيئة آدم.

(٣) متى ١٨ : ٢٤.

(٤) لوقا ٧ : ٤١.

(٥) القس إلياس مقار: (إيماني أو قضايا المسيحية الكبرى) ص ٢٨٦ - ٢٨٧ بتصرف.

(٦) ٢ تيموثاوس ١ : ٩.

(٧) أعمال الرسل ٤ : ١٢.

وفى رسالة بولس إلى أهل رومية (لأنك إن اعترفت بفمك بالرب يسوع وآمنت بقلبك أن الله أقامه من الأموات خلصت) ^(١) وهذا الخلاص يتم فى الحال على اعتبار أن الخطيئة دين ^(٢).

فالخلاص فى هذه الفقرات معناه - عند المسيحيين -: الخلاص من خطيئة آدم التى ورثها لأبنائه وذريته والجنس البشرى من بعده، وهذا هو الشرط الأول للخلاص من دين الخطيئة.

أما الشرط الثانى فهو الخلاص من الخطايا الأخرى وهذا هو المقصود مما جاء فى رسالة أعمال الرسل "أن كل من يؤمن به - أى المسيح - ينال باسمه غفران الخطايا" ^(٣) وفى رسالة يوحنا الأولى (قد غفرت لكم الخطايا من أجل اسمه) ^(٤) وفى رسالة بولس إلى أهل كورنثوس (مساحاً لكم جميع الخطايا) ^(٥) وغفران الخطايا بالجمع يراد به - عندهم - غفران جميع الخطايا وليس خطيئة آدم فحسب. ونظراً لأن هذا الخلاص تم بكفارة المسيح ويحصلون عليه كما يقولون بالإيمان لذلك ترد أفعال الخلاص فى صيغة الماضى والحاضر ^(٦).

٢ - الخلاص من سلطان الخطيئة:

يقول القس إلياس مقار "وهذا ما يحتاجه الإنسان بكل يقين وتأكيد إلى جانب تحرره من دينها البغيض إذ أن طبيعة الإنسان الفاسدة طبيعة مريضة، والمريض المنحرف لا يمكن أن يتصرف تصرفاً سليماً بل هو مكبل ومقيد بالعادات الشريرة والغرائز الفاسدة وكلما أمعن وأوغل فى الخطيئة كلما ازدادت قسوة هذه العادات والغرائز فى حياته ومنهاج سلوكه ومن ثم رأينا يصرخ فى أحيان متعددة هذه الصرخة المؤثرة المحزونة "لأنى لست أعرف ما أنا أفعله إذ لست أفعل ما أريده بل ما أبغضه فإياه أفعل.. لأن الإرادة حاضرة عندى وأما أن أفعل الحسنى فلست أجد... ويحى أنا الإنسان الشقى" ^(٧) وكل هذا لأنه مريض بأقسى مرض، وعنه يقول المسيح

(١) رومية ١٠ : ٩.

(٢) المرجع السابق ص ٢٨٧.

(٣) أعمال الرسل ٢٦ : ١٨.

(٤) ١ - يوحنا ٢ : ١٢.

(٥) كورنثوس ٢ : ١٣.

(٦) عوض سيمان: طريق الخلاص ص ٢٥ - ٢٦.

(٧) رومية ٧ : ١٥ - ٢٤.

"لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى"^(١) ومن ثم فهو - أى الإنسان - فى حاجة لا إلى الخلاص من الخطيئة كدين بل كمرض أيضاً^(٢).

وهذه الفكرة مبنية عندهم على أساس أن الطبيعة الإنسانية طبيعة فاسدة نتيجة لتعلقها بالخطيئة الموروثة عن طريق التوالد الجسدى. وهى فكرة سنناقشها فيما بعد.

يقول عوض سمعان (والمسيح لم يخلصنا فى الماضى من عقوبة الخطيئة الأبدية ويخلصنا فى الوقت الحاضر من سلطة الخطيئة وتأثيرها على نفوسنا فحسب ولكنه وعد أيضاً أنه سيخلصنا من الطبيعة الخاطئة نفسها أو بالحرى يغير أجسادنا إلى صورة جسد مجده)^(٣).

فقد قال بولس "هكذا المسيح أيضاً بعدما قدم مرة لكى يحمل خطايا كثيرة سيظهر ثانية بلا خطية (أو بالحرى بدون أى عمل خاص بالخطيئة) للذين ينتظرونه"^(٤) وهذا ما يعبر عنه بالخلاص فى المستقبل عندما يتحرر الإنسان من كل رواسب الخطيئة عندما يصل إلى المجد الأبدى^(٥) وهذا ظاهر من قول بولس (فإن خلاصنا الآن أقرب مما كان حين آمنّا)^(٦) وقول يوحنا "هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكى لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية"^(٧).

ونخلص من هذا كله إلى تعريف عام للخلاص فى اصطلاح المسيحيين: هو كما يقول أحدهم: تحرير الإنسان الكامل من دين الخطيئة ومرضها وسلطانها واستعبادها نفساً وروحاً وجسداً والأخذ بيده حتى يقف أمام الله فى كمال البر والقداسة والمجد والعزة والبهاء إلى أبدين الآبدى^(٨) ويقول آخر: فخلاص الإنسان معناه ليس فقط

(١) متى ٩ : ١٢.

(٢) قضايا المسيحية الكبرى ص ٣٨٧.

(٣) عوض سمعان: طريق الخلاص ص ٣٣.

(٤) عبرانيين ٩ : ٢٨.

(٥) قضايا المسيحية الكبرى ص ٣٨٧.

(٦) رومية ١٣ : ١١.

(٧) يوحنا ٣ : ١٦.

(٨) المرجع السابق ص ٣٨٨.

غفران الخطية ولكن أيضاً خلقه الإنسان خلقه جديدة، ولا يستطيع المخلوق أن يخلق بل لابد أن يخلقه كلمة الله الذى خلقه فى الأصل، وهذا الخلق الجديد لابد أن يتم فى داخل طبيعة الإنسان التى فسدت، بل لابد من إبطال الخطية وإلغاء الفساد والموت داخل الإنسان نفسه لذلك كان لابد للخالق أن يأخذ طبيعة الإنسان ويوحدها بنفسه أى يصير إنساناً لكى يمكنه من أن يموت بهذا الجسد الذى اتخذه^(١).

وجاء فى كتاب (شرح أصول الإيمان).

المрад بالخلاص: نجاة كلية من كل خطية وقوتها ونتائجها ونوال كمال السعادة والراحة الأبديتين^(٢). هذا هو الخلاص فى اصطلاح المسيحيين وهو كما رأينا يختص أساساً بالخلاص من الخطيئة فى جميع أدوارها وأزمانها ونتيجة لهذا الخلاص ينال الإنسان الحياة الأبدية.

تعريف الفداء:

إن كلمة الفداء قريبة المعنى من كلمة الخلاص وغالباً ما نجد علماء المسيحيين يطلقون على الخلاص فداء وعلى الفداء خلاصاً لذلك كان لابد من تعريف "الفداء حتى يتبين ما بينهما من ارتباط.

الفداء فى اللغة:

يقول ابن منظور (فدى: فديته وفداء، افتديته)

قال الشاعر: فلو كان ميت يفتدى لفديته بما لم تكن عنه النفوس تطيب

وإنه لحسن الفدية، والمفاداة: أن تدفع رجلاً وتأخذ رجلاً

والفداء: أن تشتريه، فديته بمالى وفديتى بنفسى. وفى التنزيل العزيز ﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ

أُسْرَىٰ تَفْدُوهُمْ﴾ [سورة البقرة آية ٨٥].

(١) باسيليوس: سر الفداء ص ١٨.

(٢) د/أندرو وطسون، د/ القس إبراهيم سعيد: شرح أصول الإيمان ص ٤٥١.

وقرئ (تفدوهم)^(١). قال أبو معاذ: من قرأ "تفدوهم" فمعناه تشتروهم من العدو وتنفذوهم وأما "تفادوهم" فيكون معناه: تماكسون من هم في أيديهم في الثمن ويماكسونكم.

قال الوزير ابن المغربي: فدى إذا أعطى مالا وأخذ رجلاً وأفدى إذا أعطى رجلاً وأخذ مالا، وفادى إذا أعطى رجلاً وأخذ رجلاً^(٢). وجاء في المعجم الوسيط. الفداء: ما يقدم من مال ونحوه لتخليص المفدى^(٣) فالفداء كلمة تعنى فى معاجم اللغة الاشتراء والإنقاذ والخلاص.

الفداء فى اصطلاح المسيحيين:

جاء فى قاموس الكتاب المقدس، تشير لفظة الفداء فى العهد القديم فى أغلب الأحيان إلى خلاص الجسد، فى سفر التثنية (بل من محبة الرب إياكم وحفظه القسم الذى أقسم لأبائكم أخرجكم الرب بيد شديدة وفداكم من بيت العبودية من يد فرعون ملك مصر)^(٤) "الرب إلهكم الذى أخرجكم من أرض مصر وفداكم من بيت العبودية"^(٥).

أما فى العهد الجديد فتشير إلى الخلاص من الخطيئة (الذى بذل نفسه لأجلنا لكي يفدنا من كل إثم)^(٦) ومن نتائجها "لأن ابن الإنسان أيضاً لم يأت لىخدم بل لىخدم وليبذل نفسه فدية عن كثيرين"^(٧) وإلى الخلاص من رق الناموس "ولما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة مولوداً تحت الناموس ليفتدى الذين تحت الناموس لننال التبنى"^{(٨)(٩)}.

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر "أسارى" بألف، و"تفدوهم" بغير ألف، وقرأ نافع وعاصم والكسائي ويعقوب الحضرى "أسارى تفادوهم" بألف فيهما، وقرأ حمزة "أسرى تفدوهم" بغير ألف فيهما. ص ٣٣٦٦ لسان العرب.

(٢) ابن منظور: لسان العرب ص ٣٣٦٦ ط دار المعارف.

(٣) المعجم الوسيط ج ٢ ص ٦٧٨.

(٤) تثنية ٧ : ٨.

(٥) تثنية ١٣ : ٥.

(٦) تيطس ٢ : ١٤.

(٧) مرقس ١٠ : ٤٥.

(٨) غلاطية ٤ : ٤ ، ٥.

(٩) قاموس الكتاب المقدس ص ٦٧٢.

وفى علم اللاهوت النظامى^(١) المراد بالفداء : الإنقاذ من الشر والبلية بتأدية الفدية المعبر بها عن هذا المعنى. فى الأصل اليونانى معناها الأول اشترى ثم اشترى بدفع الثمن فدية (لترعوا كنيسة الله التى اقتناها بدمه)^(٢) فلفظة الفداء يعبر بها عن نتيجة كفارة المسيح باعتبار نسبتها إلى الإنسان لأنه نال بها الفداء أى التخلص من لعنة الشريعة ومن عبودية الخطية ومن القصاص الأبدى بواسطة عمل المسيح الذى دفع عنه فدية دمه^(٣) كما قيل "إن ابن الإنسان أتى لينذل نفسه فدية عن كثيرين"^(٤) فالمسيح قدم نفسه - كما يقولون - فدية عن خطايا العالم أجمع^(٥).

وعلى هذا يتبين لنا مدى القرب الشديد لمعنى الفداء من معنى الخلاص فهما يحملان معانى قريبة الشبه وإن كان الفداء كما هو واضح ثمناً للخلاص أو بتعبير آخر مقدمة للخلاص. يقول د/ أندرو وطسون: يراد بالفداء كل بركات الخلاص المعلن فى الكتاب المقدس للخطاة الهالكين^(٦).

ويقول آخر: إن عمل الفداء وعمل الخلاص شئ واحد فإن الذى يقال له فى الكتب المقدسة خلاص يقال له أيضاً أحياناً فداء، وهكذا يقال عن المسيح إنه مخلص شعبه وفاديه، أما عمل الفداء فقد يراد به على حصر المعنى مشتري الخلاص بإعطاء البذل، وعلى ذلك لم يكن زمانه طويلاً لأنه ابتداءً من تجسد المسيح وانتهى عند وقوعه تحت سلطة الموت إلى يوم قيامته الذى فيه أكمل عمل الفداء فتمم المشتري.

(١) علم اللاهوت النظامى هو عنوان كتاب أصدرته الهيئة القبطية الإنجيلية بمصر، وهو كما جاء فى التقديم له - يعتبر المرجع الوحيد لعلم اللاهوت النظامى فى اللغة العربية وإن كانت قد ظهرت بعض الكتب التى تناقش موضوعات محددة إلا أنه لا يوجد مرجع شامل للبحث اللاهوتى النظامى المتكامل سوى هذا الكتاب، وقد بلغت صفحات هذا المرجع خمسا وعشرين ومائتين بعد الألف. وسمى علم اللاهوت النظامى لأن غايته - كما جاء فيه - نظام علم اللاهوت على ما يوافق بيان الحق ودفع الضلال. راجع ص ١٦.

(٢) سفر أعمال الرسل ٢٠ : ٢٨.

(٣) علم اللاهوت النظامى ص ٨٥٨.

(٤) المرجع السابق ص ٨٢٩.

(٥) متى ٢٠ : ٢٨.

(٦) يوحنا ٣ : ١٦.

(٧) د/ أندرو وطسون، د/ القس إبراهيم سعيد: (شرح أصول الإيمان) ص ٢١٠.

وقد يراد أحياناً بعمل الفداء على غير وجه الحصر جميع ما يعمل الله لهذه الغاية فلا ينحصر ذلك فى المشتري فقط بل يشمل جميع أعمال الله المعدة للمشتري والمتممة لنجاحه ، وعلى ذلك يراد على هذا المعنى بعمل الفداء جميع ما عمله الله فى استعداد فداء المسيح ومشتراه وتخصيصه ونجاحه^(١).

فعمل الفداء يراد به بالمعنى الخاص: الثمن الذى اشترى به الخلاص أى أن الخلاص نتيجة لعمل الفداء لذلك غالباً ما نجد دائماً عبارة "خلص بالفداء" ، وبالمعنى العام يضاهى الخلاص فى معناه ، وعلى هذا المعنى - المعنى العام - لا فرق بينهما. ويمكن القول إنهما إن اجتماعاً فى كلمة واحدة فيكون ذلك مثاراً لأن يكون لكل منهما معنى خاصاً به يترتب على أحدهما الآخر. وإن اختلفا يحمل كل منهما معنى الآخر.

(نشأة الخلاص)

تمهيد:

إن الخلاص بمعناه اللغوى العام شائع فى الديانات ، لا تخلو ديانة من وجود هذه المعانى ، من النجاة من الخطر ، والسلامة من الأخطار ، سواء أكانت دينية أم دنيوية. والديانات الوثنية التى تسير على غير هدى تجد فى فكرة الخلاص بمعناه الخاص الدينى مرتعاً خصباً للأمانى الدينية والدنيوية فى المستقبل ، وكثيراً ما تكون هذه الأمانى مرتبطة بالآزمات وأوقات الضيق والشدة.

يقول العقاد: "يدل علم المقارنة بين الأديان على شيوع الإيمان بالخلاص وظهور الرسول المخلص فى زمن مقبل ، وظهر من عقائد القبائل الحمر فى القارة الأمريكية أن القبائل التى تؤمن بهذه العقيدة غير قليلة من الأمريكتين وليس فى هذا عجب.. لأن الرجاء فى الخير أصل من أصول الديانة والأمل فى الصلاح مادة من مواد الحياة الإنسانية فى طلب الكمال والخلاص من العيوب وقد يشتد هذا الأمل حين تشتد الحاجة إليه ، فكان المصريون الأوائل يترقبون "المخلص" المنقذ بعد زوال الدولة القديمة ، وكان البابليون يؤمنون بعودة "مردخ" إلى الأرض فترة لقمع الفتنة وتطهيرها

(١) القس إنسطاسى شفيق: الفداء فى إنجيل لوقا ص ٢٦.

من الفساد، وكان المجوس يؤمنون بظهور رسول من إله النور كل ألف سنة ينبعث فى جسد إنسان وقيل إنه هو زرادشت^(١).

قالديانات وإن اتفقت فى الرجاء فى الخير كمعنى عام للخلاص إلا أنها تختلف فى المعانى الاصطلاحية والتفصيلية التى تجعلها معنى خاصاً بها.

الخلاص اليهودى:

مما لاشك فيه أن المسيحية حلقة من حلقات ديانة بنى إسرائيل، وأن المسيح عيسى بن مريم واحد من أنبياء بنى إسرائيل فهو يقول وهو يحدد معالم دعوته للآلثنى عشر "إلى طريق أمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامرين لا تدخلوا بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة"^(٢) ثم يعلنها المسيح صراحة حين خرجت عليه هو وتلاميذه امرأة كنعانية^(٣) تلمس منه الشفاء لآبنتها "فلم يجبها بكلمة فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين اصرفها لأنها تصيح وراءنا فأجاب وقال لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة"^(٤).

فهذه الفقرة أفادت أن المسيح مرسل إلى خراف بيت إسرائيل الضالة وفى نفس الوقت نفت إرسال المسيح إلى غيرهم، لقد حددت هذه الفقرة التى قالها المسيح من هم المرسل إليهم. والمسيح بين لتلاميذه أن دعوته ليس المقصود منها ديانة جديدة وشريعة جديدة وإنما بين لهم أنه يسير فى نفس الطريق الذى رسمه أنبياء بنى إسرائيل فهو يقول (لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس بل لأكمل)^(٥).

يقول بنيامين بنكرتن فى تفسير هذه الفقرة:

كان الناموس نيرا لم يستطع إسرائيل أن يحمله (أعمال ١٥ : ١٠) وطالما وبخهم الأنبياء على مخالفتهم إياه ولكن بدون نتيجة حسنة، ولم يزل الناموس حاكما عليهم (غلاطية ٣ : ١٠) وأما الآن فقد حضر المسيح بينهم ليعلمهم، فهل يا ترى

(١) العقاد: حياة المسيح ص ٢٨.

(٢) متى ١٠ : ٦.

(٣) امرأة كنعانية كما فى إنجيل متى ١٥ : ٢١ ولكن إنجيل مرقس قال إنها فينيقية أى سورية ٧ : ٢٦.

(٤) متى ١٥ : ٢١ - ٢٤.

(٥) متى ٥ : ١٧ - ١٨.

ينسخ الناموس؟ أو يخفف مطالبه عنهم؟ إنه لا يعمل هذا ولا ذاك لأن الناموس صالح ومقدس وعادل^(١) وليس اللوم عليه بل عليهم. إذن لم يأت المسيح لينقض شيئاً من الناموس أو الأنبياء، أما قوله "لأكمل" فمعناه:

أولاً: أنه لا يبطل سلطان الناموس أو الأنبياء بل يبقيه في وضعه الإلهي.

ثانياً: أنه هو بذاته تكميل الناموس أو الأنبياء^(٢).

وعلى ذلك: فإن أى تاريخ لأى فكرة من أفكار العقائد المسيحية لابد أن يبدأ أولاً بما لدى اليهود من معان لهذه العقيدة حتى يتبين لنا مدى تطبيق "لم آت لأنقض الناموس"، وحتى يظهر لنا: هل قبل المسيحيون عقيدة الخلاص اليهودي أم لا؟ وما سبب القبول أو عدم القبول؟

والخلاص اليهودي يقوم على أساس أن هناك مخلصاً منتظراً يأتى ليخلصهم "وكان اليهود يحدثون مواطنيهم عن النبي المنتظر وكانوا يعللون أنفسهم بهذا الحديث كلما ضاقت بهم السبل"^(٣).

أسباب قول اليهود بالخلاص على يد المخلص

السبب الأول: كان السبب الأول الذى جعل اليهود ينتظرون مخلصاً هو اعتقادهم بأنهم شعب الله المختار اختارهم وحدهم شعباً خالصاً له دون سائر الشعوب.

ففى سفر الخروج "أنتم تكونون لى مملكة كهنة وأمة مقدسة"^(٤).

وفى سفر التثنية "مباركاً تكون فوق جميع الشعوب لا يكون عقيم ولا عاقر فيك ولا فى بهائمك. ويرد الرب عنك كل مرض وكل أدواء مصر الرديئة التى عرفتها لا يضعها عليك بل يجعلها على كل مبغضيك. وتأكل كل الشعوب الذين الرب إلهك يدفع إليك. لا تشفق عيناك عليهم"^(٥).

(١) رومية ٧: ١٢.

(٢) بنيامين بنكرتن: تفسير إنجيل متى ص ٧٣ - ٧٤.

(٣) د/ رفقي زهران: قصة الأديان ص ١٨٩.

(٤) خروج ١٩: ٦.

(٥) تثنية ٧: ١٤ - ١٦.

فقد رأوا أن يتحدثوا عن أنفسهم بأنهم شعب الله الذى اختارهم على علم على العالمين وأنهم أبناء الله وأحباؤه فأطلقوا على الله لقب "الآب" وأطلقوا على أنفسهم لقب "الأبناء" وكتبوا فى توراة موسى عليه السلام أن الله خاطبهم بقوله "أنتم أولاد للرب إلهكم. لا تخمشوا أجسادكم ولا تجعلوا قرعة^(١) بين أعينكم لأجل ميت. لأنك شعب مقدس للرب إلهك وقد اختارك الرب لكى تكون له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض"^{(٢)، (٣)}.

يقول العالم الإنجليزى (ولز):

إن فكرة المسيح عند اليهود كانت خطوة طبيعية ناشئة عن خطوات سبقتها، وتلك الخطوات هى الاعتقاد بأن الخلق أجمعين ليسوا من أبناء إبراهيم وإنما هم أمم وقبائل، وأن الشعب اليهودى أرقى هذه الأجناس وتلك الأمم وأن إلههم يهوه أعظم وأقوى آلهة القبائل خطراً، وانتهى الأمر بالشعب اليهودى أن اقتنعوا - على بكرة أبيهم - بأنهم الشعب المختار للرب الأوحد للأرض قاطبة.

ونشأت عن هذه الأفكار الثلاثة فكرة المسيح المنقذ رجاء أن يحقق لليهود ما ترامى به الزمن من وعود يهوه التى طال عليها الأمد^(٤).

ويضاف إلى ذلك أن فكرة انتظار المخلص لدى اليهود كانت مرتبطة بفكرة تجديد العهد مع الرب لكى تصبح أمة الله جديدة به وتصبح أورشليم مدينة لا تبارى^(٥).

فاليهود اعتقدوا أنهم شعب مميز اختاره الرب ليكون شعبه المقدس لذلك كان لابد أن يرسل الرب - فى نظرهم - مخلصاً لهم ليجدد العهد وليبرأهم مما هم فيه كما سيأتى فى السبب الثانى.

(١) أى خلق شعر الرأس، وكان خلق شعر الرأس عند العبرانيين من علامات الحزن (إشعياء ٣ : ٢٤) أو الحجل (حزقيال ٧ : ٨) أو إتمام نذر (عدد ٦ : ١٩) راجع قاموس الكتاب المقدس ص ٧١٧.

(٢) تثنية ١٤ : ١ ، ٢.

(٣) د/ أحمد السقا: أقاليم النصارى ص ١١ ، ١٢.

(٤) ولز: معالم تاريخ الإنسانية المجلد الثانى ص ٢٩٩ ، ٣٠٠.

(٥) نورمان كانتو: التاريخ الوسيط. ترجمة د/ قاسم عبده قاسم ص ٥٦.

استولت هذه الفكرة - القائلة بالانتساب إلى شعب مختار - على لب اليهود الذين ظلوا في بابل ووصل الأدب الخاص بها إلى اليهود الذين كانوا مستقرين في مصر آنذاك كما أنها أثرت في الشعب المختلط الذي أسكن السامرة (وهي العاصمة القديمة للملك إسرائيل) "عندما أبعدت القبائل العشر"^(١) إلى ميديا وهي التي أوحى إلى عدد كبير من البابليين وغيرهم أن يدعوا في إبراهيم أبا لهم وأن يفرضوا أنفسهم على اليهود العائدين"^(٢).

ويشير العلامة (ولز) إلى أن فترة السبي البابلي كان لها أكبر الأثر في ترسيخ هذه الفكرة في أذهان اليهود فيقول:

"والحقيقة المجردة المستخلصة من رواية الكتاب المقدس هي أن اليهود ذهبوا إلى بابل همجاً وعادوا منها ممدنين، خرجوا جمهوراً مختلطاً منقسماً على نفسه لا يربطه وعى ذاتي بوطنه وعادوا بروح قومية شديدة وجنوح إلى الاعتزال جعلهم يناون بجانبهم عمن عداهم"^(٣).

ويبين د/ القس فهيم عزيز أن اليهود تأثروا بالأدب اليوناني في إطلاق لفظ الآب على الله فيقول (أما في اليهودية فإننا نجد في كتب الأبوكريفا)^(٤)

(١) المراد بالقبائل العشر: الأسباط العشرة إذ المعروف أن بني إسرائيل اثنا عشر سبطاً ولم يكن سبط لاوى محسوباً منهم لأنه قد تعين للخدمة. وبقي الأسباط الاثنا عشر مرتبطين في مملكة واحدة حتى مات الملك سليمان فحدث بينهم مشاحنات وحدثت خصومة بين يهوذا وأفرام (٢ صموئيل ٤: ٩، ١٩: ٤١ - ٤٣) انتهت إلى انقسام المملكة إلى قسمين فانحاز يهوذا وبنيامين إلى رحبعام ابن الملك سليمان ودعوا مملكتهم باسم مملكة يهوذا أو المملكة الجنوبية. وانحاز الأسباط العشرة الباقون إلى يريعام ابن نباط ودعوا أنفسهم مملكة "إسرائيل" أو المملكة الشمالية "وأسماء أسباط بني إسرائيل حسب الترتيب الأبجدي: أشير، أفرام، بنيامين، جاد، دان، رأوبين، زبولون، شمعون، لاوى، منسى، نفتالي، يساكر، يهوذا، راجع قاموس الكتاب المقدس ص ٤٥٦، تاريخ الفكر المسيحي المجلد الأول ص ٤٢.

(٢) ولز: معالم تاريخ الإنسانية المجلد الثاني ص ٣٠٠.

(٣) المرجع السابق ص ٢٩٨.

(٤) أبو كريفا: كلمة يونانية معناها "تخفى" أو "تخبا" أو "سرى" وقد وردت في سفر دانيال في الترجمة السبعينية في ١١: ٤٣ للتعبير عن الكنوز المخفية؛ كما وردت في دانيال ٢: ١٩ للدلالة على معرفة الأسرار المخفية عن علم البشر.

وقد كان هناك نوعان من المعرفة الدينية عند اليونان في ذلك الحين. النوع الأول كان يشمل عقائد وطقوساً عامة لجميع طبقات البشر معرفتها وممارستها. أما النوع الثاني: فقد كان يشمل حقائق عميقة غامضة لا يمكن أن يفهمها أو يدرك كنهها إلا قلة من الخاصة ولذلك بقيت "تخفية" أو "أبو كريفية" عن العامة. وقد أطلقت في العصور المسيحية الأولى على بعض الكتب غير القانونية في العهد القديم وكذلك في العهد الجديد. قاموس الكتاب المقدس ص ١٨.

وغيرها بضعة شواهد حيث ينادى الله بلقب الآب ولكنها متأثرة بالأدب اليونانى^(١).

ولعل اختلاط اليهود بالشعوب المختلفة فى فترة السبى كان لها أكبر الأثر فى تأثر اليهود بعقائد وأفكار هذه الشعوب. ولعل اليهود أيضاً تأثروا ببعض أطراف فكرة - شعب الله المختار - وذلك مثل إطلاق لفظ الآب وغير ذلك.

السبب الثانى: ما أصاب اليهود من نكسات ومن هزائم وقتل وتشريد على يد البابليين والرومانيين مما جعلهم يفكرون - بعد اعتقادهم أنهم شعب متميز - فى هذا المخلص المنتظر وجعلوه خاصاً بهم، فبعد أن مات سليمان فى سنة ٩٣٥ ق.م انقسمت المملكة إلى قسمين^(٢):

مملكة الجنوب وتدعى يهوذا وعاصمتها أورشليم ولقد ملك عليها من سنة ٩٣٥ ق.م إلى سنة ٥٨٦ ق.م عشرون ملكاً وكلهم من عشيرة داود إذا استثنينا أخزيا بن يهورام إذ أن أمه عثليا كانت بنت عمرى ملك إسرائيل^(٣) وقد شمل هذا القسم كل بيت يهوذا وسبط بنيامين.

والقسم الثانى: هو مملكة إسرائيل فى الشمال وعاصمتها السامرة، وكان هذا القسم يشمل عشرة أسباط، وأول ملك على إسرائيل بعد الانقسام فى مملكة الشمال هو يريعام الذى عمل عجلى ذهب وقال لإسرائيل "هوذا آلهتك يا إسرائيل الذين أصدوك من أرض مصر. ووضع واحداً فى بيت إيل وجعل الآخر فى دان"^(٤).

وبذلك أراد يريعام أن يمنع شعب إسرائيل عن الذهاب إلى أورشليم وتقديم الذبائح هناك، حتى لا يرجع قلب هذا الشعب إلى رحبعام، وأن يقطع كل صلة

(١) د/ القس فهدى عزيز: المدخل إلى العهد الجديد ص ١٩١.

(٢) نبدأ هنا بعهد الانقسام: إذ هو الذى يهمنى فى بحثنا. المعروف أن تاريخ بنى إسرائيل القديم فى فلسطين ينقسم إلى ثلاثة أقسام - أو عصور - متميزة هى: ١- عهد القضاة ٢- عهد الملوك ٣- عهد الانقسام فزوال ملك بنى إسرائيل.

(٣) الملوك الثانى ٨: ٢٥ - ٢٨.

(٤) الملوك الأول ١٢: ٢٨، ٢٩.

يمكنها أن تربط شعب الجنوب (يهودا) بشعب الشمال (إسرائيل)، وبذلك ازدادت شقة الخلاف واتسعت الفجوة بين الشعبين، وأصبحت كفرستين بين مخالف الأمم التي تحيط بهما^(١).

لقد كان الصراع بين هذين الشعبين في أحيان كثيرة عنيفاً حتى إنه تطور إلى حروب وقتال وتشريد، وهكذا نرى أن إسرائيل ويهوذا المملكة المنقسمة عاشت في صراع وحروب وقتال ولم تعرفا السلام إلا في فترات قصيرة وعابرة "وكانت حرب بين رحبعام ويربعام كل الأيام"^(٢) ولقد استمرت هذه الحالة وسيطرت على المملكة المنقسمة من سنة ٩٣٥ إلى ٧٢١ ق.م أي سنة السبي الأول لإسرائيل^(٣).

يتحدث سفر الملوك الأول والثاني وسفر الأيام بإفادته عن المعارك التي تكاد تكون متصلة بين دولتي اليهود من جانب ومجاوريهم من جانب آخر، وكذلك عن الوقائع الغادرة بين دولة يهوذا ودولة إسرائيل وطالما استعانت إحدى هاتين الدولتين على الأخرى بدولة مجاورة، وكان وقوع دولتي اليهود بين مصر من جهة وآشور وبابل من جهة أخرى مثاراً لحروب طويلة^(٤).

وبعد أن ذاق هذا الشعب مرارة الانقسام والانشقاق الذي دام أكثر من مائتي عام (٩٣٥ - ٧٢١ ق.م) نراه يدخل في محنة جديدة أو بالمعنى الأصح يزوج به في معصرة تعصر لحمه وعظمه بلا شفقة ولا رحمة، ولقد بدأت هذه الكارثة بشعب إسرائيل أولاً عندما جاء "تغلت فلاسر" ملك آشور وهجم على إسرائيل "وأخذ عيون وآبل بيت معكة ويانوح وقادش وحاصور وجلعاد والجليل وكل أرض نفتالي وسباهم إلى آشور"^(٥). هذا هو السبي الأول الذي سبى فيه حوالي ٢٧.٢٩٠ يهوديا فيما بين سنتي ٧٣٤ - ٤٣٢ ق.م ولم يكن هذا السبي إلا فاتحة لسلسلة طويلة من السباء في المملكتين. (ثم في سنة ٧٢٤ ق.م) جاءت الجيوش الآشورية وحاصرت مدينة السامرة

(١) د/ القس حنا جرجس الخضرى: تاريخ الفكر المسيحي المجلد الأول ص ٤٢.

(٢) الملوك الأول ١٤: ٣٠، ١٥: ٦ أخبار الأيام الثاني ١٢: ١٥.

(٣) المصدر السابق ص ٤٣.

(٤) د/ أحمد شلبي: اليهودية ص ٨٨.

(٥) الملوك الثاني ١٥: ٢٩.

التي بذلت كل ما فى وسعها للمقاومة والصمود ضد العدو، إلا أن الحصار استمر حوالى ثلاث سنوات فلم تستطع المدينة مقاومة الأعداء الذين كانوا يحصرونها من الخارج وإمداد السكان بالطعام والشراب من الداخل فاضطرت السامرة فى نهاية الأمر إلى أن تسلم للعدو الآشورى، وهكذا سقطت السامرة فى يد سرجون الثانى سنة ٧٢١ ق.م بعد حصار طويل، ولم يكتف الآشوريون بدخول المدينة وتخريبها بل سبوا الإسرائيليين وطردهم من بلادهم^(١).

وفى سنة ٦٠٨ ق.م زحف "نخاو" فرعون مصر على مملكة يهوذا فاحتلها^(٢) وأصبح ملك يهوذا تابعاً يدفع الجزية لمصر^(٣) واستمر فى زحفه فاحتل مملكة إسرائيل التى كانت قد سقطت تحت سلطة الآشوريين وقد ثار لذلك ملك بابل (نبوخذ نصر) الذى آل له السلطان على آشور وزحف على فلسطين فهزم فرعون مصر واستعاد مملكة إسرائيل ثم احتل مملكة يهوذا وقتل صدقيا بن يواقيم آخر ملوك يهوذا ونهب أورشليم ودمرها ودمر معبد سليمان وسبى أكثر السكان إلى بابل وفر بعضهم إلى مصر وغيرها من الأقطار وأقام يختنصر على فلسطين والياً من قبله^(٤) "ولم يشفق على فتى أو عذراء ولا على شيخ أو أشيب بل دفع الجميع ليده، وجميع آنية بيت الله الكبيرة والصغيرة وخزائن بيت الرب وخزائن الملك ورؤسائه أتى بها جميعاً إلى بابل، وأحرقوا بيت الله وهدموا سور أورشليم وأحرقوا جميع قصورها بالنار وأهلكوا جميع آيتها الثمينة، وسبى الذين بقوا من السيف إلى بابل فكانوا له ولبنيه عبيداً إلى أن ملكت مملكة فارس"^(٥).

وحدث أن تعرضت المملكتين بعد السبى الأول إلى سبى ثان فى سنة ٥٩٧ ق.م وسبى ثالث ٥٨١ ق.م وتعرضت البلاد فيها إلى أنواع التدمير وتعرض أهلها للقتل وسفك الدماء وللتشريد خارج بلادهم.

(١) تاريخ الفكر المسيحى المجلد الأول ص ٤٣ ، ٤٤.

(٢) اليهودية ص ٨٩.

(٣) إرميا ٤٦ : ٢.

(٤) د/ أحمد شلبى : اليهودية ص ٨٩ ، ٩٠.

(٥) أخبار الأيام الثانى ٣٦ : ١٧ - ١٩.

وقد استمرت الإمبراطورية البابلية الثانية تحت حكم نبوخذنصر الملقب بالثاني (بختنصر) وخلفائه حتى سنة ٥٣٨ ق. م حين انهارت أمام هجمات كورش مؤسس الدولة الفارسية^(١)، ومن ثم أصبح له السلطان على أرض يهوذا وسمح كورش لليهود بالعودة إلى بلادهم ولكن أكثر اليهود كانوا قد ألفوا الحياة البابلية وامتدت بها أعراقهم وعرفوا بها خصب العيش والتجارة الراجحة ومن ثم فقد ترددوا طويلاً في العودة للقفار والصراع حول المدينة المقدسة وبعد هذا التردد استقر رأى الأغلبية الساحقة على البقاء، ولم تقبل العودة إلى فلسطين إلا قلة بدأت رحلتها بعد سنتين من مجئ كورش^(٢).

ولم ينعم اليهود كثيراً بحكم بلادهم فقد دخل الإسكندر الأكبر فلسطين واحتل القدس سنة ٣٣٢ ق. م، وبعد وفاته سنة ٣٢٣ ق. م صارت فلسطين في أيدي السلوقيين وظلت مسرحاً للاضطرابات يتداولها السلوقيون والبطالسة حتى وقعت البلاد تحت حكم الإمبراطورية الرومانية. وفي فترة السبي تلك وبسببه أيضاً تولدت، أو ثبتت - لدى اليهود فكرة المخلص الذي يخلصهم مما هم فيه.

يقول د/ حنا جرجس الخضرى: "وهناك فى السبى بدأ الشعب يحلم بمخلص وملك يخلصهم من سيهم ويحررهم من عبوديتهم ويخرجهم لا من مصر وحدها كما كان يحلم الشعب قديماً بل من بابل والمدن الأخرى التى تشتوا فيها"^(٣) إرميا يقول: "ها أيام تأتى يقول الرب وأقيم لداود غصن بر فيملك ملك وينجح ويجرى حقاً وعدلاً فى الأرض. فى أيامه يخلص يهوذا ويسكن إسرائيل آمناً"^(٤).

يقول العقاد: "ثبتت فكرة (المسيح المنتظر) فى عقائد بنى إسرائيل بعد زوال ملكهم وانتقالهم إلى الأسر البابلى"^(٥) "كما أن الحوادث الجسام التى تعرض لها اليهود أثناء السبى البابلى جعلتهم يتعلقون بهذه الفكرة"^(٦) حيث كانوا يترقبون

(١) معالم تاريخ الإنسانية المجلد الأول ص ١٦٣.

(٢) اليهودية ص ٩٢.

(٣) تاريخ الفكر المسيحي المجلد الأول ص ٥٠.

(٤) إرميا ٢٣: ٥ ، ٦.

(٥) العقاد: الله ص ١١١.

(٦) التاريخ الوسيط ص ٥٦.

مخلصا معنا: مسيحا يخلص البشرية بطريقة محبة إليهم تنطوى على استرجاع ما كان لداود وسليمان من مجد أسطوري ووضع العالم آخر الأمر تحت أقدام اليهودية^(١)، مخلصا يجمع شتاتهم ويرد عليهم ما سلبت يد الدهر منهم بعد أن وقع بهم ما وقع على أيدي جيرانهم الأقوياء من أسر وتقتيل وتشريد^(٢).

إن المخلص المنتظر بحسب المفهوم اليهودي يجب أن يكون إنساناً ومولوداً بطريقة بشرية، ولم يفكر أى يهودى فى أية لحظة من لحظات تاريخه فى السبى أو بعده بأن المخلص هو كائن سماوى أو آت من عالم آخر، بل كان الأمر المهم بالنسبة لكل يهودى أن المسيا المنتظر لابد وأن يكون من نسل داود؛ لكى يحرر الشعب من الاستعباد والاحتلال الأجنبى ويجلس على كرسى داود أبيه^(٣).

ولما كانت فكرتهم عن المخلص تتركز أساساً على الخلاص من الوهدة السياسية ومما هم فيه من ضعف وذلة ومهانة تحت أيدي البابليين فإنه لما أتى كورش المجوسى مؤسس الإمبراطورية الساسانية فى بلاد فارس وحارب البابليين وهزمهم وفك أسرى اليهود فى بابل وسمح لهم بالعودة إلى أورشليم وإعادة بناء الهيكل فرح اليهود بذلك فرحاً شديداً واعتقدوا أن كورش الوثنى هو المسيح المخلص الذى أرسله يهوه لإنقاذهم من أيدي البابليين فأطلقوا عليه لقب المسيح فهو مسيح الله - فى نظرهم - الذى أمسك الرب يمينه ليدوس به الأمم ويحطم الملوك.

يقول إشعياء "هكذا يقول الرب لمسيحه لكورش الذى أمسكت يمينه لأدوس أمامه أما وأحقاء ملوك أحل لأفتح أمامه المصراعين والأبواب لا تغلق"^(٤).

ولم يهنأ اليهود بفترة الهدوء والراحة والحرية طويلاً إذ نهضت الإمبراطورية الرومانية وقامت بشتى الحروب على الشعوب المجاورة بقصد التوسع، فضمت بلاد اليهودية ضمن ما ضمت من مستعمرات، وأذاقوا اليهود من العسف الكثير، كما

(١) ولز: معالم تاريخ الإنسانية المجلد الثانى ص ٦٨٦.

(٢) عبد الكريم الخطيب: المسيح فى القرآن والتوراة والإنجيل ص ٥٢٥.

(٣) تاريخ الفكر المسيحى ص ٣٢.

(٤) إشعياء ٤٥ : ١.

قتلوا الرجال، واستحيوا النساء، وحرّموا عليهم أى نقاش فى السياسة وشئون الحكم، يحسبون على الناس كلماتهم وألفاظهم وحركاتهم وسكناتهم، بل ويعدون عليهم الأنفاس والخلجات، فعادت باليهود أفكارهم وسرحت بهم أحلامهم إلى ظهور الشخص المخلص، أى مسيحا من سلالة ملوكهم يخلصهم من ظلم الرومان واستعبادهم، ويعيد إليهم مجدهم وحريتهم، ويعود بهم شعباً ممتازاً، وعنصراً مميزاً بين شعوب الأرض، حتى يعيدوا مملكة داود وعرش سليمان التى قاعدتها فى أورشليم. تجددت باليهود الأحلام والأوهام وكثرت الأقاويل والتكهنات، وتعددت الأساطير والأقاصيص فى هذا المسيح المخلص^(١).

يقول د/ رأفت عبد الحميد "نشأت اليهود فى كل ولايات الإمبراطورية الرومانية، وضربت عليهم الذلة والمسكنة أينما ثقفوا، ونظر اليهود إلى ماضيهم فأنفوا أنفسهم وقد تعرضوا لتاريخ طويل من الإذلال والشتات، بدأ بالآشوريين فالبابليين فالفرس فالإغريق ثم فى النهاية الرومان، ومن ثم تولد لدى اليهود كبير أمل وتوقع محدد صريح أن إلههم لا بد وأن يخلصهم يوماً من التبعية السياسية للسيد الأجنبى. والوسيلة الوحيدة لذلك - حسبما جاء فى نبوءات أنبياء بنى إسرائيل - أن يرسل يهوه مسيحا مخلصا لهذا الغرض؛ يخرجهم من الظلمات إلى النور - المادى والحسى - ويعيد لهم على الأرض مملكة داود وسليمان، ويحقق لهم عهداً جديداً من السلام والرخاء، من القوة والعظمة، وينهى بقوته وإلى الأبد حالات الحزن والقنوط والتبعية والإذلال، وأن يهوه لا بد وأن يعيد إلى شعبه ميراثه الصحيح ووضعه المرموق^(٢)."

ونستطيع أن نقول إنه تجدد الأمل لدى اليهود فى أن يرسل الله مخلصا يخلصهم بعد أن تولدت لديهم هذه الفكرة أثناء وبعد السبى البابلى، وليس صحيحاً ما قاله الدكتور رأفت عبد الحميد بأن فكرة المخلص تولدت أثناء تشتتهم فى ولايات

(١) المسيح إنسان أم إله ص ١٥، ١٦، محمد عزت الطهطاوى: الإسلام والنصرانية ص ٢٢٣، إبراهيم خليل أحمد: محمد فى التوراة والإنجيل والقرآن ص ٥٥،

(٢) د/ رأفت عبد الحميد: الدولة والكنيسة ج ٢ ص ٢٣، ٢٢ ط دار المعارف.

الإمبراطورية الرومانية، والأصح كما قلنا إنه تجدد لدى اليهود الأمل فى المخلص ليخلصهم من الخضوع للأجنى، ومخلصا لهم من التبعية لغيرهم، لذلك عندما جاء المسيح عيسى بن مريم عليه السلام لم يعتبروه مخلصا "إذ أن المخلص كان فى نظر اليهود منقذاً قومياً"^(١) غير أن اليهود أصيبوا بخيبة أمل بالغة عندما جاءهم المسيح يزين لهم ملكوت المسيح، ويعددهم وعداً حسناً فى الدار الآخرة، ومن ثم كفروا بالمسيح وراحوا يألون عليه^(٢). لم يؤمن اليهود به وتعللوا بأن الشروط التى وردت عند الأنبياء السابقين حول المخلص المنتظر لم تتحقق فيه^(٣).

رفض اليهود الدعوة الجديدة حيث تعارضت تماماً مع آمالهم وأحلامهم:

١- فلم تحقق لهم الملك المادى الذى كانوا يحلمون به حيث انتظروا بناء دولة إسرائيل على يد النبى الجديد فلم يحقق لهم هذا المطلب.

٢- ولم يخلصهم من الأسر الرومانى والذل والاستعباد وغير ذلك... ومن أجل هذا كله دخل اليهود فى صراع مع عيسى^(٤).

وهذه الفكرة - فكرة المخلص كما فهمها اليهود - ليست خالصة لهم وحدهم بل هناك من سبقوهم وخاصة الفارسيين الذين اختلط بهم اليهود.

إن فكرة المخلص برزت فى الفكر اليهودى فى وقت متأخر، ومراجعة الكتاب المقدس تقرر لنا أن هذه الفكرة لم تظهر إلا بعد سقوط دولتهم وأسرههم فى بابل ثم خضوعهم إلى الفرس^(٥) وهذا التوقيت دفع كثيرين من الباحثين إلى الاعتقاد بأن فكرة المنقذ المخلص مستعارة من الزرادشتية التى يدين بها الفرس، ويشرح "جوجنيرت" العلاقة بين الفكر الفارسى والفكر اليهودى فى مسألة المخلص فيقول: إن الاتجاه الفارسى كان يبرز انتصار الخير على الشر فى الصراع الطويل بينهما وذلك الذى سماه الفرس خيراً هو نفسه ما أسماه اليهود (المسيح)^(٦).

(١) نورمان كانتو: التاريخ الوسيط ص ٥٦.

(٢) الدولة والكنيسة ج ٢ ص ٢٣.

(٣) التاريخ الوسيط ص ٥٦.

(٤) د/ سعد الدين صالح: مشكلات العقيدة النصرانية ص ٥٢.

(٥) راجع سفر دانيال.

(٦) د/ أحمد شلبى: اليهودية ص ٢١٩ بتصرف شديد.

والعالم الإنجليزي (ولز) يقرر أن تأثر اليهود بفترة السبي واضح فيقول: ولكن الأسر البابلي وحدهم فعادوا إلى بلادهم شديدي اليقظة إلى أدبهم، عادوا شعباً متأجج الوعي الذاتى مشرباً بالنزعات السامية^(١) ويقرر - كما سبق أن أوردنا - أن اليهود ذهبوا إلى بابل همجاً وعادوا منها ممدنين، والعقل اليهودي ما لبث في أثناء مدة الأسر أن خطا إلى الأمام خطوة عظيمة.

وإذا تقرر تأثر اليهود بفترة السبي فإننا نضيف: لعل من الأفكار التي تأثر بها اليهود فكرة المخلص خاصة وأنها تولدت في تلك الفترة.

يقول د/ عزت زكي "وإبان السبي الفارسي يبدو أن اليهودية قد تمثلت شيئاً من ديانة فارس"^(٢).

تعليق عام على الخلاص اليهودي

إن الدلائل في التوراة التي أنزلت على موسى - وحتى بعد تحريفها - والتي تدل على بعث نبي منتظر كانت شائعة بين اليهود، وكانت هذه الدلائل والبشائر مما يلقى بال اليهود؛ لأن من أهم صفات النبي المنتظر أنه من أبناء إسماعيل جد العرب وليس من أبناء إسحاق جد اليهود، فما أن وقعت باليهود الجرائم من أسر وتقتيل وتشريد، وحدث لهم ما حدث على يد الآشوريين فالبابليين فالفرس حتى وجدوا الفرصة قد هيأت لهم بعد أن اطلعوا على الأفكار العامة لدى الأديان الشرقية التي كانت تؤمن بالمنقذ المخلص، وما أن عاد اليهود بعد فترة السبي إلى بلادهم إلا وقد تهيأت أذهانهم لقبول أفكار تعلموها على يد من اختلطوا بهم، وجدوا الفرصة سانحة لهم لأن لقبول موازين الأمور، ويقلبوا فكرة النبي المنتظر إلى مسيح مخلص منقذ على هيئة المنقذين لدى الأديان الشرقية، والتمسوا لها الأسباب حتى تم لهم ذلك، خاصة وأن كثيراً من المؤرخين قرروا أن اليهود ضاعت منهم التوراة الأصلية وكتبوا التوراة الجديدة بعد فترة السبي البابلي وأضافوا إليها ما يتفق وأفكارهم الجديدة.

(١) ولز: موجز تاريخ العالم ص ٩٠.

(٢) د/ عزت زكي: الأخلاقيات في محيط الفكر والديانات ص ١٢٠.

ولما كان لقب المسيح (مسيح الله لقباً معظماً فى بنى إسرائيل يتفاخر بحمله الملوك والعلماء والأنبياء لقبوا النبى المنتظر الذى تحدث عنه موسى - عليه السلام - بقوله: "يقيم لك الرب إلهك نبيا.." ^(١) لقبوه بلقب المسيح وقالوا: نحن فى انتظار المسيح، وفى مدينة بابل أراد اليهود قصر شريعة التوراة وأرادوا أن يصدوا الناس عن محمد صلى الله عليه وسلم إذا جاء، كرها فى العرب الذين خذلوهم فى حربهم "لبنوخذنصر" ملك بابل، فأوهموا الناس أن المسيح الذى ينتظرونه ليس من العرب أبناء إسماعيل، بل سيظهر من اليهود، ونشروا الإشاعة هذه فى كل مكان حلوا فيه، وهذا أول مكان ظهرت فيه فكرة المسيح المنتظر فى العالم على أنه سيظهر من اليهود ^(٢).

أساس عقيدة الخلاص المسيحى

إن الخلاص المسيحى يختلف فى أسسه وأسبابه عن الخلاص اليهودى، فبينما كان الخلاص اليهودى يقوم أساساً على التخلص من الوهدة السياسية والقسوة التى كان يعامل بها اليهود نجد الخلاص المسيحى يعتمد على أسس أخرى أهمها ما يلى :-

الأساس الأول: وحدة الجنس البشرى:

الأساس العام الذى تقوم عليه عقيدة الخلاص المسيحية يتلخص فى أن البشر من أصل واحد وهذا الأصل هو "آدم وحواء" وهما قد أخطأ نتيجة أكلهم من الشجرة المحرمة، والبشر مخطئون لأنهم متوالدون منهما.

جاء فى "علم اللاهوت النظامى":

إن للبشر أصلاً واحداً أى أن جميعهم متناسلون من رجل وامرأة اسم الرجل (آدم) ومعناه إنسان (تكوين ٥ : ٢) واسم المرأة حواء وسميت بذلك لأنها أم كل حى (أى كل حى من البشر) تكوين ٣ : ٢٠. وإنه لما كان الجنس البشرى كله متناسلاً منهما سقط بسقوطهما بدليل قول بولس "بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم

(١) تثنية ١٨ : ١٥ - ٢٢.

(٢) د/ أحمد السقا فى مقدمته لكتاب "الإعلام بما فى دين النصارى من الفساد والأوهام" للقرطبى ص ٢٩.

والموت نتيجة تلك الخطية اجتاز إلى كل البشر^(١) وقيل "إن الله خلق من دم واحد كل أمة من الناس"^(٢).

فيتضح من ذلك أن تعليم المسيحية في الخطية وكيفية دخولها في العالم وتأثيرها في كل البشر مبني على أنهم من أصل واحد ونوع واحد وكذلك تعليمها في المسيح أنه تجسد ومات لأجل جنس واحد هو الإنسان.

وقد اعتقدت الكنيسة المسيحية ذلك منذ نشأتها وحسبته من تعاليم الكتاب المقدس. يقول د/ فهميم عزيز: إن الخطية دخلت إلى العالم بإنسان واحد والذي هو آدم^(٣). ويقول، (فالخطية قد ملكت على العالم نتيجة لخطيئة آدم لأن البشرية كانت واحدة فيه، هذه الوحدة بين البشرية في آدم عنصر هام جداً في مفهوم بولس فهو يؤكد أن الجميع سواء أكان لديهم ناموس أو بدون ناموس مكتوب عليهم^(٤)) "قد ملك عليهم الموت نتيجة للخطية لأنهم أخطأوا بخطيئة آدم"^(٥).

وعلى ذلك فالخلاص المسيحي لازم للإنسان لأنه سقط بسقوط آدم وحواء. ولنا أن نقول: إن البشر وإن كان لهم أصل واحد - وهو آدم وحواء - فإن صفاتهم ونواياهم وأهدافهم تختلف من إنسان لآخر.

فمن ناحية الصفات الجسدية والمادية نرى اختلافا كبيرا من إنسان لآخر، ففي الوقت الذي نرى فيه إنسانا أبيض اللون، نرى آخر أسود اللون، وآخر أحمر اللون وهكذا. وفي الوقت الذي نرى فيه إنسانا طويلا، نرى آخر قصيرا، نرى إنسانا سمينا، والآخر نحيفا، وهذا ظاهر وواضح.

وكذلك أيضا نرى اختلافا كبيرا في نوايات وأهداف بني الإنسان، حيث تختلف أعمالهم من إنسان لآخر، ففي الوقت الذي نرى فيه رجلا يعمل الخير، نرى آخر يعمل الشر ويصر عليه إصرارا.

(١) رومية ٥ : ١٢.

(٢) أعمال الرسل ١٧ : ٢٦.

(٣) د/ القس فهميم عزيز: المدخل إلى العهد الجديد ص ٣٨٦.

(٤) رومية ٥ : ١٢.

(٥) المصدر السابق ص ٣٨٧.

وإذا اختلف بنو الإنسان فى الصفات الجسدية - التى توالدت من آدم وحواء - فبالأولى والأحرى أن يختلفوا فى مدى صلتهم بالأعمال الحسنة والأعمال السيئة، وليس ذلك لأن أصلهم آدم وحواء، بل لأن طبيعتهم المركبة من الخير والشر تقتضى ذلك / فالأصل واحد، والنوع واحد، لكن الصفات الجسدية والنفسية تختلف من إنسان لآخر، وهذا أدعى إلى الاختلاف فى الأعمال والأفعال التى تصدر عن الإنسان، وسنناقش بالتفصيل فى الفصول التالية فكرة توارث الخطيئة.

المهم هنا أن نقول: إن التوالد الطبيعى لا يمكن أن يكون مقياساً لصلاح إنسان أو فساده.

فى الوقت الذى نرى فيه رجلاً صالحاً وباراً، نرى ابنه غير صالح، وغير بار، نراه فاسداً كل الفساد، ولا يمت إلى الصلاح بأى صلة.

وفى الوقت الذى نرى فيه رجلاً فاسداً كل الفساد، نرى ابناً له يتصف بكل صفات الصلاح والهدى والتقوى.

وفى تاريخ الأنبياء السابقين ما يشير إلى هذه الحقيقة الواضحة.

الأساس الثانى: التوافق بين صفتى العدل والرحمة:

يعتقد المسيحيون أن من صفات الله العدل والرحمة، وبمقتضى صفة العدل كان على الله أن يعاقب ذرية آدم بسبب الخطيئة التى ارتكبها أبوه وطردها من الجنة، واستحق هو وأبناؤه البعد عن الله بسببها، وبمقتضى صفة الرحمة كان على الله أن يغفر سيئات البشر، ولم يكن هناك طريق للجمع بين العدل والرحمة - فى نظرهم - إلا بتوسط ابن الله وحيدته وقبوله أن يظهر فى صورة إنسان وأن يعيش كما يعيش الإنسان ثم يصلب ظمناً ليكفر عن خطيئة البشر.

يقول القس / إبراهيم لوقا: إن المسيحية تعلم أن الله - لكى يجمع بين عدله ورحمته فى تصرفه مع الإنسان عقب سقوطه - دبر طريقة فدائه بتجسد ابنه الحبيب وموته على الصليب نيابة عنا، وبهذا أخذ العدل حقه، واكتملت الرحمة، فنال البشر العفو والغفران^(١).

(١) القس / إبراهيم لوقا: المسيحية فى الإسلام ص ١٧١.

ويقول القس / إلياس مقار: لماذا يهتم الله بهذا الخلاص وتدريبه وترتيبه للإنسان مهما تكن مشقة هذا التدبير والثلث الذي يبذل أو يدفع فيه؟ ولماذا لا يترك الله الإنسان الساقط ليتحمل جزاء خطيئته؟ من الواضح أن الله باعتبار الحاكم الأدبي كان من الممكن أن يترك الجنس البشري لينال جزاءه العادل على ما يرتكب من خطايا وآثام دون أن تكون هناك أدنى شبهة من حيف أو ظلم. ولكن المعلوم أن الله ليس هو الحاكم الأدبي فقط، بل هو الأب المحب أيضاً، فإذا كانت عدالته تحتم وتؤكد عقاب الخطية، فإن رحمته وجوده وحنانه ولطفه ومحبه تحتم وتؤكد تدبير الخلاص أيضاً، فإذا كان من المسلم به أن عدالة الله كاملة وأن محبه كاملة كذلك وأنه لا يمكن أن يكون هناك تناقض بين العدالة والمحبة كان لنا أن نتوقع حتماً أن العدالة تعمل حيث يكون الجزاء، وإن المحبة تعمل حيث يكون الفداء والخلاص أيضاً، وإذا كان من الواضح أنه بسبب أكلة واحدة تعدى فيها آدم أمر الله ألحقت العدالة الإلهية بالجنس البشري كله ما نرى من جزاء وعقوبة كان لابد لنا أن نتصور أن محبة الله من الجانب الآخر تبذل كل شيء لفداء الإنسان^(١).

وتعليق بسيط على هذه الفكرة حتى لانتركها هكذا لأننا ستناقش فيما بعد بالتفصيل أطراف عقيدة الخلاص.

إن ما أورده المسيحيون من أجل تحقيق العدل والرحمة لا يتحقق فيه العدل والرحمة؛ حيث إن المسيح الذي لم يرتكب خطأ عوقب، وهل في عقاب غير المخطئ عدالة أو رحمة؟

إن المسرحية التي ألفوها لتحقيق العدل والرحمة لم تفلح لا في تحقيق العدل ولا الرحمة، فلم يتحقق واحد منهما، بل انتفى كلاهما، وبدلاً من أن يوصف الإله بالعدل والرحمة معا وصم بالظلم والقسوة جميعاً - تعالى الله على ذلك علواً كبيراً - أما العدل فلم يتحقق؛ لأن ألف باء العدالة تقتضى أن يتحمل الجاني مسئولية جنايته فلا ينزل العقاب بغيره، بل ينزل به هو فإذا ما خرج الأمر عن ذلك كان ظلماً وليس عدلاً. فإذا ما تصورنا - أن زيدا من الناس قد ارتكب جناية ثم نزل عقابها على

(١) القس إلياس مقار: "إيماني" أو "قضايا المسيحية الكبرى" ص ٣٨٨.

عمرو فإن أقل العقول ذكاء تجزم بأن ذلك ليس من العدل فى شىء على الإطلاق، وكذلك لم تتحقق الرحمة؛ لأن الرحمة تقتضى العفو عن الجانى بمعنى أن يكون هناك جان يستحق العقاب فنعفو عنه كلية أو نخفف عن عقابه المستحق شيئاً. ولكن القضية التى معنا ترك فيها الجانى الحقيقى، ثم أخذ مكانه البرئ وتحمل العقاب من لا يستحق، فأين هى الرحمة؟ إن تحمل البرئ عقاب ذنب لم يرتكبه لا يسمى رحمة^(١).

نشأة الخلاص المسيحى

قد تبين مما سبق أن اليهود كانوا يؤمنون بمخلص منقذ ينقذهم مما هم فيه من الضعف والانحلال الذى صاحبهم خلال أسرهم وخضوعهم للإمبراطوريات الثلاث الآشورية فالبابلية فالرومانية، ولم يؤمن اليهود بالمسيح لأنه لم تتوافر فيه ما يرغبون منه، والفرق بين اليهود الذين لم يؤمنوا بالمسيح واليهود الذين آمنوا به أن هؤلاء لم يؤمنوا بالمسيح لأنه ليس هو المنقذ، أما الذين آمنوا به فإنهم آمنوا به كمخلص منقذ ولكن بنوع آخر يختلف عن الخلاص الذى كان يؤمن به اليهود لذلك فإن للخلاص المسيحى نشأة أخرى.

والخطوة الأولى فى نشأة الخلاص المسيحى هو النظر فى أقوال المخلص نفسه عيسى بن مريم - عليه السلام - هل نسب إلى نفسه الخلاص أم لا؟ إننا إذا نسبنا إلى شخص عقيدة معينة لابد وأن يقرر الشخص هذه العقيدة وإلا فيكون هذا القول افتراء عليه. فالطريق الطبيعى أولاً هو النظر فى أقوال المسيح عيسى عليه السلام.

يقرر أكثر الباحثين أنه لم توجد كلمة للمسيح يفسر فيها الخلاص.

يقول ولز: (يعسر عليك أن تجد كلمة تنسب فعلاً إلى يسوع فسرّ فيها مبادئ الكفارة والفداء أو حضّ فيها أتباعه على تقديم القرابين أو تناول سر مقدس).

كذلك لا يبرز هو دعواه أنه "المسيح" ولا يضافى على اشتراكه مع الله فى الربوبية أى ثوب بارز، ربما أحسنا أنه لم يكن ليفوته أن يضيفه لو أنه كان يراه أمراً فى

الدرجة الأولى من الأهمية، ومن أشد ما يحير اللب قوله "حينئذ أوصى تلاميذه أن لا يقولوا لأحد إنه يسوع المسيح"^(١) فمن العسير أن يفهم الإنسان السر في هذا المنع إذا فرضنا أنه كان يعد هذه الحقيقة من ضروريات الخلاص^(٢).

وفي تعليق لصاحب كتاب (الفارق بين المخلوق والخالق) على ما جاء في إنجيل متى (حينئذ أوصى تلاميذه أن لا يقولوا لأحد إنه يسوع المسيح) يقول: وهنا "دقيقة" تاهت فيها أفكار الأولين وتحيرت عندها آراء الآخرين وهي معرفة السبب الذي ألجأ المسيح لكتمان حاله على الناس عمومًا مع أن خلاص الناس متوقف على الإيمان بمعرفة أنه رسول الله ليتبعوا قوله وفعله، وأى شيء أراد بهذا وإنجيل يوحنا يصرح أن الله تعالى أرسل يوحنا المعمدان ليصرخ في البرية بظهوره^(٣)، فهل نسي الإله ذلك أم بدا له غير ما هنالك، وقد نسي المترجم^(٤) أنه ذكر عن عيسى عليه السلام قوله (لا تخافوهم لأن ليس مكتوم لن يُستعلن ولا خفي لن يعرف. الذي أقوله لكم في الظلمة قولوه في النور والذي تسمعون في الأذن نادوا به على السطوح^{(٥)، (٦)}).

ويقول (لو صحت في عيسى عليه السلام دعواكم الباطلة من كونه إلها تجسد في بطن العذراء من أجل خطيئة آدم لكان ذلك أول أوامره ومفتاح تعليمه لأنها أساس العقيدة الدينية بزعمكم وهذه الأناجيل على أنها محرفة - لم يكن فيها شيء من دعواكم الباطلة^(٧)).

ويقول ولز: "لو اطلعنا على الأناجيل الأربعة لوجدنا فيها شخصية عيسى وتعاليمه ولم نعثر إلا على النزر اليسير من مذاهب الكنيسة المسيحية"^(٨).

(١) متى ١٦ : ٢٠.

(٢) معالم تاريخ الإنسانية المجلد الثالث ص ٦٩٢ - ٦٩٣.

(٣) يشير بذلك إلى ما جاء في إنجيل يوحنا ١ : ٢٣.

(٤) يقصد مترجم إنجيل متى لأنه يعتقد أن المترجم هو الذي كتب إنجيل متى وليس متى الخواري.

(٥) متى ١٠ : ٢٦ - ٢٧،

(٦) عبد الرحمن باجة جي زادة: الفارق بين المخلوق والخالق ص ١٢١.

(٧) المرجع السابق ص ٦٩ بتصرف شديد.

(٨) ولز: موجز تاريخ العالم ص ١٧٨.

ويشير "أدولف هرنك" - أستاذ تاريخ الكنيسة بجامعة برلين - إلى حقيقة خلو بعض الرسائل المسيحية الهامة من أى ذكر للصلب ونظرية الفداء والكفارة فيقول:

"لا يوجد فى أى مكان من تعاليم الاثنى عشر أى ذكر للخلاص الذى يقدمه المسيح وحتى إعلان الإنجيل (المتعلق بموته وقيامه) لم يلاحظ شىء عنه.

إن كتابات "هرمس"^(١) المطولة تبين أن ذلك لم يكن حادثاً وقع ولا يوجد فيها أى ذكر على الإطلاق لميلاد يسوع وموته وقيامته.. إلخ رغم أن المؤلف كانت عنده المناسبة التى يذكرها فيها ذلك إنه يصف عمل يسوع بأنه:

١ - حفظ الشعب الذى اختاره.

٢ - تنقية الشعب من الخطية.

٣ - تعريفهم طريق الحياة ونشر الناموس الإلهي^(٢).

يقول د/ رؤوف شلبى "وإذا درسنا ما قام به هؤلاء الحواريون من أعمال فإننا لا نجد أنهم فكروا فى إنشاء كنيسة فقد ظلوا على إخلاصهم للدين اليهودي"^(٣) ومعروف أن قوام الكنيسة هو التركيز على ألوهية المسيح وصلبه وقيامته الذى هو أساس عقيدة الخلاص.

إن عقيدة الخلاص هى أساس المسيحية ورسول المسيحية هو المسيح عيسى - عليه السلام - فإذا لم يبين عيسى ولا الحواريون أساس الديانة فلا بد أنها جاءت من مصدر آخر له نفس منزلة عيسى بن مريم سواء أكانت هذه المنزلة أصيلة أم مفتعلة وإن كانت فيما نحن بصدد مفتعلة^(٤).

إن الباحثين المسيحيين وغير المسيحيين يتفقون على أن لبولس منزلة كبرى فى المسيحية. تأسست المسيحية على يده بنوع خاص مخالف لتأسيس المسيح لها.

(١) إن كتاب هرمس هذا كما يقول أحد علمائهم (كان إيرينوس يقتبس منه باعتباره واحداً من الكتب المقدسة واعتقد أوريجين أنه من أكثر الكتب فائدة وأنه كتب بوحى إلهي. ويقرر إيزيوس أنه على الرغم من عدم قانونيته فقد كان يقرأ علانية فى الكنائس وهو الأمر الذى عززه جيروم وكذلك نجد اثناسيوس ينقل عنه ويعتبره أهم عمل ذا فائدة. نقلا عن المسيح فى مصادر العقائد المسيحية ص ٢٧٥.

(٢) أحمد عبد الوهاب : المسيح فى مصادر العقائد المسيحية ص ٢٧٥.

(٣) د/ رؤوف شلبى : المسيحية الرابعة ص ١١٦.

(٤) (مفتعلة) لأن تقرير عقيدة لا بد وأن يكون لرسول بوحى من الله.

يقول بنيامين بنكرتن: "ولو جاز إنتساب الكنيسة لأحد من الرسل لانتسبت - لبولس لأنها تأسست على يده بنوع خاص"^(١) ويقول ولز: "إن كثيراً من الثقات العصريين يعتبرون بولس المؤسس الحقيقي للمسيحية"^(٢) ويقول "مايكل هارت": المسيحية لم يؤسسها شخص واحد وإنما أقامها اثنان: المسيح عليه السلام، والقديس بولس ولذلك يجب أن يتقاسما شرف إنشائها هذان الرجلان.

فالمسيح قد أرسى المبادئ الأخلاقية للمسيحية وكذلك نظرتها الروحية وكل ما يتعلق بالسلوك الإنساني، أما مبادئ اللاهوت فهي من صنع بولس، فالمسيح هو صاحب الرسالة الروحية ولكن بولس أضاف إليها عبادة المسيح كما أنه هو الذى ألف جانباً كبيراً من "العهد الجديد" وكان المبشر الأول للمسيحية فى القرن الأول للميلاد. إن عددا من الباحثين يرون أن مؤسس هذه الديانة هو بولس وليس السيد المسيح وليس واضحاً ما كان سيئول إليه أمر المسيحية لولا بولس^(٣).

ويقول: "وبولس هذا هو المسئول عن تحويل الديانة المسيحية من مجرد طائفة يهودية إلى ديانة كبرى... وهو المسئول الأول عن تأليه المسيح... بل إن بعض فلاسفة المسيحية يرون أنه هو الذى أقام المسيحية وليس المسيح"^(٤). ويقول السير آرثر فندلاى: "إن بولس هو الذى وضع أساس الدين الذى يسمى بالدين المسيحي"^(٥).

ويقول د/ أحمد شلبى فيما ينقله عن (بيرى) من كتاب (أديان العالم): كان عيسى يهوديا وقد ظل كذلك أبدا ولكن شاول كون المسيحية على حساب عيسى، فشاؤل - الذى سمي فيما بعد بولس - هو فى الحقيقة مؤسس المسيحية^(٦).

ويقول شارل جنيبير: ولكن بدون بولس كان من المحتمل أن لا توجد المسيحية^(٧) فبولس فى نظر الباحثين الثقات يعتبر المؤسس الحقيقى للمسيحية الحالية وإذا كان

(١) بنيامين بنكرتن: تفسير إنجيل متى ص ١٦٠.

(٢) معالم تاريخ الإنسانية المجلد الثالث ص ٧٠٥.

(٣) مايكل هارت: الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله (ص): ترجمة أنيس منصور ص ٢٣ ، ٢٤.

(٤) المصدر السابق ص ٣٦.

(٥) آرثر فندلاى: الكون المنشود ترجمة د/ على على راضى ص ١١٧.

(٦) د/ أحمد شلبى: المسيحية ص ٨٤.

(٧) شارل جنيبير: المسيحية نشأتها وتطورها ص ١١١.

الأمر كذلك فإننا ولا شك نجد عنده العقيدة الأساسية للمسيحية الحالية وهي عقيدة الخلاص.

يقول د/ القس فهميم عزيز (إن مركز فكر بولس يتلخص فى تحقق العصر الجديد عصر الفداء الذى فيه يتمم المسيح عمله ، بل إن العنصر الأساسى والرئيسى فى كرازة^(١) العهد الجديد هو إتمام النبوات الخاصة بالخلاص التاريخى الذى بدأ بمجئ المخلص)^(٢).

ويعلن الأسقف المسيحى (بولس إلياس الخورى) فى جراءة أن بولس هو مبتدع عقيدة الخلاص وقد حمل هو وتلميذه الحبيب (لوقا) لواء الدعاية لها فقال: "وما لا ريب فيه أن الفكرة الأساسية التى ملكت على بولس مشاعره فعبّر عنها فى رسائله بأساليب مختلفة هى فكرة رفق الله بالبشر ، وهذا الرفق بهم هو ما حمّله على إقالتهم من عثارهم ، فأرسل إليهم ابنه الوحيد ليفتديهم على الصليب وينتقل بهم من عهد الناموس الموسوى إلى عهد النعمة وهذه الفكرة عينها هى التى هيمنت على إنجيل لوقا"^(٣).

ويقول (بيرى): "إن بولس بدأ يذيع أن عيسى منقذ ومخلص وسيد استطاع الجنس البشرى بواسطته أن ينال النجاة"^(٤).

ويقول (ولز): "علم بولس الناس أن عيسى لم يكن المسيح الموعود فحسب ولا زعيم اليهود الموعود فقط بل إن موته كان تضحية - مثل ممات الضحايا القديمة المقربة إلى الآلهة أيام الحضارات البدائية - من أجل خلاص البشر"^(٥).

ويقول مايكل هارت: "نجح بولس فى تبشيره بالمسيحية بين غير اليهود حتى وصفوه بأنه داعية الأميين أى غير اليهود ولم يستطع أحد أن يقوم بمثل هذا الدور

(١) الكرازة: تقديم الإنجيل إلى الناس وإعلان ما فعله الله فى المسيح لكى يصلح العالم نفسه (المدخل إلى العهد الجديد ص ٨٧).

(٢) د/ القس فهميم عزيز: الفكر اللاهوتى فى رسائل بولس ص ٥٣.

(٣) نقلاً عن النصرانية والإسلام: محمد عزت الطهطاوى ص ٤٨.

(٤) د/ أحمد شلبى: المسيحية ص ٨٤.

(٥) ولز: موجز تاريخ العالم ص ١٧٨.

من قبله أو من بعده... ومن أهم أفكاره: أن يسوع المسيح لم يكن فقط نبيا بشراً بل كان إلهاً حقاً وأنه مات من أجل التكفير عن خطايا البشر^(١).

ويقول: هنتر - عميد كلية المسيح بجامعة أبردين بإنجلترا - عن مفهوم بولس للمسيحية "إن شخص المسيح يقف في قلب مفهوم بولس للمسيحية كعقيدة خلاص"^(٢).

ويقول فرويد: ويبدو أن جوهر الخلاص هو ما أضافه بولس إلى المسيحية فقد كان إنساناً له موهبة الدين بأصدق معنى الجملة^(٣) ويقول: "وصارت الخطيئة الأصلية والخلاص بالموت الكفاري أساس الديانة الجديدة التي أرسى بولس قواعدها"^(٤).

ويقول برتراندرسل "تشتمل رسائل بولس على كثير من اللاهوت خصوصاً فيما يتعلق بالخلاص"^(٥) فبولس الذي له منزلة كبرى في المسيحية وبين المسيحيين هو الذي ظهرت عقيدة الخلاص على يده في المسيحية، وكانت أفكاره الرئيسية تقوم على خدمة هذه العقيدة - عقيدة الخلاص - من حيث الخطيئة وإرثها ومن حيث تأليه المسيح وصلبه وقيامته فداء للبشر من الخطيئة^(٦).

يقول أرنست دي بونس الألمانى فى كتابه عن "الإسلام": إن روايات الصلب والفداء من مخترعات بولس ومن شابهه^(٧).

ومن الثابت أن بولس لم يكن تلميذاً من تلاميذ المسيح - فى حياة المسيح - ولا من رسله ولم ير المسيح ولو مرة واحدة.

(١) مايكل هارت: الخالدون مائة أعظمهم محمد (ص) ص ٣٦.

(٢) حقيقة التبشير بين الماضى والحاضر: ص ٤٣.

(٣) فرويد: موسى والتوحيد، ترجمة د/ عبد المنعم الحفنى ص ١٧٩.

(٤) نفس المصدر ص ٢٦١.

(٥) تاريخ الفلسفة الغربية (الكتاب الثانى) ص ٣٩.

(٦) راجع فى هذا: د/ رؤوف شلبى: المسيحية الرابعة ص ٨١ - ٨٨، يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء ص ٩٧ - ١٠١، د/ محمود مزروعة دراسات فى النصرانية ص ٩٩، أحمد عبد الوهاب: المسيح فى مصادر العقائد المسيحية ص ٢٧٥.

(٧) الفارق بين المخلوق والخالق ص ١٥ - ٢٨٨.

يقول ولز: "وكان بولس من أعظم من أنشأوا المذهب المسيحي وهو لم ير المسيح قط ولا سمعه يبشر الناس"^(١):

"والثابت لدى الباحثين بوجه عام أن بولس لم ير المسيح ولم يعرفه وإن كان يدعى أنه عرف المسيح من قبل"^(٢) فهذا قول منه يخالف ما أجمع عليه الباحثون من عدم معرفته له^(٣). يقول شارل جنيير (ويجب أن نشير هنا إلى أن بولس لم يلتق بالمسيح مدة حياته لذلك لم تكن تأملاته عن شخص الأستاذ وتعاليمه لتحدها آفاق الذكريات والواقع كما كان الحال بالنسبة للثنى عشر من الحواريين الذين بدأوا الدعوة)^(٤):

فبولس ليس من تلاميذ المسيح ولكنه اشتهر في زمانه بتعصبه ليهوديته واضطهاده للمسيحيين، وكان في صدر حياته من أشد أعداء المسيحية. وسفر الأعمال يذكر ذلك الاضطهاد في مواضع كثيرة منها قوله "وحدث في ذلك اليوم اضطهاد عظيم على الكنيسة التي في أورشليم فتشتت الجميع في كور اليهودية والسامرة ما عدا الرسل. وحمل رجال أتقياء إستفانوس وعملوا عليه مناحة عظيمة. وأما شاول فكان يسطو على الكنيسة وهو يدخل البيوت ويمر رجالاً ونساء ويسلمهم إلى السجن"^(٥).

وفي تفسير (باركلي) لأعمال الرسل يقول عن هذه الفقرة:

"وأما شاول فكان يسطو على الكنيسة، وكلمة "السطو" في اللغة الأصلية تفيد عملاً وحشياً كما ينقض وحش على فريسته"^(٦).

(١) ولز: موجز تاريخ العالم ص ١٧٨.

(٢) وذلك إشارة إلى قول بولس (وإن كنا قد عرفنا المسيح حسب الجسد لكن الآن لا نعرفه بعد) ٢ كورنثوس ٥ : ١

(٣) د/ محمد أبو الغيط الفرت: بولس المسيحية ص ٣٦.

(٤) المسيحية نشأتها وتطورها ص ٦٩ - ٧٠.

(٥) أعمال الرسل ٨ : ١ - ٣.

(٦) باركلي: تفسير العهد الجديد (أعمال الرسل) ص ١٠٦.

ومنها: أما شاول فكان لم يزل ينفث تهديداً وقتلاً على تلاميذ الرب فتقدم إلى رئيس الكهنة وطلب منه رسائل إلى دمشق إلى الجماعات حتى إذا وجد أناساً من الطريق رجالاً أو نساء يسوقهم موثقين إلى أورشليم^(١).

عرف بولس أن بعض المسيحيين هربوا إلى دمشق فطلب رسائل للتعريف بمهمته ليذهب إلى دمشق لتسليم هؤلاء الفارين^(٢).

ويعترف بولس بهذا الاضطهاد للمسيحيين كما في سفر أعمال الرسل - فيقول (أنا رجل يهودي ولدت في طرطوس كيليكية ولكن ربيت في هذه المدينة عند رجلى غملائيلى على تحقيق الناموس الأبوى، وكنت غيوراً لله كما أنتم جميعكم اليوم. واضطهدت هذا الطريق حتى الموت مقيداً ومسلماً إلى السجون رجالاً ونساء كما يشهد لى أيضاً رئيس الكهنة وجميع المشيخة الذين إذ أخذت أيضاً منهم رسائل للإخوة إلى دمشق ذهبت لآتى بالذين هناك إلى أورشليم مقيدين لكى يعاقبوا)^(٣) وهو إنما يذكر ذلك ليرز لقارئيه تحوله المفاجئ من العداوة الشديدة لهم إلى الدعوة الخاصة بالمسيح^(٤) ولكن سفر الأعمال يقول إن ذلك الرجل الذى كاد للمسيحية هذا الكيد وآذى أهلها ذلك الإيذاء قد انتقل من الجبب والطاغوت إلى المسيحية فجأة من غير مقدمات تقدمت ذلك الانتقال ولا تمهيدات مهدت له^(٥) "وفى ذهابه حدث أنه اقترب إلى دمشق فبغته أبرق حوله نور من السماء فسقط على الأرض وسمع صوتاً قائلاً له شاول، شاول: لماذا تضطهدنى؟ فقال: من أنت يا سيد، فقال الرب أنا يسوع الذى تضطهده، صعب عليك أن ترفس مناخس. فقال وهو مرتعد ومتحير يارب ماذا تريد أن أفعل؟ فقال له الرب قم وادخل إلى المدينة فيقال لك ماذا

(١) أعمال الرسل ٩: ١، ٢.

(٢) تفسير العهد الجديد (أعمال الرسل) ص ١١٦.

(٣) أعمال الرسل ٢٢: ٣ - ٥.

(٤) د/ محمد الفرت: بولس والمسيحية ص ٣٧.

(٥) الإمام محمد أبو زهرة: محاضرات فى النصرانية ص ٨٥.

ينبغي أن تفعل ، وأما الرجال المسافرون معه فوقفوا صامتين يسمعون الصوت ولا ينظرون أحداً. فنهض شاول عن الأرض وكان هو مفتوح العينين لا يبصر أحداً فاقطدوه بيده وأدخلوه إلى دمشق وبقي ثلاثة أيام لا يبصر فلم يأكل ولم يشرب" (١).

وهنا وقفه لابد منها ذلك أن سفر أعمال الرسل عاد ليحدثنا مرة أخرى عن تلك الرؤيا - التي اقتحم بها بولس ليجعل نفسه مبشر المسيحية الأكبر فيما بعد - فيعرض لنا ما يخالف روايته السابقة فهو يقول هذه المرة على لسان بولس "أبرق حولى من السماء نور عظيم فسقطت على الأرض وسمعت صوتاً: قال إنى أنا يسوع الناصرى... والذين كانوا معه نظروا النور... لكنهم لم يسمعوا صوت الذى كلمنى" (٢).

فعلى حسب الرواية الأولى نجد أن المسافرين مع بولس: سمعوا الصوت لكنهم لم ينظروا النور. أما حسب الرواية الثانية: فإنهم نظروا النور ولكنهم لم يسمعوا الصوت (٣).

فأيهما أصح الرواية الأولى أم الثانية؟ ثم نتقل بعد ذلك إلى الواقعة ذاتها يقول ول ديورانت وهو يصف الحالة التي كان عليها بولس: "وليس فى وسع أحد أن يعرف العوامل التى أحدثت هذه التجربة وما أعقبها من انقلاب أساسى فى طبيعة الرجل ، ولعل ما قاساه من التعب فى سفره الشاق" (٤) الطويل فى شمس الصحراء اللافتة ، أو لعل ومضة برق فى السماء ناشئة من شدة الحرارة ، لعل شيئاً من هذا أو ذاك كله قد أثر فى جسم ضعيف ربما كان مصاباً بالصرع وفى عقل يعذبه الشك والإجرام فدفع بالعملية التى كانت تجرى فى عقله الباطن إلى غايتها ، وأصبح ذلك

(١) أعمال الرسل ٩ : ٣ - ٩.

(٢) أعمال الرسل ٢٢ : ٦ - ٩.

(٣) أحمد عبد الوهاب : الوحي والملائكة ص ٥٢.

(٤) يقول باركللى : الطريق من أورشليم إلى دمشق حوالى ١٤٠ ميلاً ، والرحلة تأخذ أسبوعاً تقريباً (تفسير العهد الجديد : أعمال الرسل ص ١١٦).

المفكر الشديد الإنفعال أقدر الداعين إلى مسيح استفانوس^(١) وكان الجو اليونانى الذى يحيط به بولس فى طرسوس يتحدث عن منقذ ينتشل البشرية كما كانت علوم بنى جنسه من اليهود تتحدث عن حياة (مسيح) منتظر، ولم لا يكون يسوع صاحب الشخصية العجيبة الغامضة الفتانة الذى لا يتردد الناس فى استقبال الموت من أجله هو ذلك المسيح المنتظر؟ فلما أحس فى آخر سفره وهو لا يزال ضعيفاً وأعمى بيدى يهودى مهتد رحيمتين تلمسان وجهه وتسكنان ألمه "فللوقت وقع من عينيه شئ كأنه قشور فأبصر فى الحال وقام واعتمد وتناول طعاماً فتقوى" وبعد بضعة أيام من ذلك الوقت دخل مجامع دمشق وقال للمجتمعين فيها إن عيسى ابن الله^(٢).

(١) استفانوس: اسم معناه "تاج" أو "كليل من الزهور" وهو اسم أول شهداء المسيحية وبما أن اسمه يونانى فيرجح أنه كان هيلينياً (أى أنه لم يكن يونانى الجنس بل يونانى اللغة والثقافة) أو أنه كان يهودياً يتكلم اليونانية، ولما اشتكى الهيلينيون المسيحيون فى أورشليم من أن أرامهم كن يهملن (أعمال ٦ : ١) انتخب سبعة رجال من ضمنهم استفانوس ليقوموا بأمر الخدمة اليومية وتوزيع التقدمة على الفقراء المسيحيين (أعمال ٦ : ٢ - ٦) وهؤلاء الرجال السبعة يعرفون بأول شمامسة فى الكنيسة المسيحية ويصف الكتاب المقدس استفانوس بأنه رجل مملئ من الإيمان والروح القدس (أعمال ٦ : ٥) وأنه كان يصنع قوات وعجائب (أعمال ٦ : ٨) وكان ينادى بالرسالة بحكمة (أعمال ٦ : ١٠) ولما لم يتمكن بعض من هؤلاء اليهود الهيلينيين أن يجابوا استفانوس ويقاوموا قوة الحكمة والروح التى كانت فيه اخترعوا ضده شكايات زور فلدسوا رجالاً مأجورين يقولون: إنا سمعنا يجدف على الله وعلى موسى وأنه تكلم ضد الشريعة وضد الهيكل وقدمت هذه الشكاوى إلى مجمع السنهدريم (أعمال ٦ : ٩ - ١٤) وقد سجل لنا سفر أعمال الرسل ملخصاً للدفاع الذى قدمه استفانوس (أعمال ٧ : ١ - ٥٣) وقد رفض المجلس أن يستمع لإستفانوس بعد هذا، أما هو فقال إنه يرى السموات مفتوحة وابن الإنسان قائماً عن يمين الله (أعمال ٧ : ٥٤ : ٥٦) عندئذ أخرجه خارج المدينة ربما من الباب الذى يدعى اليوم باب إستفانوس ورجموه وكانوا وهم يرمونه يقول (أيها الرب يسوع اقبل روحى) ثم طلب من الرب غفران خطيئتهم بسبب رجمه، وشاول الذى أصبح فيما بعد بولس كان راضياً برجم إستفانوس (أعمال ٨ : ١) وكان يحرس ثياب الذين رجموه (أعمال ٧ : ٥٨) ولقد كانت شهادة إستفانوس من أكبر العوامل لإعداد شاول لكى يقبل المسيح (أعمال ٢٢ : ٢٠). هـ قاموس الكتاب المقدس ص ٦٢ - ٦٣. وتعليق بسيط على هذه الحادثة أنهم رجموه وذلك من أجل الأفكار التى كان ينادى بها، وكان أهمها المناذاة بأن يسوع هو ابن الإنسان قائماً عن يمين الرب وقالوا عنه إنه كان يجدف على الله وعلى الشريعة وهذا دليل على أن مسيحي تلك الفترة كانوا لازالوا على إيمانهم بدين عيسى الحقيقى لذلك حين خرج إنسان بأفكار جديدة رجموه.

(٢) ول ديوارنت: قصة الحضارة الجزء الثالث من المجلد الثالث ص ٢٥٣.

فبولس بعد أن كان من ألد أعداء المسيحية، ولاقى المسيحيون على يديه ألواناً عدة من التعذيب والتنكيل، نجده ينقلب فجأة وبدون مقدمات إلى إعلان أن المسيح "ابن الله".

وبعد أن حدث لبولس ما حدث رجع إلى أورشليم وذلك بعد مدة تزيد على الثلاث سنوات وحاول أن يتصل بتلاميذ المسيح لكنهم أوجسوا منه خيفة ولم يصدقوا إيمانه ولكن برنابا شهد له، يقول سفر الأعمال: (ولما جاء شاول إلى أورشليم حاول أن يلتصق بالتلاميذ وكان الجميع يخافونه غير مصدقين أنه تلميذ فأخذه برنابا وأحضره إلى الرسل وحدثهم كيف أبصر الرب فى الطريق وأنه كلمه وكيف جاهر فى دمشق باسم يسوع، فكان معهم يدخل ويخرج فى أورشليم)^(١).

وفى تفسير هذه الفقرة يقول "باركلى": ففى حين وقف الجميع من حوله ينظرون إليه شذراً فى شك ويظنون به الظنون أخذه برنابا بيده ووقف مسنداً له، فبينما نظر الباقون إلى بولس على اعتبار أنه جاسوس أو عميل مدسوس عليهم وثق به برنابا كمؤمن حقيقى أمين^(٢) فلولا برنابا لما استطاع بولس حتى الاتصال بهذا المجتمع^(٣). ومن ذلك الوقت صار بولس القوة الفعالة والحركة الدائبة فى الدعاية للمسيحية كما تدل على ذلك عبارات سفر الأعمال. وهنا نجد حلقة مفقودة فلم يبين لنا سفر الأعمال على من تلقى مبادئ المسيحية الذى أخذ يبشر بها والتى دونها فى رسائله؟ ولعلهم يعتقدون أنه ليس فى حاجة إلى التلقى لأنه انتقل من مرتبة الكافر المناوئ إلى مرتبة الرسل فى المسيحية وصار ملهما ينطق بالوحى فى اعتقادهم فلم يكن فى حاجة إلى التعليم والدراسة^(٤).

هذا هو بولس الذى يعتبر من المؤسسين الحقيقيين للمسيحية الحالية، كان كافرًا بالمسيح وأذاق أتباعه ألواناً من العذاب انقلب إلى المسيحية وصار أكبر دعايتها بل

(١) أعمال الرسل ٩ : ٢٦ - ٢٨.

(٢) تفسير العهد الجديد (سفر أعمال الرسل) ص ١٢٤.

(٣) شارل جنيبير: المسيحية نشأتها وتطورها ص ١٠٢.

(٤) الإمام محمد أبو زهرة: محاضرات فى النصرانية ص ٨٦.

ورأس الدعاة. وعلامة استفهام توضع: كيف يكون لبولس هذا القدر الرفيع والنصيب الكبير في المسيحية وهو لم ير المسيح وليس تلميذاً من تلاميذه؟

وكذلك ما رأى بولس أحداً من تلاميذ المسيح المختارين سوى بطرس ويعقوب وذلك بعد مدة تزيد على الثلاث سنوات كان قد بدأ فيها الدعوة إلى عقيدته الجديدة بتعليمه الخاص غير منتظر مواعظ أو تعاليم من تلاميذ المسيح ورسله^(١) وفي هذا يقول بولس عن نفسه:

"ولكن لما سر الله الذي أفرزني في بطن أمي ودعاني بنعمته أن يعلن ابنه فيّ لأبشر به بين الأمم للوقت لم استشر لحماً ودماً ولا صعدت إلى أورشليم إلى الرسل الذين قبلي بل انطلقت إلى العربية ثم رجعت أيضاً إلى دمشق ثم بعد ثلاث سنين صعدت إلى أورشليم لأتعرّف ببطرس فمكثت عنده خمسة عشر يوماً ولكن لم أر غيره من الرسل إلا يعقوب أخا الرب"^(٢) ولقد استمر بولس في الدعوة بطريقته الخاصة ما يزيد على أربعة عشر عاماً حتى حدث ما اضطره أن يعود مرة ثانية إلى أورشليم ليعرض على كبار التلاميذ التعاليم التي بشر بها.

يقول بولس (ثم بعد أربع عشرة سنة صعدت أيضاً إلى أورشليم مع برنابا آخذاً معي تيطس أيضاً وإنما صعدت بموجب إعلان وعرضت عليهم الإنجيل الذي أكرز به بين الأمم ولكن بالانفراد على المعتبرين لئلا أكون أسعى وقد سعيت باطلاً)^(٣).

إننا نريد أن نسأل النصارى عن الإعلان الذى بموجبه صعد بولس إلى أورشليم ليعرض عليهم الإنجيل الذى يعظ به ويبشر به بين أمم العالم؟ ولماذا عرض بولس إنجيله الذى كتبه بنفسه على الرؤساء المعتبرين؟ ولماذا يريد أن يحظى بتأييدهم ومساعدتهم إياه، كما قال؟ مما لا مرأى فيه: أن اجتماعه سرّاً وعلى انفراد بالمعتبرين - ليعرض عليهم مبادئه الجديدة التى بشر بها فى رحلته التبشيرية الأولى^(٤) ونتائجها

(١) أحمد عبد الوهاب: الوحي والملائكة ص ٥٣.

(٢) غلاطية ١ : ١٥ - ٢٢.

(٣) غلاطية ٢ : ١ - ٣.

(٤) إن عودة بولس هذه المرة إلى أورشليم كانت بعد رحلته التبشيرية الأولى حيث إن هذه العودة كما قلنا كانت بعد أربع عشر سنة والتي تجول فيها فى إنطاكية وقبرص (أعمال ١٤ : ٥٤) ومدن آسيا الصغرى ترواس، مقدونية، فيلبى، تسالونيكى، أثينا، كورنثوس. أعمال إصحاح (١٦، ١٧، ١٨) ثم انتقل بولس إلى أورشليم سنة ٥٣ لمسلم على الإخوة هناك (أعمال ١٨ : ١ - ٢١).

من دخول عدد كبير فى المسيحية قبل أن يذيعها بين الأمم الأخرى - دليل على أن المبادئ الجديدة تختلف تماماً عن المبادئ التى جاء من أجلها المسيح ، وإلا لماذا صعد؟ ولماذا انفرد؟ ولماذا على انفراد؟

ويصرح بولس بأن الإنجيل الجديد الذى يبشر به ليس هو الإنجيل الذى تركه المسيح - عليه السلام - بل هو إنجيل تلقاه بإلهام من المسيح أى أنه لا يبشر بما ترك المسيح بل يدعى أنه يبشر بإلهام المسيح له بالتعاليم الجديدة^(١).

يقول بولس "وأعرفكم أيها الأخوة الإنجيل الذى بشرت به إنه ليس بحسب إنسان لأننى لم أقبله من عند إنسان ولا علمته بل بإعلان يسوع المسيح"^(٢).

وهؤلاء المعتبرون الذين اجتمع بهم بولس على انفراد لم يحظ بتأييدهم كلهم^(٣) ولا غرابة أن نرى الحوارين الاثنى عشر وهم الذين أشربوا بتعاليم عيسى وظلوا على يهوديتهم العميقة يستكفون كثيراً من مثل هذه النتائج التى توصل إليها بولس ويبدون أمامها تردداً قوياً إلا أنه فرضها عليهم فرضاً إذ استطاع إيجاد البراهين المقنعة بشأنها معتمداً على تحليل أوجه النجاح الذى لمسها خلال رحلته التبشيرية الأولى فى ربوع آسيا الصغرى ، ثم إن مجتمع القدس كان يظن أن روحاً إلهية تدير الحوارى الثالث عشر فيما يقوم به من أعمال ، وكان هذا المجتمع فقيراً وكانت كنائس بولس تضم أحياناً بين أتباعها ثروة القوم وكرامتهم.. وكان بولس خبيراً بأساليب حثهم على مساعدة الكنيسة الأم^(٤).

وهنا نرى أن جل اعتماد بولس على إقناع الحوارين هو نجاحه فى دعوته بين الأمم التى بشر فيها ، وكان نجاحه بالتبشير وسط هذه الأمم يرجع إلى أن الأفكار والعقائد التى كان يبشر بها كانت هى السائدة فى هذه المجتمعات.

ويكفى أن نقول هنا: إن بولس الذى ظهرت على يديه عقيدة الخلاص لم يلتق بالمسيح مدة حياته ولم يتلمذ عليه ، بل لم ير من تلاميذ المسيح سوى بطرس

(١) من تعقيب د/ أحمد السقا على كتاب الإمام الجوينى : شفاء الغليل فى بيان ما وقع فى التوراة والإنجيل من التحريف والتبديل ص ٦٨ - ٦٩.

(٢) غلاطية ١ : ١١ - ١٢.

(٣) المصدر السابق ص ٦٩.

(٤) شارل جنيبير: المسيحية نشأتها وتطورها ص ١٠٤.

ويعقوب، ولقد عمل بولس على أن يضع تلاميذ المسيح أمام الأمر الواقع، خرج يبشر بتعاليمه، ثم رجع بعد أربع عشرة سنة ليعرض عليهم نجاحه بتعاليمه لا نجاحه بالدعوة إلى دعوة عيسى، وكان انتشار دعوة بولس بين الأمم التي بشر فيها بالمسيح سبيلاً إلى الغلبة على تلاميذ المسيح المعترين.

انتشار عقيدة بولس في الخلاص

إن عقيدة الخلاص التي قال بها بولس كان لها نصيب من الانتشار الواسع حتى أصبحت أساس المسيحية؛ وذلك يرجع إلى الأسلوب الذي استخدمه بولس في نشر المسيحية والطريقة التي سار عليها، إذ أنه رأى أن يخرج بالمسيحية من دائرتها الضيقة في بيت المقدس إلى الميدان الواسع في البيئات غير اليهودية من ناحية، وبين اليهود الذين يعيشون خارج دائرة أورشليم من ناحية أخرى، إذ أنهم وجدوا فيها - بعد الإصلاحات التي أدخلها بولس في نظره - ديانة تفي بحاجاتهم من حيث الانتساب إلى دين يستوعب كل مزايا ديانات العصر جميعاً^(١).

التبشير بالمسيحية بين غير اليهود^(٢):

يقول شارل جنيير: "كان أصحاب عيسى يهوداً سذجاً بسطاء، ليس لهم شأن في قومهم، ولا يمتازون بثقافة كبيرة، فأفاقهم الفكرية لم تكن بأوسع أو أبعد حدوداً من أفق عيسى، واقتصر طموحهم على الرغبة في دفع "الخراف الضالة من بيت إسرائيل" نحو طريق النجاة، وجميع الدلائل تحملنا على الاعتقاد بأنهم كانوا شديدي التعصب لبنى جلدتهم من اليهود - على الأقل في بدء الدعوة - وفاقوا في ذلك عيسى نفسه، وكانت فكرة تبشير الوثنيين بعيدة كل البعد عن عقولهم، بل الواقع أنه كان من ضروب المستحيل أن يتصوروا إمكان انتشار الإنجيل بين رجال لم يؤمنوا بالعقيدة اليهودية قبل ذلك^(٣)."

(١) نورمان كانتو: التاريخ الوسيط ترجمة د/ قاسم عبده قاسم ص ٥٩.

(٢) وقولنا "غير اليهود" عامة تشمل غير اليهود أصلاً وغير اليهود المحافظين على يهوديتهم.

(٣) المسيحية نشأتها تطورها ص ٥٥ - ٥٦.

إن التبشير بالمسيحية بين غير اليهود كان بعيداً عن فكر تلاميذ عيسى ؛ لأنهم سمعوا من عيسى : إلى طريق أُمم لا تمضوا ، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا ، بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة^(١).

يقول برتراند رسل : كان الذين ييشرون بالمسيحية أول الأمر هم اليهود أنفسهم : ييشرون بها اليهود على أنها العقيدة اليهودية دخلها الإصلاح ، وقد أراد القديس جيمس (يعقوب) كما أراد القديس بطرس بدرجة أقل - أن يقف أمر المسيحية عند هذا الحد ، وقد كان من الجائز أن يسود رأيهما لولا بولس الذى صمم على قبول غير اليهود^(٢) ويقول : "ولا شك فى أن الجماعات المسيحية التى أنشأها بولس فى أماكن كثيرة قد كان قوامها المرتدين عن اليهودية من جهة ، وغير اليهود الذين كانوا ينشدون ديناً جديداً من جهة أخرى"^(٣).

والمرتدون عن اليهودية الذين مهدوا قبول المسيحية لغير اليهود هم : "الذين أقاموا زمناً طويلاً بمختلف البلاد اليونانية ، ثم عادوا إلى وطنهم ليعيشوا فيه ما بقى لهم من عمر ، وكانوا أيضاً وعلى الأخص من يهود المهجر الذين يتوافدون إلى القدس فى الأعياد الكبرى والمواسم ، وامتازوا جميعاً بروح أكثر مرونة وتقبلاً للتجديدات من إخوانهم الفلسطينيين ، فلا غرابة إذن فى أن يكون عدد معين منهم قد استمع إلى أحاديث أصحاب عيسى وآمن بدعوتهم ولكنهم عندما اعتنقوا الإيمان بعيسى المسيح لم يتخلوا من أجل ذلك عن روحهم المرنة المجددة"^(٤).

"لقد كان هناك نوعان من اليهود :

يهود أورشليم ، ويهود فلسطين. أما يهود أورشليم فهم أولئك الذين كانوا يتكلمون الآرامية المنحدرة من لغتهم الأصلية وكانوا يفتخرون بأنهم لم يختلطوا بأحد.

(١) متى ١٠ : ٦ .

(٢) تاريخ الفلسفة الغربية (الكتاب الثانى) ص ٣٦ .

(٣) نفس المصدر ونفس الصفحة .

(٤) المسيحية نشأتها وتطورها ص ٨٨ - ٨٩ .

أما اليهود الآخرون فكانوا من بلاد أخرى، جاءوا يوم الخمسين، ويقوا في أورشليم، واختبروا شخص المسيح، وعدد كبير منهم عاش خارج فلسطين أجيالاً طويلة، فنسوا لغتهم العبرية، وكانوا يتكلمون باليونانية، وكان طبعاً أن اليهود الأصليين يحتقرونهم لأنهم أجنبيون^(١).

فاليهود الذين لم يعودوا إلى بلادهم بعد السبي البابلي الذين ألفوا الحياة البابلية كان تمسكهم بيهوديتهم أقل تعصباً من هؤلاء الذين عادوا إلى فلسطين، ولذلك كان قبولهم للأفكار الجديدة على اليهودية أكثر من الجامدين على يهودية عيسى، وكان تحررهم عن اليهودية أصبح مألوفاً لديهم، بسبب الفترة التي عاشوها في بلاد اليونان والفرس. وبسبب مجاورتهم ومشاهداتهم لآلهتهم وعباداتهم. "فاليهود في بعض مناطق المهجر لم يكتفوا بالتطور الاجتماعي وفقاً للبيئة التي يعيشون فيها، ولم يكتفوا بإعادة تنظيم عقيدتهم الدينية أو - على الأقل - تفسيرها لأنفسهم بما يتفق وثقافتهم مع صيانة جوهرها كاملاً، لم يكتفوا بذلك، بل راحوا يخلطون باليهودية بعضاً من أفكار ومعتقدات المشركين الوثنيين المحيطين بهم، في نفس الوقت الذي كانت فيه طوائف من المشركين الوثنيين تعتنق الكثير من المعتقدات اليهودية الأساسية لتمزجها بأديانها المختلفة"^(٢) وكان قبول هؤلاء اليهود للمسيحية ودخولهم فيها بداية طريق آخر لهذه الديانة فقد انتشرت بانتشارهم في البلاد التي عاشوا فيها، وكان هذا تمهيداً لقبول غير اليهود من الأميين واليونانيين لها، لذلك بدأ بولس حياته التبشيرية في بلاد طرسوس وإنطاكية وبلاد اليونان ووجد تربة خصبة لإثراء المسيحية بالأعداد الكبيرة: يقول سفر أعمال الرسل عن بولس (فكان معهم يدخل ويخرج في أورشليم ويحاضر باسم الرب ويسوع وكان يخاطب ويباحث اليونانيين فحاولوا أن يقتلوه فلما علم الإخوة أحد روه إلى قيصرية وأرسلوه إلى طرسوس)^(٣):

(١) تفسير العهد الجديد (أعمال الرسل) ص ٨٦.

(٢) المسيحية نشأتها وتطورها ص ٦١.

(٣) أعمال الرسل ٩ : ٢٨ - ٣٠.

"قدم بولس تصوره عن المسيح بالصورة التى رسم صورتها الهيلينيون فى موطنه، وهى التى رسمت فى ذهنه، ولكن هذه الصورة رفضها اليهود فى اورشليم، وأثارت ضجة أدت إلى تعقبه لقتله مما اضطر معه إلى الهروب مرتحلاً إلى طرسوس وإنطاكية.

ولكن بولس لم تهن عزيمته فى دعوته لعيسى فى صورته الجديدة، فإذا كان مجتمع اليهود^(١) رفضه لفكرته الجديدة عن المسيح فإن هناك من يقبل هذه الدعوة، فبدأ حياة عنيفة كمبشر بهذه الدعوة فى آسيا الصغرى وبلاد اليونان^(٢).

ومن خلال رحلات بولس التبشيرية^(٣) فى إنطاكية وآسيا الصغرى دخل المسيحية عدد كبير من غير اليهود فأحدث بذلك "تردداً قويا من الشيوخ بالنسبة لقبول هؤلاء فى زمرة المؤمنين، ولكن بولس بما أوتى من قوة الحجة وصلابة العزم أقنعهم من خلال تجربته التبشيرية بأنه إذا لم تنتشر دعوة المسيح فى غير اليهود فإن الدعوة ستظل حبيسة بين فئة اليهود فقط سوف يقضى عليها فى هذا الانحصار الضيق فى وقت قصير"^(٤) هكذا أقنع بولس تلاميذ المسيح معتمداً على النجاح الملموس الذى حققه من خلال رحلاته التبشيرية من ناحية، ومن ناحية أخرى على ما كان يساعد به الكنيسة الأم من مال عن طريق هؤلاء الأغنياء والأثرياء الذين كانوا ينتمون إلى كنيسة بولس.

بعض الإصلاحات التى أدخلها بولس على المسيحية لتخدم عقيدته:

ولكى تكون الدعوة المسيحية مقبولة لدى غير اليهود أجرى بولس بعض الإصلاحات فى نظره - إن صح هذا التعبير - فى الديانة المسيحية لكى تناسب هذا المجتمع الجديد.

(١) أى يهود اورشليم المتعصبين ليهوديتهم.

(٢) بولس والمسيحية ص ٥١.

(٣) لقد ذكر سفر أعمال الرسل رحلات بولس التبشيرية بالتفصيل.

(٤) المصدر السابق ص ٥١ - ٥٢.

وكانت أفكار بولس - كما سبق أن بينا - تدور حول فكرة الخلاص وكانت هي العقيدة الأساسية التي كان يبشر بها خارج أورشليم. ولما كان الهدف قبول عدد كبير في المسيحية والسبيل إلى ذلك إرضاء هؤلاء تبعاً لأفكارهم فإن التساهل في العقائد الموروثة من موسى وعيسى أصبح واضحاً، وإن استدعى الأمر تغييرها فلا مانع مادام ذلك يرضى هؤلاء.

فلقد رأى بولس بوضوح: أن الأتباع الجدد من المشركين لم يكونوا ليتقبلوا كل القبول (فضيحة الصليب) وأنه يجب تفسير ميتة عيسى المشينة، تفسيراً مرضياً يجعل منها واقعة ذات مغزى ديني عميق.

لقد تجاهل فكرة "عيسى الناصري" التي أغرم بها الاثنا عشر ولم يتجه إلا إلى "عيسى المصلوب" فتصوره شخصية إلهية تسبق العالم نفسه في الوجود وتمثل نوعاً من التشخيص لروح إله تصوره "رجلاً... رجلاً سماوياً" احتفظ به إلى جانبه أمداً طويلاً حتى نزل إلى الأرض لينشئ فيها حقاً بشرية جديدة يكون هو "آدمها"^(١).

هكذا أصبح موت عيسى في تصور بولس واضح المفهوم:

إن بنى الإنسان لينؤمنون بثقل خطاياهم فلا يجدون سبيلاً إلى النور الإلهي، وقد أراد المسيح أن يهديهم السبيل فحمل عنهم آثامهم وكفر عنهم بعباده وموته، وهكذا أصبحت (الفضيحة الكبرى) المزعومة هي هي: السر الأعظم والهدف والعلة الأولى للمجيئ عيسى برسالته^(٢).

يقول ولز: "أمد بولس الناصريين بقوة جارفة، لأنه جاءهم بتفسيره هذا المقنع تماماً لكارثة الصلب وكان تفسيره ذاك نوراً ساطعاً وسط دياجير الحيرة المطلقة التي رانت على عقول الناس"^(٣).

(١) المسيحية نشأتها وتطورها ص ١٠٥.

(٢) المصدر السابق ص ١٠٨.

(٣) معالم تاريخ الإنسانية المجلد الثالث ص ٧٠٦.

ويقول القس / دوم كولومبا مرميون: "إذا أمعنا النظر فى التصميم الإلهى على ضوء رسائل بولس نرى أن الله يريد ألا نبحت عن الخلاص والقداسة إلا فى دم ابنه، لأنه لا فادى سواه، ولأن لموته فاعلية عجيبة"^(١).

وهكذا فسر بولس (الصلب) تفسيراً رضى به هؤلاء، ولكى تكتمل الحلقة كاملة جاء بولس إلى الشعائر والطقوس وفسرها تفسيراً تكميلياً لعملية الصلب". "وشعر بولس بضرورة الكشف عن المغزى العميق لتقليد (تناول الخبز جماعة)، ولقد وجد له تفسيراً ربطه برباط لا ينقسم عن عذاب عيسى الذى تحمله لتخليص البشرية، وغمره غمراً بذلك المفهوم الخصب للتضحية من أجل التكفير ومن أجل التقرب والمشاركة فى الذات الإلهية، فجعل منه غاية لسر رفيع وتذكرة ورمزاً حياً - أرادهما عيسى لنفسه - فيما زعم بولس لنا فيه من عذاب الصليب"^(٢).

يقول بولس (إن الرب يسوع فى الليلة التى أسلم فيها أخذ خبزاً وشكر فكسر وقال خذوا وكلوا هذا هو جسدى المكسور لأجلكم، اصنعوا هذا لذكرى، كذلك الكأس أيضاً بعدما تعشوا قائلاً هذه الكأس هى العهد الجديد، بدمى اصنعوا هذا كلما شربتم لذكرى، فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس تخبرون بموت الرب إلى أن يجيئ)^(٣).

وكذلك أيضاً اتخذت طقوس التعميد معنى يقرب من معنى العشاء الربانى.

يقول "لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح"^(٤) وعلى هذا فقد ظهرت معالم عقيدة الخلاص بعد التعديلات التى أدخلها بولس فى المسيحية وقوامها: (المسيح تجسد وصلب وقام من أجل الخلاص) المسيح إله متجسد فى صورة بشرية، تحمل ذنوب البشر على الصليب وذلك من أجل أن يخلصهم.

(١) دوم كولومبا مرميون: المسيح حياة النفس. ترجمة: المطران نصر الله صغير. ص ٧٥.

(٢) المسيحية نشأتها وتطورها ص ١٠٩.

(٣) رسالة كورنثوس الأولى ١١ : ٢٣ - ٢٦.

(٤) غلاطية ٣ : ٢٧.

والتعميد والعشاء الرباني يمثلان صلة روحية بعقيدة الخلاص. وأصبحت هي العقيدة الأساسية والركيزة الأولى للمسيحية، لأنها تمثلت في رسائل كتبها بولس بينما كانت السمة الغالبة على تعاليم عيسى والحواريين أحاديث شفوية.

يقول ول ديورانت: ولم يشعر معاصرو بولس بأثره في التو والساعة لأن الجماعات التي أنشأها كانت أشبه بجزائر صغرى في بحر الوثنية الواسع الخضم ولأن كنيسة رومة كانت من صنع بطرس وبقيت وفية لذاكره ومن أجل هذا ظل بولس مائة عام كاملة بعد موته لا يكاد يذكره إنسان فلما انقضت الأجيال الأولى من المسيحيين وأخذت أحاديث الرسل الشفهية تضعف ذكرها في الأذهان وأخذ العقل المسيحي يضطرب بمئات من عقائد الزيف والضلال، لما حدث هذا أضحت رسائل بولس إطاراً لمجموعة من العقائد أضفت على الجماعات المتفرقة اتزاناً وألفت منها كنيسة واحدة قوية^(١) وآلت القيادة لرسائل بولس لدحض أفكار الخارجين والمارقين عن هذه المسيحية.

إن الدعوة المسيحية بعد السيد المسيح كانت ترجع إلى مركزين: أحدهما برئاسة جيمس (يعقوب)^(٢) المسمى بأخى الرب ومقره بيت المقدس والثانية برئاسة بولس ومريديه ومقرها خارج فلسطين بعيداً عن سلطان الهيكل. وقد كانت شعبة بيت المقدس أقرب إلى المحافظة والحرص على شعائر العهد القديم ملحوظة المكانة في العالم المسيحي داخل فلسطين وخارجها من بلاد الدولة الرومانية كما يظهر من وصايا ومن أجوبة المسيحيين في الخارج عليها وكلها وصايا تحث على رعاية الشعائر الإسرائيلية.

وظلت الرئاسة على العالم المسيحي معقودة لهذه الشعبة المقيمة في بيت المقدس حتى تهدم الهيكل^(٣) وتقوضت مدينة بيت المقدس وتبددت الجماعة في أطراف البلاد، وآلت قيادة الدعوة إلى الشعبة التي كانت تعمل في خارج فلسطين فكان لذلك أثر كبير في أسلوب الدعوة وفي اختيار وسائل الإقناع إذ اختلف الأسلوبان

(١) قصة الحضارة الجزء الثالث من المجلد الثالث ص ٢٦٩.

(٢) أشار العقاد إلى اليهود المحافظين على يهوديتهم، ولقد ذكر (ول ديورانت) في النص السابق على رأس هؤلاء المحافظين (بطرس) ووضع (العقاد) على رأسهم (يعقوب) وهو الصواب - في نظرنا - حيث إن يعقوب كان أكثر حرصاً على يهوديته من بطرس.

(٣) وذلك في سنة ٧٠م حيث هدمه الرومان.

بين الخطاب الموجه إلى اليهود وحدهم، والخطاب الموجه إلى الأميين النافرين من اليهود، فبينما كان الخلاص على يد فرد من بنى إسرائيل لإنقاذهم دون غيرهم أمراً مفروغاً منه بين اليهود، كان العالم الخارجى بحاجة إلى صفات إلهية فى الرسول المخلص يقبلها الأميون ولا يتقيدون فى قبولها بالشروط والعلاقات التى يلتزمها المتشبثون بحرف الناموس^(١).

وظل أمر هذه الشعبة الثانية فى القيادة والدفاع بهذه الأفكار حتى قننت لاهوتيا وأصبح لها قداسة العقائد اللاهوتية وذلك فى القرن الرابع الميلادى حين قرر مجمع نيقية سنة ٣٢٥م ألوهية المسيح وتجسده من أجل الخلاص.

ونص دستور الإيمان المسيحى الذى قرره مجمع نيقية والمجامع التى تلتها: "نؤمن بإله واحد ضابط الكل، خالق السماء والأرض، كل ما يرى وما لا يرى، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد، المولود من الآب قبل كل الدهور، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساو للآب فى الجوهر، الذى به كان كل شئ فى السماء وعلى الأرض، الذى من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد، من الروح القدس ومن مريم العذراء تأنس، وصلب عنا على عهد بيلاطس البنطى، وتألم وقبر وقام فى اليوم الثالث على ما فى الكتب، وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الآب، وأيضاً يأتى بمجد ليدين الأحياء والأموات الذى لا فناء للملكه، وبالروح القدس الرب المحيى المنبثق من الآب الذى هو مع الآب والابن مسجود له وممجّد، الناطق بالأنبياء، وبكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية، ونعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا ونترجى قيامة الموتى والحياة فى الدهر الآتى"^(٢).

فالقضايا الأساسية فى شأن الله والمسيح انجملت بواسطة البحث المستوفى من أشخاص أكثرهم من الأصل اليونانى وحكم بها قانونيا فى المجامع التى التأمت فى الشرق فى غضون القرن الرابع وما يتلوها، فتحدد لاهوت المسيح ومساواته للآب فى

(١) العقاد: حياة المسيح ص ١٩.

(٢) علم اللاهوت النظامى ص ١٧٣، سر التدبير الإلهى (التجسد) ص ١٠٤ - ١٠٥، تاريخ الفكر المسيحى ص ٦٣١.

الجوهر فى مجمع نيقيه سنة ٣٢٥م وأقنومية الروح القدس ولاهوته فى المجمع القسطنطينى الأول سنة ٣٨١م^(١) وتوالت بعد ذلك المجمع لتناقش الآراء حول طبيعة السيد المسيح. وفى الفترة الواقعة بين ما بعد عصر بولس ومجمع نيقيه حدث أن ظهرت عقائد كثيرة خاصة بالمسيح تباعدت وتقاربت أطلق المسيحيون عليها هرطقات ولم يتقرر لاهوت فى تلك الفترة لذلك يقول المسيحيون: "فى القرون الثلاثة الأولى كان جل اهتمام أهل الكنيسة قائماً بالمحاربة عن حقائق المسيحية وحمايتها من قذف غير المؤمنين ومناضلة الارتقات الغنوصية التى تولدت من أصول الفلسفة الشرقية وحل القضايا التى دار عليها الجدل عن أقانيم اللاهوت الأقدس وتقريرها.

ولا يظهر للباحثين فى تاريخ تلك القرون أن أهلها قرروا شيئاً بالضبط من التعاليم اللاهوتية فى أصل خطية الإنسان وشأنها ونتائجها ولا فى شأن النعمة الإلهية وعملها ولا فى حقيقة المسيح وكيفية تخصيصه بواسطة الروح القدس والحصول عليه بواسطة الإيمان^(٢).

وكان ظهور هذه الأفكار بسبب عدم وجود النص الأساسى للإنجيل وبسبب - الاضطهادات والأحداث التى وقعت بالمسيحيين الأوائل والتى كان لها الأثر الواضح فى أن يحتفظ كل مسيحي بتعاليمه وعقائده سرّاً لا يجاهر بها أحداً حتى المسيحي (ومادام قوم يتسترون ولا يجهرون بدعوتهم ولا عقيدتهم فإن هذه العقيدة سيدخلها كثير من الباطل ولذلك لما رفع عنهم البلاء وجهر كل إنسان بعقيدته وجدوا أن بينهم من الخلاف ما لا يقل عن الخلاف الموجود بين دين ودين)^(٣).

فلقد قالوا فى المسيح - عليه السلام - قبل مجمع نيقيه أقوالاً كثيرة حتى اشتد الاختلاف بين الطوائف المسيحية الأولى وتباعدت مسافات الخلف تباعداً شديداً لا يمكن أن يكون معه وفاق، وكان الاختلاف يدور حول شخص المسيح أهو

(١) علم اللاهوت النظامى ص ١٣٤.

(٢) المرجع السابق ص ١٣٢.

(٣) د/ بركات عبد الفتاح دويدار: الوحدانية ص ١٤٧، ١٤٨.

رسول من عند الله فقط من غير أن تكون له منزله أكثر ممن له شرف السفارة بين الله وخلقهم؟ أم له بالله صلة خاصة أكبر من رسول فهو من الله بمنزله الابن وأنه خلق من غير أب ولكن ذلك لا يمنع أنه مخلوق لله لأنه هو كلمته، ومن قائل إنه ابن الله له صفة القدم كما لله تلك الصفة، وهكذا تباينت نحلهم واختلفت وكل يزعم أن نحلته هي المسيحية الصحيحة التي جاء بها المسيح ودعا تلاميذه من بعده^(١).

ولما كان هذا الاختلاف العقائدى الواسع المدى كان لابد من نصرة لأحدهم على الآخر ومادام قد فقد النص المقدس السماوى فإن الغلبة لمن معه اليد القوية التي لها قوة السلطان. "أما الطبقة الحاكمة فقد كانت ميولها فى جانب بولس وأتباعه، وابتداء من مطلع القرن الرابع برزت هذه الميول، وأصبحت تأييداً صريحاً لاتجاهات بولس وإلزاما للناس باتباعها"^(٢).

فمنذ ظهور المسيحية مرت الكنيسة بأوقات عاصفة وأوقات هادئة إلى أن جاء قسطنطين^(٣) "ولو كان قسطنطين أبى أن يعترف بالديانة المسيحية ضمن الديانات المسموح بها فى الدولة أو لو أنه لم يعقد مجمع نيقية الذى حدد مذهب ألوهية المسيح لتغير مجرى التاريخ كله تغيراً تاماً"^(٤) وليس فى استطاعة باحث أن يجرؤ على الجزم بأن ذلك الإمبراطور العسكرى القادر الفاره كان على الدين المسيحى^(٥) مع أن الإمبراطور لم يعتنق المسيحية رسمياً ولم يسمح بتعميده ألا وهو على فراش الموت سنة ٣٣٧م^(٦) فإنه بذل كل ما لديه من سلطة ونفوذ فى خدمة الديانة التي جاءت له بالظفر بأرجاء إيطاليا من تورين إلى فيرونا^(٧) ولذا أدت به الضرورة السياسية إلى أن

(١) الإمام محمد أبو زهرة: محاضرات فى النصرانية ص ١٤٦.

(٢) د/ أحمد شلبى: المسيحية ص ١١٣.

(٣) د/ القس حنا جرجس الخضرى: تاريخ الفكر المسيحى المجلد الأول ص ٦١٨.

(٤) فشر: تاريخ أوروبا (العصور الوسطى) ترجمة د/ محمد مصطفى زيادة، والأستاذ السيد الباز ص ٢.

(٥) المصدر السابق ص ٦.

(٦) نفس المصدر ونفس الصفحة، موجز تاريخ العالم ص ١٨١.

(٧) تاريخ أوروبا (العصور الوسطى) ص ٦.

يجعل من نفسه راعياً للمجامع الدينية وفيصلاً فى المنازعات بين المذاهب ومشيراً مطاعاً فى تقرير عقائد الكنيسة^(١) فكان قسطنطين يرى فى هذه الانقسامات والمعارك اللاهوتية عاملاً خطيراً وهداما لوحدة الإمبراطورية الرومانية^(٢).

كان قسطنطين هو الفاصل بين المسيحيين فى تقرير عقائد الكنيسة. وهنا يرد على ذهن سؤال:

كيف يكون الوثنى هو المشير المطاع فى تقرير عقائد المسيحية وهى الديانة التى ينسبون لها أنها أنزلت من عند الله؟ ولقد ساعد تقرير قسطنطين العقائد الكنيسة أن أصبح التحول من الوثنية إلى المسيحية أمراً عادياً.

يقول: فشر: "غير أنه ليس ثمة شك فى اتخاذ المسيحية - فيما بعد - ديانة رسمية للبلاد ساعد على ازدياد صفوف المسيحيين زيادة سريعة لاسيما أن التحول عن الوثنية إلى المسيحية لم يكن انتقالاً إلى جو غريب تمام الغرابة أو شعور بانقلاب باغت مفاجئ بل بدا الولوج فى المسيحية عملية رقيقة فى كثير من التدرج الشعورى أو العاطفى إذ شابها طقوس الديانة المسيحية وأسرارها المقدسة ما للديانة القديمة من طقوس وأسرار"^(٣).

وعلا صوت المسيحية بلاهوتها الجديد المشابه للديانات السائدة بفضل يد السلطان القوية ونفوذه ورغبته فى أن تسود آراء المسيحيين التى تتفق ومفهومه عن الدين "إذ بات الإمبراطور يؤمن بالمسيح وبإله الشمس القهار، فحبا المسيحيين بكثير من التسامح على حين احتفظ لنفسه بمنصب الكاهن الأعظم، وهو المنصب الإمبراطورى فى الديانة الرومانية الوثنية، ثم إن العملة فى أيام قسطنطين ضربت وعلى وجه منها علامة الصليب، وعلى الوجه الآخر شعار عبادة الشمس"^(٤).

وعلى أساس هذه العقيدة - عقيدة مجمع نيقية - انتشرت المسيحية واندثرت العقائد الأخرى، إذ أن هذا المجمع هو الذى فرض على الناس الأناجيل والرسائل التى تتفق وهذه العقيدة وأمر بحرق الكتب^(٥) الأخرى التى تخالف العقيدة التى اتخذها المجمع.

(١) المصدر السابق ص ٩.

(٢) تاريخ الفكر المسيحى المجلد الأول ص ٦٢٥.

(٣) تاريخ أوربا (العصور الوسطى) ص ٨.

(٤) نفس المصدر ونفس الصفحة.

(٥) محاضرات فى النصرانية ص ١٥٣.

دعوى أن الخلاص هبة الله

يعتقد المسيحيون أنه كان من الضروري بل من اللازم لإتمام عملية الخلاص أن يكون هناك مخلص، وأن يكون في هذا المخلص مشتركاً من اللاهوت ومشاركاً أيضاً من الجنس البشرى، كان لابد أن يكون إلهاً وإنساناً في نفس الوقت حتى يستطيع أن يصلح الإنسان والله^(١).

وهذا المخلص هو المسيح ولا خلاص بدون المسيح. يقول لوقا (وليس بأحد غيره الخلاص لأنه ليس اسم آخر تحت السماء ممنوحاً للناس به ينبغي أن نخلص)^(٢).

والإنسان في حاجة إلى الخلاص يقول القس إلياس مقار: "وما من شك بأن الحاجة إلى الخلاص حاجة عامة عند جميع الناس"^(٣) وذلك على أساس - دعواهم - أن الإنسان متلبس بالخطية، وهذه الحاجة - في نظرهم - ليست مجرد حاجة جماعية عامة بل هي حاجة كل إنسان على حدة من المهد إلى اللحد في حاجة إلى الخلاص، فالملك والصعلوك والذكر والأنثى والمتعلم والجاهل والغنى والفقير والكبير والصغير والأبيض والأسود جميعهم في حاجة متساوية إلى الخلاص من غير تمييز أو تفرقة أو استثناء^(٤) وذلك على أساس أن الخلاص يتناول الحياة الحاضرة الأبدية.

كما أن قول متى (أن ابن الإنسان قد جاء ليخلص ما قد هلك)^(٥) يدل - في نظرهم - على أن الصغار والكبار يحتاجون إلى مخلص لأنهم على حالة الهلاك وذلك لنسبتهم إلى آدم الأول ووراثتهم لطبيعته الساقطة (رومية ٥ : ١٢) وهم يدعون أنه لا يجوز أن ننسب خلاص الذين يموتون في طفولتهم إلى طهارة طبيعية فيهم لأن ذلك ضد كلمة الله على خط مستقيم (من يخرج الطاهر من النجس؟ لا أحد)^(٦) ويدعون أن شهادات أخرى تصرح أن الجميع هالكون بحسب حالتهم الطبيعية ويصدق عليهم قول الرب (ينبغي أن تولدوا من فوق)^(٧)

(١) تاريخ الفكر المسيحي المجلد الأول ص ٤٣٤.

(٢) أعمال الرسل ٤ : ١٢.

(٣) القس إلياس مقار: قضايا المسيحية الكبرى ص ٣٨٢.

(٤) نفس المصدر ونفس الصفحة.

(٥) متى ١٨ : ١١.

(٦) أيوب ١٤ : ٤، (انظر أيضاً مزمور ٥١ : ٥).

(٧) يوحنا ٣ : ٧.

ويقولون لا نقدر أن نعلق خلاصهم أيضاً على إيمان والديهم لأن الرب إنما يعلق ذلك على شخصه قائلاً (لأن ابن الإنسان قد جاء ليخلص ما قد هلك)^(١) وعلى هذا فالخلاص - في نظرهم - هبة من الله لاحتياج البشر إلى الله ولأن أى فرد لا يستطيع أن يقوم به إلا الله.

يقول القس / فهميم عزيز: وهبات الله نوعان: - هبات عامة.. وهبات خاصة. من الهبات العامة: الخلاص من الخطية^(٢). هذا الخلاص مع كل ما يتعلق به من بركات روحية وذلك فى مقابل ما ورثناه من آدم من خطية وموت.

ويلخص بولس ذلك فى قوله: (لأن أجره الخطية هى موت وأما هبة الله فهى حياة أبدية بالمسيح يسوع)^{(٣)،(٤)}.

وعلى ذلك أيضاً فالخلاص لجميع الناس على أساس أنه هبة من الله والهبة من الله عامة، ولكننا نجد لدى المسيحيين ما قد يقلل من شأن هذه الهبة وهو ما يسمى "بعقيدة الاختيار للخلاص" وهى تعنى أن الله اختار أناساً لكي يخلصهم المسيح من خطاياهم. وكلمة "اختيار" كما وردت فى رسالة بولس إلى رومية هى كما يذكر فهميم عزيز^(٥):

كلمة تعبر عن الطريقة التى بها يجرى الله قصده الأسمى لفداء البشرية فإذا كانت كل الخليقة تفدى من عبودية الفساد إلى حرية مجد أولاد الله فذلك مبنى على قصد الله فى الاختيار. ولكن هناك اختيار فى الاختيار ففى العهد القديم اختار الله أناساً من الشعب لخدمته كإبراهيم، وموسى، وداود. وفى هذا المعنى فقد اختيرت إسرائيل نفسها لكي تحمد الرب، كورش اختاره الرب وهو لم يكن يعرف الرب^(٦)، وبهذه الكيفية يعلن العهد القديم الاختيار الذى يفوق عقولنا. فالاختيار العام - أى - للفداء

(١) بنيامين بنكرتن: تفسيرات إنجيل متى ص ٣١٩.

(٢) يقول بولس فى رسالته إلى أهل رومية (ولكن ليس كالخطية هكذا أيضاً الهبة لأنه إن كان بخطية واحدة مات الكثيرون فبالأولى كثيراً نعمة الله والعطية بالنعمة التى بالإنسان الواحد يسوع المسيح قد ازدادت لكثيرين، وليس كما بواحد قد أخطأ هكذا العطية لأن الحكم من واحد للدينونة وأما الهبة فمن جرى خطايا كثيرة للتبرير. رومية ١٠: ٥ - ١٧..

(٣) رومية ٦: ٢٣.

(٤) د/ القس فهميم عزيز: مواهب الروح القدس ص ٨.

(٥) رومية ٨: ١٨ - ٣٠، ٩: ٢٩ - ٣٦.

(٦) إشعياء ٤٥: ٤.

والخلاص. أما الخاص فإنما يشير إلى الوراثة إلى السر الأزلي لسلطان الله ومعرفته السابقة وتعيين النعمة المتفاضلة ولكن الاختيار يشير أيضاً إلى المستقبل إلى مجد الكمال أى إلى الوقت الذى تصبح فيه الكنيسة فى صورة ابنه^(١)،^(٢).

يقول كلايد تارنر:

إن عقيدة الاختيار فى الكتاب المقدس كانت حجر عثرة للكثيرين، فالأسفار المقدسة تعلن أن الله قد اختار أفراداً معينين للخلاص حتى قبل أن يولدوا. ثم يذكر الدلائل على ذلك فى الرسالة إلى رومية: لأنه هما لم يولدا بعد ولا فعلاً خيراً أو شراً لكى يثبت قصد الله حسب الاختيار ليس من الأعمال بل من الذى يدعو، قيل لها إن الكبير يستعبد للصغير، كما هو مكتوب أحبت يعقوب وأبغضت عيسو^(٣).

والعبارة الواردة فى "أفسس" أقوى من هذه العبارة أيضاً "كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم لتكون قد يسين وبلا لوم قدامه فى المحبة، إذ سبق فعيننا للتبنى يسوع المسيح لنفسه حسب مسرة مشيئته"^(٤) وفى رسالة بولس الثانية إلى تسالونيكي "وأما نحن فينبغى لنا أن نشكر الله كل حين لأجلكم أيها الإخوة المحبوبون من الرب أن الله اختاركم من البدء للخلاص بتقديس الروح وتصديق الحق"^(٥) وهناك فقرات أخرى كثيرة يمكن اقتباسها من الكتاب المقدس تظهر فيها عقيدة أو تعليم الاختيار.

ثم يعلق على ذلك قائلاً: ترى هل يبين لنا مثل هذا التعليم محابة من جانب الله وهدماً لحرية الفرد، لا ينكر أحد أن هناك بعض الغموض فى هذه العقيدة وهذا التعليم، وبالطبع لا يستطيع أحد الادعاء بشرحها شرحاً وافياً، ولكن الأسفار المقدسة تقول إن الاختيار قائم على سابق علم الله^(٦) واختيار الله لا يلغى حرية

(١) رومية ٨ : ٩.

(٢) القس فهم عزيز: المدخل إلى العهد الجديد ص ٣٨١ - ٣٨٢.

(٣) رومية ٩ : ١١ - ١٣.

(٤) أفسس : ١ : ٤ - ٥.

(٥) ٢ تسالونيكي ٢ : ١٣.

(٦) رومية ٨ : ٢٩ (لأن الذين سبق فعرفهم سبق فعينهم ليكونوا مشابهي صورة ابنه ليكون هو بكرًا بين إخوة كثيرين).

الإنسان فى الاختيار كما أنه عالم بما سيختار الإنسان وهذه الفقرات المأخوذة من الأسفار المقدسة تلقى بعض الضوء على هذه العقيدة الصعبة ولكن لا تشرحها شرحاً وافياً^(١).

فَعَقِيدَةُ الاختيار كما هى لدى المسيحيين لم يستطيعوا شرحها شرحاً وافياً، وهى قائمة بجانب علم الله على إيمان المخلصين بالمسيح، فهى خاصة بالمسيحيين.

تعقيب:

وأفهم مادام الخلاص هبة عامة فلا بد أن يكون للبشر أجمعين، كالماء والهواء، لا ينحصر بفئة دون أخرى، ولا يقوم دون آخرين، حتى ولو لم يؤمنوا بالمسيح، لأنهم لم يكونوا مع آدم حين أخطأ، وأتم قد نسبتم خطيئة آدم إلى البشر أجمعين فلا بد أن يأتى المسيح بالخلاص للبشر أجمعين لا لقوم مختارين، وإلا فما ذنب هؤلاء الذين ورثوا الخطيئة عن آدم ولم يخلصوا؟ يقولون: ذنبهم أنهم لم يؤمنوا بالمسيح!!!

نقول وما ذنب هؤلاء الذين ماتوا قبل المسيح ولم يعرفوه حتى يؤمنوا؟ وما ذنب هؤلاء الصغار الذين ماتوا قبل أن تنضج عقولهم فيؤمنوا بالمسيح؟ خاصة وأنكم تقولون إن خلاصهم يكون بإيمانهم لا بإيمان آبائهم.

يقولون عن هؤلاء الذين ماتوا قبل المسيح إن المسيح نزل إلى الجحيم وخلصهم. يقول د/ القس حنا جرجس الخضرى (يعتقد بعض المسيحيين - الكاثوليك والأرثوذكس^(٢) - أن المسيح بعد قيامته وقبل صعوده وجلسه عن يمين الرب أنه نزل إلى الجحيم لتبشير المسجونين، وأن تبشيره فى الجحيم كان موجهاً إلى كل من الأموات يهودا كانوا أم أمما، بل لقد ذهب كل من هرمس وإكليمندوس الاسكندري إلى أبعد من ذلك، فلقد نادى كل منهما بأن الرسل أنفسهم قد بشروا بعد موتهم وأثناء إقامتهم فى الشبول - أى الجحيم - برسالة الخلاص وعمدوا كل الذين قبلوا

(١) كلايد تارنر: هذه عقائدنا ص ١١٦ - ١١٧.

(٢) وموقف الكنيسة الإنجيلية يختلف عن هؤلاء فى هذا الاعتقاد حيث إنهم لا يقولون بذلك (تاريخ الفكر المسيحي ص ٣٦٧).

الخلاص وأحضروهم معهم إلى السماء^(١) ويقول "إن الله سيقدم فرصة أخرى فى العالم الآخر حتى يوصل رسالة الخلاص إلى كل الذين لم تتح لهم فرصة سماع إنجيل المسيح على الأرض فى أثناء حياتهم لأن مسرة قلب الله الآب هى خلاص كل البشر" الذى يريد أن جميع الناس يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون"^(٢)،^(٣).

وهل هذا مقبول ومعقول فكيف تكون دار الجزاء داراً للإيمان؟ والمسيح فى أناجيلكم يقول "فإنه تأتى ساعة فيها يسمع جميع الذين فى القبور صوته فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة أنا لا أقدر أن أفعل من نفسى شيئاً كما أسمع أدين ودينونتى عادلة لأنى لا أطلب مشيئتي بل مشيئة الآب الذى أرسلنى"^(٤).

فالمسيح يقول لهم إنه فى وقت الدينونة يكون الثواب لمن عمل صالحاً، والجزاء لمن عمل سيئاً، وأنه لا يستطيع أن يغير شيئاً، لأن دينونته دينونة عادلة لأن الله عادل وهو لا يطلب مشيئة أحد وإنما يطلب مشيئة الله.

ويقول بولس "عند استعلان الرب يسوع من السماء مع ملائكة قوته، فى نار لهيب معطيا نعمة للذين لا يعرفون الله والذين لا يطيعون إنجيل ربنا يسوع المسيح الذين سيعاقبون بهلاك أبدى من وجه الرب ومن مجد قوته"^(٥) فهو يجازى الذين لا يعرفون الله ولا يؤمنون بإنجيله بنار ملتهبة خالدين فيها أبداً، فلا مجال للقول بأنه يعرض على الأموات إنجيله وإلا فلا عدالة ولا مساواة بين إنسان عاش طوال حياته متمرداً غير مؤمن بالله متنعماً بالمعاصى، وإنسان عاش طوال حياته مؤمناً بالله محافظاً على شعائره وعباداته يجد المشقة فى العبادة والطاعة، ثم يأتى يوم الحساب يدخل هذا وذاك الذى آمن بالمسيح بعد الموت الجنة، فلا مساواة إذن ولا عدالة حتى ولو قالوا إن هناك تفاوتاً فى درجات النعيم.

(١) تاريخ الفكر المسيحى المجلد الأول ص ٣٦٦ - ٣٦٧.

(٢) الرسالة الأولى إلى تيموثاوس ٢ : ٤.

(٣) تاريخ الفكر المسيحى المجلد الأول ص ٣٦٨.

(٤) يوحنا ٥ : ٢٨ - ٣٠.

(٥) رسالة بولس الثانية إلى تسالونيكي ١ : ٧ - ٩.

وهناك تساؤل أهم: وهو هل تتاح فرصة الخلاص - بعد الموت - لمن لم يؤمن بالمسيح في حياته لكي يتساوى مع من مات قبل ظهور المسيح، في فرصة الإيمان بعد معانيته الجحيم؟ إذا كان الجواب نعم: فما فائدة ظهور المسيح في الدنيا؟ وإذا كان لا فالظلم واضح في وقوعه على من ظهر لهم المسيح في هذه الدنيا، وكان يكفي للخلاص أن يذهب المسيح إلى "الجميع" في "الجحيم".

أما قول بعضهم إن المسيح نزل إلى الجحيم بعد صلبه لتبشير المسجونين وتخليصهم فإننا نرد عليهم بقول القس عوض سمعان:

"ليست هناك فقرة في الكتاب المقدس تدل على أن المسيح نزل إلى الجحيم بعد موته الكفارى على الصليب، وأن الفرصة التى يمكن للمرء أن يتمتع فيها بالخلاص هى فرصة الحياة الحاضرة؛ لأنها هى الفرصة التى يستطيع فيها أن يتوب عن الخطيئة ويؤمن بالمسيح إيماناً حقيقياً يولد به من الله ولادة روحية"^(١) وإذا لم يكن هناك نص ولا دليل من الكتاب المقدس فبأى دليل يستدلون؟.

طريقة نوال الخلاص

اختلف المسيحيون في طريق نوال الخلاص اختلافاً كبيراً، والاختلاف ينحصر في هل يكون الخلاص بالإيمان؟ أو بالأعمال؟ يقول القس ليب ميخائيل:

هل الخلاص بالإيمان؟ أو بالأعمال؟ أو بالإيمان والأعمال معاً؟

حاول أن تسأل الكثيرين من المسيحيين الاسمين هذا السؤال وستسمع ألواناً من الإجابات الخاطئة تتردد على شفاههم.

يجيبك واحد قائلاً:

إن الشخص ينال الخلاص بأعمال البر والصلاح، وأنه ليس على المرء إلا أن يصوم ويصلى ويدفع صدقات للفقراء والمساكين ويعمل الخير للناس ثم ينتظر بعد ذلك الرحمة من الله فإما أن يرسله إلى السماء أو يلقي به في الجحيم...

(١) عوض سمعان: الخلاص بين المفاهيم البشرية ص ١٠٠.

ويقول لك آخر: إن الإنسان يخلص إذا حفظ ناموس الوصايا العشر ولم يحد عنها.

ويقول لك ثالث: إن الإنسان يخلص بالإيمان والأعمال معاً^(١).

وهذا الاختلاف بين المسيحيين حول طريق نوال الخلاص. هل هو بالإيمان أو الأعمال؟ ليس حديث النشأة وإنما يرجع إلى العصور الأولى للمسيحية وذلك حين ألغى بولس "الختان".

يقول سفر الأعمال "وانحدر قوم من اليهودية، وجعلوا يعلمون الإخوة أنه إن لم تختنوا حسب عادة موسى لا يمكنكم أن تخلصوا، فلما حصل لبولس وبرنابا منازعة ومباحثة ليست بقليلة معهم رتبوا أن يصعد بولس وبرنابا وأناس آخرون منهم إلى الرسل والمشايع إلى أورشليم من أجل هذه المسألة"^(٢).

اجتمع رؤساء الكنيسة ومشايخها لينظروا في هذا الأمر... وكان بطرس ويعقوب يخالفان بولس في هذا الأمر. ويحكى بولس ذلك في رسالته إلى أهل غلاطية فيقول: "فإن هؤلاء المعتبرين لم يشيروا على شيء بل العكس إذ رأوا أنى أؤتمنت على إنجيل الغرلة"^(٣) كما بطرس على إنجيل الختان، فإن الذى عمل فى بطرس لرسالة الختان عمل فى أيضاً للأمم. فإذا علم بالنعمة المعطاة لى يعقوب وصفا ويوحنا المعتبرون أنهم أعمدة أعطوني برنابا يمين الشركة لنكون نحن للأمم وأما هم فللختان، غير أن نذكر الفقراء وهذا عينه كنت اعتنيت أن أفعله. ولكن لما أتى بطرس إلى إنطاكية قاومته مواجهة لأنه كان ملوماً لأنه قبلما أتى قوم من عند يعقوب كان يأكل مع الأمم ولكن لما أتوا كان يؤخر ويفرز نفسه خائفاً من الذين هم من الختان. وراى معه باقى اليهود أيضاً حتى إن برنابا أيضاً انقاد إلى رياتهم. لكن لما رأيت أنهم لا يسلكون باستقامة حسب حق الإنجيل قلت لبطرس قدام الجميع إن كنت وأنت يهودى تعيش أحمياً لا يهودياً فلماذا تلزم الأمم أن يهودوا. نحن بالطبيعة يهود ولسنا

(١) القس ليبب ميخائيل: يقين الخلاص ص ٩.

(٢) أعمال الرسل ١٥: ١ - ٣.

(٣) أغرل: غير المختون، والغرلة: غير الختان (قاموس الكتاب المقدس ص ٣٥٧).

من الأمم خطأ. إذ نعلم أن الإنسان لا يتبرر بأعمال الناموس بل بإيمان يسوع المسيح
أما نحن أيضاً بيسوع المسيح لتبرر بإيمان يسوع لا بأعمال الناموس لأنه بأعمال
الناموس لا يتبرر جسد ما^(١).

خالف بطرس ويعقوب بولس لأنه خالف ما جاء في ناموس موسى الذي قال
عنه المسيح (ما جئت لأنقض المسيح).

يقول الأب / متى المسكين (اكتشاف بولس هذا يعتبر خطيراً للغاية لأنه أحدث
نقطة التحول العظمى من العبادة اليهودية إلى العبادة المسيحية التي أنهت على
التبرير^(٢) بالناموس إلى الأبد، ولقد كانت وقفة بولس في وجه بطرس في هذا الأمر
من أخطر الوقفات في تاريخ الكرازة باسم المسيح إذ أعلن في صراحة ولأول مرة
في الإنجيل كله "وإذ نعلم أن الإنسان لا يتبرر بأعمال الناموس بل بإيمان يسوع
المسيح..^(٣) وعليه فبولس قد أعلن أن الخلاص ليس بأعمال الناموس بل بالإيمان
وسار على رأيه معظم المسيحيين. يقول سبينوزا: ولكي يثبت بولس الناس في الدين
ويبين لهم أن الخلاص لا يتم إلا بالفضل الإلهي علمهم إنه لا يحق لأحد أن يتفاخر
بأفعاله بل بإيمانه فقط وأن الأعمال لا تنقذ أحداً^(٤) ويقول مايكل هارت وهو يعدد
أهم أفكار بولس: ومن أهم أفكاره أن الإنسان لا يستطيع أن يحقق هذا الخلاص من
الخطايا بالإيمان بالكتب المقدسة فقط وإنما بالإيمان بيسوع وإذا آمن الإنسان بيسوع
فسوف تغفر خطاياه^(٥).

يقول د/ فهم عزيز: كيف ينال الإنسان الخلاص؟

إن الجواب الوحيد لبولس على ذلك هو الإيمان. إنه يكرر هذه الكلمة في هذا
الجزء - رسالته إلى أهل رومية ٣: ٢١ - ٣١ أكثر من سبع مرات: الإيمان بيسوع

(١) غلاطية ص ٢: ٧-١٧.

(٢) برّ، وبرر، تبريراً: تتضمن كلمة التبرير القانون الأساسي للإيمان المسيحي وهي عكس الدينونة، والتبرير
خلاف البراءة أي الحكم بعدم ارتكاب الجريمة. قاموس الكتاب المقدس ص ١٦٩.

(٣) الأب / متى المسكين: التبرير بين الماضي والحاضر ص ١٥.

(٤) سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة ص ٣٣٥.

(٥) مايكل هارت: الخالدون مائة أعظمهم محمد صلى الله عليه وسلم ص ٣٦.

المسيح^(١)، الإيمان بدمه^(٢)، ثم يكرر كلمة الإيمان مطلقة وذلك لأهميتها القصوى عنده، والذي جعله يشدد هكذا هو جهل اليهود الذين ظلوا يؤكدون على الأعمال... وإتمام الفرائض والطقوس لنوال التبرير^(٣).

ويقول: "عندما يتكلم بولس عن الخلاص فإنه يذكر أنه ليس من الأعمال بل هي نعمة الله في المسيح منذ الأزل"^(٤).

ولقد تبع بولس في هذه العقيدة أكثر المسيحيين. يقول كلايد تارنر: جعل الله طريقة واحدة لجميع البشر "لأنكم بالنعمة مخلصون بالإيمان وذلك ليس منكم هو عطية الله"^(٥) الخلاص بنعمة الله ممكن بالإيمان الشخصي بالرب يسوع هذا، وليس لدى الله طريق آخر للخلاص.

يريدنا البعض أن نؤمن بأن الناس في العهد القديم كانوا يخلصون بحفظ الناموس ولكن بولس في رسالته إلى أهل غلاطية يصحح هذا الرأي الخاطئ^(٦).

ويقول القس / صموئيل حبيب: الخلاص من جانب الإنسان إيمان فقط لا أعمال فإن الكثيرين يظنون أنهم عندما يعملون الأعمال الصالحة يخلصون.

ليس الخلاص بالأعمال الصالحة التي تصدر عن طبيعة الفساد والتي في الإنسان فتكون باطلة في حد ذاتها فإن يسوع "هو الذي خلصنا ودعانا دعوة مقدسة لا بمقتضى أعمالنا بل بمقتضى القصد والنعمة التي أعطيت لنا في المسيح يسوع قبل

(١) رومية ٣: ٢٢ - ٢٦.

(٢) رومية ٣: ٢٥.

(٣) د/ القس فهم عزيز: المدخل إلى العهد الجديد ص ٣٩٠.

(٤) نفس المصدر ص ٥٤٣.

(٥) أفسس ٢: ٨.

(٦) كلايد تارنر: هذه عقائدنا ص ١٠٠ - ١٠١.

الأزمة الأزلية"^(١) فإنه لا بأعمال فى بر عملناها نحن بل بمقتضى رحمته خلصنا بغسل الميلاد الثانى^{(٢) (٣)}.

ويقول القس/ مرقس عبد المسيح فى جوابه على سؤال طرحه وهو: كيف ينال الخلاص؟ يضع أمامنا بولس فى فقرة فى رسالته إلى أهل أفسس^(٤) أمرين.

الأول: سلبى وهو أن الخلاص لا ينال بشيء داخلى فىنا أى أننا نحن لسنا مصدر أو سبب هذا الخلاص وأنه ليس بأعمال تقوم نحن بها.

والثانى: إيجابى وهو أن الإنسان يحصل على الخلاص بالنعمة وهذا جانب الله المعطى بالإيمان، وهذا جانب الإنسان الذى ينال العطية^(٥).

وبينما يشدد معظم المسيحيين على القول بأن الخلاص إنما يكون بالإيمان نجد أن هناك قولاً آخر ليعقوب فى رسالته عارض به بولس وهو أن الخلاص إنما يكون بالأعمال.

يقول سبينوزا: "أما يعقوب فإنه على العكس من ذلك يدعو فى رسالته إلى أن خلاص الإنسان يتم بأعماله لا بإيمانه فقط"^(٦).

يقول يعقوب فى رسالته فى الإصحاح الثانى:

"إن قال أحد إن له إيماناً ولكن ليس له أعمال، هل يقدر الإيمان أن يخلصه، إن كان أخ وأخت عريانين ومعتازين للقوق اليومى فقال لهما أحكمم امضيا بسلام استدفئا واشبعا ولكن لم تعطوها حاجات الجسد فما المنفعة؟ هكذا الإيمان أيضاً إن لم يكن له أعمال ميت فى ذاته، لكن يقول قائل: أنت لك إيمان وأنا لى أعمال. أرنى إيمانك بدون أعمالك وأنا أريك بأعمالى إيمانى. أنت تؤمن أن الله واحد. حسنا

(١) ٢ تيموثاوس ١ : ٩.

(٢) تيطس ٣ : ٥.

(٣) القس/ صموئيل حبيب: الخلاص فى مفهومه الكتابى والتطبيقات ص ٧٦ وفى هذا المعنى يراجع تفسير إنجيل متى ص ١٠٧، ١٠٨.

(٤) وهى "لأنكم بالنعمة مخلصون بالإيمان وذلك ليس منكم. هو عطية الله، ليس من أعمال كيلا يفتخر أحد" أفسس ٢ : ٨، ٩.

(٥) القس مرقس عبد المسيح: الخلاص ص ٣٤.

(٦) رسالة فى اللاهوت والسياسة ص ٣٣٥.

تفعل. والشياطين يؤمنون ويقشعرون، ولكن هل تريد أن تعلم أيها الإنسان الباطل أن الإيمان بدون أعمال ميت، ألم يتبرر إبراهيم أبونا بالأعمال إذ قدم إسحاق ابنه على المذبح^(١) فترى أن الإيمان عمل مع أعماله، وبالأعمال أكمل الإيمان، وتم الكتاب القائل فأمن إبراهيم بالله فحسب له برًا ودعى خليل الله، ترون إذا أنه بالأعمال يتبرر الإنسان لا بالإيمان وحده كذلك راحاب^(٢) الزانية أيضًا أما تبررت بالأعمال إذ قبلت الرسل وأخرجتهم في طريق آخر لأنه كما أن الجسد بدون روح ميت هكذا الإيمان أيضًا بدون أعمال ميت^(٣)

لقد عارض يعقوب بولس في قوله إن الخلاص بالإيمان، ووصف يعقوب هذا القائل بقوله في الفقرة السابقة "أيها الإنسان الباطل".

ومعروف أن يعقوب أقرب إلى المسيح من بولس، وأزهد وأعبد، ومع ذلك فقد تبع معظم المسيحيين قول بولس.

يقول القس داود حداد عن "يعقوب"^(٤):

"يعقوب" "أخو الرب"^(٥) وكان رأس الكنيسة في اورشليم في العصر الرسولي، وكان يلقب "بالبار"، بسبب شدة غيخته على الشريعة، وكان موقفه من المسيح في حياته على الأرض كموقف إخوته فلم يؤمن به^(٦) وقد تضاربت أقوال المسيحيين في حقيقة نسبة هؤلاء الأخوة إلى المسيح: فمن قائل إنهم أبناء يوسف من زوجة كانت له قبل مريم، ومن قائل إنهم أولاد أخت لمريم، أو أولاد أخ يوسف، وهؤلاء في عرف اليهود وفي لغتهم يحسبون أخوة.

ومن قائل إنهم أخوة يسوع من يوسف ومن مريم، وبعد "ولادة ابنها البكر" استنادًا إلى بعض الأقوال كالقول "لم يعرفها حتى ولدت ابنها البكر" والقول "ابنها

(١) وذلك على أساس عقيدتهم أن الذبيح هو إسحاق. وستعرض لهذه الدعوى في الفصل الرابع من هذا الباب.

(٢) يشير إلى ما جاء في سفر يشوع (راحاب الزانية فقط تحيا هي وكل من معها في البيت لأنها قد خبأت المرسلين اللذين أرسلناهما) ٦ : ١٧.

(٣) يعقوب ٢ : ١٤ - ٢٥.

(٤) أي يعقوب الذي رجح النصارى أن يكون هو كاتب هذه الرسالة.

(٥) متى ٢٣ : ٥٥، مرقس ٦ : ٣.

(٦) متى ١٢ : ٤٦ - ٥٠، مرقس ٣ : ٣١ - ٣٥، لوقا ٨ : ١٩، يوحنا ٣ : ٥ - ٧.

البكر". والمسيحيون يقولون: لسنا نعلم بالضبط متى وكيف تغير يعقوب واهتدى وصار "عبد المسيح" وعلى الأرجح أن يعقوب اقتيد إلى الإيمان بظهور خاص ظهره له المسيح بعد قيامته، وكانت ليعقوب مكانة مرموقة في أورشليم عندما زارها بولس للمرة الأولى بعد دخوله المسيحية وكان رئيس المجمع الرسولي وأزال الانشقاق بين المتنصرين من الأمم^(١) ولازم التقاليد اليهودية وخدمة الهيكل طالما كان له رجاء بإدخال الأمة اليهودية بأسرها إلى ديانة المسيح، ولكن المتطرفين من اليهود حكموا عليه وقتلوه رجما وكان ذلك على ما يرجح حوالى سنة ٦٢م^(٢).

يقول باركلي عن "يعقوب" :-

وكان يشغل مركزاً هاماً إذ كان قائد كنيسة أورشليم، ولكنه لم يكن قائداً معيناً كموظف يقوم بعمل، بل كان قائداً بحكم شخصيته كرجل مرموق أحبه الناس وأسلموا له القيادة وهو أخو الرب ولقد ظهر له الرب ظهوراً خاصاً^(٣) وكان عموداً في كنيسة الرب^(٤) ولقد كان مواظباً على الصلاة راکعاً طول الوقت حتى قيل إن ركبته كانتا كركبتى الجمل.

ولقد كان يتمتع بسمعة ممتازة حتى اشتهر بيعقوب العادل ولكن الأهم من ذلك أنه كان رجلاً محافظاً يحفظ الناموس^(٥).

وليس هذا فحسب - كون يعقوب أقرب إلى المسيح من بولس - بل إن رأى يعقوب يتفق ويتوافق مع نصوص العهد القديم والجديد، فأمثلة العهد القديم ذكرها يعقوب في قوله السابق.

ومن أمثلة العهد الجديد ما جاء في إنجيل متى في الإصحاح التاسع عشر: وإذا واحد تقدم وقال له أيها المعلم الصالح أى صلاح أعمل لتكون لى الحياة الأبدية؟ فقال له: لماذا تدعونى صالحاً ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله، ولكن إذا أردت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا، قال له: أية وصايا؟ فقال يسوع: لا تقتل، لا

(١) أعمال الرسل الإصحاح الخامس عشر.

(٢) قاموس الكتاب المقدس ص ١٠٧٦.

(٣) ١- كورنثوس ١٥ : ٧.

(٤) غلاطية ١ : ١٩.

(٥) تفسير العهد الجديد سفر أعمال الرسل ص ١٨٦ - ١٨٧.

تزن، لا تسرق، لا تشهد بالزور، أكرم أباك وأمك، وأحب قريبك كنفسك، فقال له الشاب: هذه كلها حفظتها منذ حدثتى، فماذا يعوزنى بعد؟ قال له يسوع: إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملكك وأعط الفقراء، فيكون لك كنز فى السماء وتعال اتبعنى^(١).

فبين له المسيح أن الحياة المقصود بها الحياة الأبدية تكون عن طريق أن يفعل الأعمال الصالحة.

ويقول متى "ومتى جاء ابن الإنسان فى مجده وجميع الملائكة القديسين معه فحينئذ يجلس على كرسى مجده، ويجمع أمامه جميع الشعوب فيميز بعضهم عن بعض كما يميز الراعى الخراف من الجداء، فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن يساره، ثم يقول الملك للذين عن يمينه تعالوا يا مباركى أبى رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم، لأنى جعت فأطعمتمونى، عطشت فسقيتمونى، كنت غريباً فأويتمونى، عرياناً فكسوتونى، مريضاً فزرتونى، محبوساً فأتيتم إلى.

فيجيبه الأبرار حينئذ قائلين: يا رب متى رأيناك جائعاً فأطعمناك، أو عطشاً فسقيناك؟ ومتى رأيناك غريباً فأويناك؟ أو عرياناً فكسوناك؟ ومتى رأيناك مريضاً أو محبوساً فأتينا إليك؟

فيجيب الملك ويقول لهم: الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد أخوتى هؤلاء - الصغار فبى فعلتم... إلى آخره^(٢).

فبين المسيح أن إرث الملكوت فى السموات يوم الحساب والجزاء إنما يكون لمن سلك الطريق المستقيم وعمل صالحاً. ويقول المسيح فيما جاء فى إنجيل متى مدلاً على أن إرث الملكوت إنما يكون لمن حفظ الوصايا وعمل بها "لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل، فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا يدعى أصغر فى ملكوت السموات أما من عمل وعلم فهذا يدعى عظيماً فى ملكوت السموات"^(٣).

(١) متى ١٩ : ١٦ - ٢١.

(٢) متى ٢٥ : ٣١ - ٤١.

(٣) متى ٥ : ١٨ - ١٩.

ومما يدل أيضاً على القول بأن الإيمان والأعمال هما أساس الخلاص المسيحي ما جاء أيضاً في إنجيل متى ولوقا قول المسيح "فكل من يسمع أقوالى ويعمل بها أشبه برجل عاقل بنى بيته على الصخر، فنزل المطر وجاءت الأنهار وهبت الرياح ووقعت على ذلك البيت فلم يسقط، لأنه كان مؤسساً على الصخر، وكل من يسمع أقوالى هذه ولا يعمل بها يشبه برجل جاهل بنى بيته على الرمل، فنزل المطر وجاءت الأنهار وهبت الرياح وصدمت ذلك البيت فسقط، وكان سقوطه عظيماً"^(١).

فنصوص العهد القديم والجديد صريحة في أن الإيمان والأعمال بهما ينال المرء الحياة الأبدية - التى هى إحدى معانى الخلاص كما سبق - وبها يرث المرء الملكوت فى السموات.

هذا هو قول العهد القديم والجديد وهما المصدران الأساسيان للمسيحية فى نوال الخلاص، وهو قول يعقوب الذى قال به.

لكن لما كان بولس هو عقل المسيحية المفكر، وراعيها المدبر، فإن أقواله هى السائدة - حتى لو خالفت نصوص المصادر الأساسية - حتى إنه كان من دواعى رفض الكنيسة لرسالة يعقوب فى أول الأمر^(٢) أنها لا تتناسب مع أفكار بولس. يصرح بذلك الدكتور القس / فهيم عزيز فيقول:

والتردد فى قبولها - أى رسالة يعقوب - كان مبنيًا على أمرين:

الأول: أنه لا يعرف أى يعقوب بقصد بكتبتها^(٣).

الثانى: أنها تختلف عن رسائل بولس فى مسألة التبرير بالإيمان^(٤).

(١) متى ٧: ٢٤ - ٢٨، لوقا ٦: ٤٥ - ٤٩ (واللفظ لمتى).

(٢) المعروف تاريخياً أن الكنيسة فى مجمع نيقية رفضت سبع رسائل مما يحتويه العهد الجديد الآن ولم تعترف بها وتحكم بصحتها إلا فى مجمع لوديسيا سنة ٣٦٤م وهى رسالة بولس إلى العبرانيين ورسالة بطرس الثانية، ورسالة يوحنا الثانية والثالثة ورسالة يعقوب ورسالة يهوذا، ورؤيا يوحنا (راجع المدخل إلى العهد الجديد ص ١٥٤، علم اللاهوت النظامى ص ٩٨).

(٣) ذلك أن النصارى لا يعرفون من هو "يعقوب" كاتب هذه الرسالة، ذلك أن كاتبها قال فى فاتحتها (يعقوب عبد الله) ١: ١. فلقد أطلق هذا الاسم على ثلاثة أشخاص فى العصور الأولى للمسيحية: يعقوب الكبير ابن زبدي وأحد الاثنى عشر، والأخ الأكبر ليوحنا الرسول (متى ٤: ٢١)، ويعقوب الصغير ابن حلفى وأحد الاثنى عشر أيضاً (متى ٣٤١٠، مرقس ٣: ١٨، لوقا ٦: ١٥)، يعقوب أخو الرب (متى ٢٣: ٢٥) ولقد رجح النصارى أن يعقوب أخو الرب هو كاتب هذه الرسالة وهو قائم على الظن.

(٤) المدخل إلى العهد الجديد ص ١٥٤.

ولنا أن نقول: إن القول بأن الإنسان ينال الخلاص بالإيمان فقط إنما هو قول يحرص على الانحلال والتحلل من الشريعة إذ أن الإيمان بدون أعمال لا فائدة فيه، فالمقصود من الإيمان أن يوقظ القلب والعقل، وأن يهذب السلوك ويطهر الجوارح حتى العبادات المفروضة المقصود منها أساساً قمع الشهوات، وضبط الجوارح عن الأعمال السيئة.

وعلى الجانب الآخر: الأعمال بدون إيمان إنما هو تخبط فى مهاوى الضلال من غير هدى، فالإيمان هو المشعل الذى يضىء طريق الخير، وبالإيمان يستطيع الإنسان التمييز بين سبيل الرشد وسبيل الغى.

وعلى هذا فإن طريق نوال الحياة السعيدة فى الدنيا والآخرة إنما يكون عن طريق الإيمان والأعمال. وإذا كان الأمر كذلك فما الفائدة من قول المسيحيين أن المسيح نزل ليخلص البشرية من الخطايا؟

سنرى فى الفصول القادمة مدى الفائدة فى نظرهم، ولكن لن نترك هذه الفقرة حتى ننبه: إذا كان الإنسان يستطيع أن ينال النعيم والفوز فى الدنيا والآخرة بالإيمان والأعمال فلا فائدة من الطريق الذى رسمه المسيحيون؛ لأن كل فرد ينال حياته السعيدة بإيمانه هو وعمله هو، لا بإيمان ولا بأعمال المسيح.



هذا ولما كان الخلاص المسيحى يقوم على خطيئة آدم التى ورثها نسله كما يدعى المسيحيون فإننا رأينا أن ننظر فى خلق آدم وصورته وإيمانه قبل المعصية وبعدها حتى نوازى بينهما وننظر فى طريق الخلاص وماذا ورث نسل آدم منه؟ وطريق الخلاص من هذا الإرث؟



الفصل الثاني

حالة الإنسان قبل السقوط في الخطيئة في التصور المسيحي

obeikandi.com

تمهيد:

إن تاريخ الخلاص المسيحي يبدأ من آدم - عليه السلام - والسمة البارزة لطبيعته والصورة الحقيقية لهيكله الإنساني والروحي.

ولما كانت الدراسة خاصة بالخلاص المسيحي فإن البداية للدراسة يجب أن تبدأ من حيث البداية التاريخية له.

يقول فيكتور هيكو:

تاريخ الخلاص يبدأ بما قبل التاريخ يبدأ بآدم الأب الأول لإسرائيل والجد الأول للمسيح^(١).

ودراستنا لآدم - عليه السلام - دراسة تقتصر على ما يتصل بعقيدة الخلاص.

(خلق الله للعالم)

لقد احتوت الإصحاحات الثلاث الأولى من سفر التكوين على خلق الله للعالم والإنسان. والمراد بالخلق: الإيجاد من العدم لا إبداع شيء من مادة موجودة على مثال جديد، ولذلك يختلف عن الشئ والاستحالة.

لأن الأول: يدل على نمو موجود وتقدمه.

والثاني: يدل على تحول موجود من حال إلى حال، وذلك على وفق طبيعة الناشئ أو المستحيل، وبموجب نوااميس مقررة.

والمراد بالخلقة ما خلقه الله^(٢).

(١) فيكتور هيكو: تاريخ الخلاص ص ٥.

(٢) علم اللاهوت النظامي ص ٤٢٧.

يقول القس / حبيب سعيد: قد يكون معنى الخليفة كل المخلوقات^(١) أو فعل الخلق ذاته^(٢)،^(٣)

وتنقسم قصة الخليفة إلى جزئين كل جزء يكمل الآخر.

فالجزء الأول يشتمل على خلق العالم كله من حيوان ونبات وجماد وغيرهم عدا الإنسان، والجزء الثانى يشتمل على خلق الإنسان وإعداده.

أما بالنسبة لخلق العالم: فإننا نجد فى سفر التكوين بروايتين.

يقول موريس بوكاى (يلاحظ الأب ديفو أن سفر التكوين يبدأ بروايتين عن الخلق كل منهما موضوعة بجانب الأخرى^(٤)).

وتبين الرواية الأولى أن الله خلق السموات والأرض، ثم خلق النباتات، وخلق الشمس والقمر والكواكب والنجوم، ثم خلق الطيور، فالحيوانات، وأخيراً خلق الله الإنسان الذى هو رأس الخليفة.

وفى الرواية الثانية للخليفة نجد أنفسنا وكأننا أمام قصة أخرى رويت فى كتاب آخر، حيث إنها تبدأ بخلق الإنسان بعد خلق السموات والأرض، ثم خلق النباتات، فالحيوانات. تقول الرواية كما جاءت فى الإصحاح الثانى من سفر التكوين:

يوم عمل الرب الإله الأرض والسموات كل شجر البرية لم يكن بعد فى الأرض، وكل عشب البرية لم ينبت بعد، لأن الرب الإله لم يكن قد أمطر على الأرض، ولا كان إنسان ليعمل الأرض، ثم كان ضباب يطلع من الأرض ويسقى كل وجه الأرض، وجبل الرب الإله آدم..... وأنبت الرب الإله من الأرض من كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل..... وجبل الرب الإله من الأرض كل الحيوانات البرية وكل طيور السماء فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها^(٥).

(١) رومية ٨: ١٩ (لأن انتظار الخليفة يتوقع استعلان أبناء الله) رومية ٨: ١٩.

(٢) قاموس الكتاب المقدس ص ٣٤٥.

(٣) (ولكن من بدء الخليفة ذكراً أو أنثى خلقهما الله) مرقس ١٠: ٦.

(٤) موريس بوكاى: دراسة فى الكتب المقدسة ص ٤٠.

(٥) تكوين ٢: ٤ - ١٩.

يعلق جيمس فريزر على هاتين الروايتين قائلاً: "الذين يقرأون الكتاب المقدس قراءة فاحصة لا يمكن أن يغيب عنهم التناقض الصارخ بين قصتي الإنسان اللتين تقعان في كل من الإصحاحين: الأول والثاني في سفر التكوين. ففي الإصحاح الأول نقرأ كيف أن الله خلق في اليوم الخامس من بدء الخليقة السمك والطيور بل كل الكائنات التي تعيش في الماء والهواء، وكيف أنه خلق في اليوم السادس كل صنوف الحيوان التي تعيش على وجه الأرض، وأخيراً خلق الإنسان الذكر والانثى كليهما على صورته.

ثم يذكر أنه من هذه القصة نستنتج أن الله خلق صنوف الحيوان الدنيا أول الأمر ثم أعقبها بخلق الإنسان، وأن الإنسان قد انقسم إلى ذكر وأنثى ثم خلقهما في آن واحد معاً وأن كلا منهما كان يعكس بنفس الدرجة عظمة أصلهما الإلهي، هذا ما نقرؤه في الإصحاح الأول من سفر التكوين.

فإذا نحن انتقلنا إلى الإصحاح الثاني انتابتنا الحيرة على نحو ما عندما نفاجاً برواية تختلف تماماً عن هذه الرواية الخطيرة، بل إنها لتناقض معها كل التناقض إذ نفاجاً فيها بما يثير فينا الدهشة وهو أن الله خلق الإنسان أولاً، ثم خلق صنوف الحيوان الدنيا من بعده أما المرأة فقد خلقها بعد فراغه من كل هذا وشكلها من ضلع انتزعه من الرجل أثناء نومه.

وواضح أن نظام خلق الكائنات من حيث قيمتها معكوس في كلتا الحالتين^(١).

ثم يقول "هذا التناقض البين بين القصتين يفسره ببساطة أن القصتين قد استمدهما الكاتب من مصدرين مختلفين مستقلين أصلاً ثم جمع بينهما في كتاب واحد ونقلهما معاً دون أن يجهد نفسه في أن يخفف من حدة التناقض فيهما أو يوائم بينهما، فقصة الخلق في الإصحاح الأول مستمدة مما يسمونه بالمصدر الكهنوتي الذي ألفه كتاب كهنوتيون في أثناء السبي البابلي أو بعده.

(١) جيمس فريزر: الفلكور في العهد القديم (التوراة) ترجمة د/ نبيلة إبراهيم. الجزء الأول ص ٧٩، ٨٠ بتصرف شديد.

وأما قصة الخلق فى الإصحاح الثانى فمستمدة مما يسمى بالمصدر اليهودى الذى ألف قبل المصدر الكهنوتى بمئات السنين أى أنه ألف - فيما يبدو - فى القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد. والاختلاف بين وجهات النظر الدينية لدى كل من الكاتبين^(١)

يقول موريس بوكاى عن هذه الرواية الثانية :

ولنذكر بأن هذه الرواية ترجع إلى تاريخ أكثر قدمًا من الأولى بحوالى ثلاثة قرون، هى رواية قصيرة جدًا ولكنها أكثر إفاضة فيما يخص خلق الإنسان وجنة الأرض مما يخص خلق الأرض والسماء الذى تذكره بإيجاز شديد^(٢). ويقول :

"تلك هى الرواية اليهودية"^(٣) الموجودة فى نصوص كتب العهد القديم التى تملكها حاليًا، هذه الرواية التى أضيفت إليها فيما بعد الرواية الكهنوتية، هل كانت على هذا القدر من القصر؟

لا يستطيع أحد أن يقول ما إذا كان النص اليهودى قد قطع عبر الأزمنة ولا يستطيع أحد أن يقول ما إذا كانت السطور القليلة التى فى حوزتنا تمثل فعلاً كل ما كان يمكن أن يحتوى عليه أقدم نص للتوراة عن الخلق^(٤).

وعلى كل حال فإن قصة الخلق فى روايتى سفر التكوين - بجانب ما فيها من تناقض واضح - تشتمل على كثير من الأخطاء العلمية.

فالرواية الأولى على سبيل المثال تذكر أن الله خلق الليل والنهار فى اليوم الأول^(٥)، وظهر الليل والنهار بالفعل على الأرض. ثم ذكرت بعد ذلك أن الله خلق الشمس فى اليوم الرابع^(٦).

(١) المصدر السابق ص ٨١.

(٢) دراسة فى الكتب المقدسة ص ٤٥.

(٣) أى المنسوبة إلى "يهوا" أى المنسوبة للرب.

(٤) المصدر السابق ص ٤٦.

(٥) تكوين ١ : ٥-٢.

(٦) تكوين ١ : ١٤-١٩.

والثابت علمياً أن تكون الليل والنهار إنما يكون نتيجة دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس، مع أن الشمس التي تحجبها الأرض في دورانها ومنتج عنه ليل ونهار لم تكن قد خلقت بعد طبقاً لهذه الرواية، فكيف يتكون الليل والنهار قبل وجود السبب وهو الشمس؟^(١).

وفى الرواية الثانية على سبيل المثال أيضاً يأتي ذكر خلق النبات مع خلق الإنسان أو بعده^(٢) وهذا من الناحية العلمية خطأ، فالعلم يثبت أن الإنسان ظهر على الأرض حين كانت الأرض منذ زمن بعيد حاملة للنباتات وإن كنا لا نستطيع أن نقول كم من مئات ملايين السنين قد مرت بين الحدثين^(٣).

إن التناقض والأخطاء العلمية الواردة في قصة الخلق في العهد القديم تعنى أنها بهذه الصورة ليست حياً من عند الله؛ إذ لو كانت من عند الله لما وقع فيها مثل هذه الأغلاط والأخطاء.

إننا نعتقد ونؤمن بأن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى موسى عليه السلام التوراة، وفيها قصة الخلق الصحيحة الموحى بها من عند الله، لكن اليهود ضاعت منهم تلك التوراة الصحيحة في فترة السبي البابلي، فكتبوا توارثهم بأيديهم وأدخلوا فيها ما ليس منها ونسبوها إلى الله ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (سورة البقرة الآية ٧٩).

(خلق الله للإنسان آدم)

إن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، وإن خلق الإنسان كما في الإصحاح الأول من سفر التكوين داخل فيما خلق الله في اليوم السادس^(٤).

(١) راجع: مصطفى عبد اللطيف درويش: المتناقضات العلمية في أسفار العهد القديم والجديد ص ١٢، دراسة في الكتب المقدسة ص ٤١.

(٢) تكوين ٢ : ٨، ٩.

(٣) راجع: دراسة في الكتب المقدسة ص ٤٦.

(٤) راجع تكوين ١ : ٢٤ - ٣١.

ثم إن هذا الإنسان هو آدم كما فى الإصحاح الثانى من السفر نفسه (وجبل الرب الإله آدم)^(١).

يقول كلايد تارنر: "الإنسان هو الاسم الذى أطلقه الله على أسمى خلائقه وهى بالعبرية (آدم) وهذه الكلمة ليست اسماً علمياً كقايين أو هابيل^(٢) ولو أنها استعملت أحياناً كذلك كما فى سفر أخبار الأيام الأول^(٣).

وآدم كلمة عبرية ترجمت بكلمة إنسان.

وكلمة "آدم" لا تعنى "الرجل" أى للتمييز بين الذكر والانثى، فهناك كلمة أخرى للدلالة على هذا المعنى. أما "آدم" فإنها تعنى كلا الجنسين الرجل والمرأة أى أنها أطلقت لتعنى الجنس البشرى، وهذا واضح فى عبارة سفر التكوين^(٤) وقد ترددت الحقيقة ذاتها فى سفر التكوين (يوم خلق الله الإنسان على شبه الله عمله ذكراً و أنثى خلقه وباركه ودعا اسمه آدم يوم خلق)^(٥).

أما المعنى الجذرى للكلمة فهى "التراب الأحمر" وقد يدل هذا على حقيقة خلقه من تراب الأرض^(٦).

ويتضح من هذا القول أمران :-

الأول: أن "آدم" ليس علمياً على المخلوق الأول الذى خلقه الله الذى هو رأس الجنس البشرى.

الثانى: أن "آدم" لا تعنى التمييز بين الذكر والانثى.

أما الأول: فإذا لم يكن (آدم) هو اسم هذا المخلوق فما هو اسمه؟

(١) تكوين ٢ : ٧.

(٢) تكوين ٤ : ١.

(٣) أخبار الأيام الأول ١ : ١.

(٤) تكوين ١ : ٢٧،

(٥) تكوين ٥ : ١ - ٢.

(٦) كلايد تارنر: هذه عقائدنا ص ٤٦.

وإذا قال إن اسمه هو "إنسان" قلنا: إن "إنساناً" ليس علماً على شخص بعينه إنما يطلق على كل من الرجل والمرأة وإذا لم يكن إنسان هو اسم هذا المخلوق فما هو؟ ثم إن الكاتب نفسه يقول إنها استعملت علماً في الكتاب المقدس في سفر أخبار الأيام الأول: أليس هذا يعتبر تناقضاً؟

ولا مبالغة في القول إذا قلنا - إن المؤلف قال هذا القول ليقدم فكرة معينة وأصلية في العقيدة المسيحية والتي تبين أنه إذا كان المخلوق الأول أطلق عليه آدم - للدلالة على الجنس البشري كله فإن المسيح هو "آدم الثاني" كما أعلن ذلك بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس "وصار آدم الإنسان الأول نفساً حية وآدم الأخير روحاً محياً"^(١).

وكذلك في رسالته إلى أهل رومية^(٢).

يقول د/ حنا جرجس الخضرى (ولقد أعطى بولس ألقاباً أخرى للمسيح مثل آدم الأخير والإنسان الثاني)^(٣).

وهذه الفكرة يوضحها د/ فهم عزيز في تحليله لرسالة بولس إلى أهل كورنثوس فيقول:

"فالإنسان الواحد هو في آدم الخليقة الجديدة إنسان مائت ولكنه في المسيح بروح المحيى والخليقة الجديدة إنسان حى"^(٤).

أما الثانى: وهو القول بأن (آدم) لا يعنى تمييزاً بين ذكر وأنثى فالقصد من هذا القول أيضاً أن يقدم الفكرة المسيحية التي سبق أن ذكرناها لأن آدم الأول به مات الجنس البشري كله ذكراً وأنثى.

وآدم "الثانى" به حياة الخليقة كلها ذكر وأنثى.

ونلمس في الاسم "آدم" أنه يطلق على الذكور دون الإناث.

(١) - كورنثوس ١٥ : ٤٥.

(٢) رومية ٥ : ١٢ - ٢١.

(٣) د/ القس حنا جرجس الخضرى: تاريخ الفكر المسيحي المجلد الأول ص ٣٨٨.

(٤) د/ القس / فهم عزيز: المدخل إلى العهد الجديد ص ٤٤٣.

وإذا أطلق هذا الاسم علم أن المقصود به ذكر فهو لا شك فيه تمييز بينه وبين اسم "حواء" التى هى أنثى.

أما معنى اللفظ (آدم) فهو - كما يقول القس منسى يوحنا - معناه أحمر ، وقد قال يوسفوس إنه سُمى بذلك ؛ لأنه صنع من التراب الأحمر ، وقال غيره لأن جلده كان أحمر أى حسناً^(١).

ويقول آخر: إن معنى "آدم" الأحمر أو الترابى ؛ لأنه جبل من أديم الأرض من التراب الأحمر لكى يكون متواضعاً ومتذكراً للموت على الدوام ، لأنه خلق من تراب وإلى التراب يعود^(٢).

(طبيعة آدم الجسدية)

يقول كلايد تارنر:-

إن للإنسان طبيعة مزدوجة جسدية وروحية، أى أن للإنسان جسداً ونفساً، ويقول بعض علماء الكتاب المقدس / بأن للإنسان طبيعة ثلاثية تتألف من جسد ونفس وروح ففى رسالة بولس الأولى إلى أهل تسالونيكي (وإله السلام نفسه يقدسكم بالتمام ولتحفظ روحكم ونفسكم وجسدكم كاملاً بلا لوم عند مجئ ربنا يسوع)^(٣).

وفى الرسالة إلى العبرانيين "إلى معرفة النفس والروح"^(٤).

وبناء على هذا التفسير فإن كلمة "النفس" تشير إلى الإنسان ككائن حى أو كائن ذى وعى ذاتى ، بينما تدل "الروح" على أنه كائن ذو إدراك بوجود الله. وعلى أية حال فإن كلمتى "روح" و"نفس" غير مميزتين بوضوح فى الكتاب المقدس ويظهر أحياناً أنهما استعملتا مترادفين.

(١) القس / منسى يوحنا: حياة آدم ص ٧.

(٢) د / القس / إبراهيم سعيد ونخبة من علماء المسيحية: الدين المسيحى ص ٢٧.

(٣) ١ - تسالونيكي ٥ : ٢٣.

(٤) عبرانيين ٤ : ١٢.

والدكتور ١. هـ. سترونغ يقول: إن طبيعة الإنسان ليست بيتاً مؤلفاً من ثلاث طبقات بل بيت من طبقتين تحوى الطبقة العلوية منه نوافذ تطل على ناحيتين نحو الأرض ونحو السماء.

إن الوصف الوارد فى سفر التكوين يظهر لنا أن للإنسان طبيعة مزدوجة الجسد والنفس يتحدان فيؤلفان شخصية واحدة^(١).

وأن الاسم "آدم" ومعناه السابق يدل على طبيعة آدم الجسدية فهى من تراب كما جاء فى سفر التكوين "وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض"^(٢).

ويقول "علينا ألا نفكر بأن الله جمع كومة من التراب ثم مثل بها شكل إنسان ثم نفخ فيها الحياة.

ففى وصف هذا الأمر يقول دلش: "إن صنع الإنسان من التراب ونفخ نسمة الحياة فيه يجب ألا يفهمها فهماً ميكانيكياً كأنما الله بنى أولاً شكلاً آدمياً من التراب ثم نفخ نسمة الحياة فى هذه الكتلة الترابية التى صنعها على هيئة الإنسان جاعلاً منها كائناً حياً: : : بقدرة الإلهية الغلابة قام الإنسان من التراب وفى ذات اللحظة التى بها أصبح التراب بقوة الله الخلاقة الغلابة على شكل إنسان منح نسمة الحياة الإلهية وخلق كائناً حياً..... وهكذا لا يمكننا القول إن الجسد خلق قبل الروح"^(٣).

وهذا القول يكاد يكون مخالفاً لظاهر فقرات سفر التكوين التى تبين أن آدم جبل تراباً من الأرض، ونفخ الرب فى أنفه، أى أنه كان مكوناً جسدياً حتى إن أعضائه كانت قد تكونت فيه، فنفخ الرب فى أنفه التى هى أحد أعضاء جسم الإنسان قصار آدم بعد النفخ فى أنفه نفساً حية (ونفخ فى أنفه نسمة حياة فصار آدم نفساً حية)^(٤).

(١) كلاير تارنر: هذه عقائدنا ص ٤٩ - ٥٠.

(٢) تكوين ٢ : ٧.

(٣) المصدر السابق ص ٤٨.

(٤) تكوين ٢ : ٧.

وهذه الفقرة لا تحتاج إلى تعليق لأنها واضحة المخالفة لقول المؤلف المسيحى السابق وإن كان الواضح من الفقرة التى أوردناها من سفر التكوين أن آدم خلق جسدياً مرة واحدة بدون أطوار من تراب فطين فصلصال فحماً مسنون.

أما اختصاص الأنف بالنفخ فإن الأستاذ/ عصام الدين حفى يبين لنا أن البدائى كان يظن أن موطن الروح هو الرأس أو الأنف. وأن يكون مخرجها عند الموت من الأنف والفم فى أثناء التنفس. وأن يكون مدخلها منهما إلى الجسم لذلك كانت العرب تقول: مات فلان "حتف أنفه" أو "حتف فيه" أى مات على فراشه من غير قتل ولا ضرب. وأن القول بأن مدخل الروح هو الأنف أو الفم - كما يقول الباحث السابق - شبيه بما حدث للرجل الطينى (ونفخ فى أنفه نسمة حياة فصار آدم نفساً حية)، وبما حدث فى الطوفان "كل ما فى أنفه نسمة روح حياة من كل ما فى اليابسة مات" (١)، (٢).

أما حواء التى هى أم كل حى فإن طبيعتها الجسدية - كما يذكر المسيحيون - أنها جزء من آدم وضلع من أضلاعه يقول سفر التكوين: "فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام فأخذ واحدة من أضلاعه وملاً مكانها لحماً وبني الرب الإله الضلع التى أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم فقال آدم هذه الآن عظم من عظامى ولحم من لحمى هذه تدعى امرأة لأنها من امرئ أخذت" (٣).

(طبيعة آدم الروحية)

لقد انفرد الإنسان عن باقى المخلوقات بأن خلقه الله على صورته "وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى الأرض وعلى جميع الدبابات التى تدب على الأرض فخلق الله الإنسان على صورته على صورة الله خلقه ذكراً وأنثى خلقهم" (٤).

(١) تكوين ٧: ١٢.

(٢) عصام الدين حفى ناصف: اليهودية فى العقيدة والتاريخ ص ١١، ١٢.

(٣) تكوين ٧: ٢٢، ٢٣.

(٤) تكوين ١: ٢٦، ٢٧.

يقول المسيحيون:

وهنا نلاحظ:

١ - أن كلمة "نعمل" بالجمع تشير إلى الأقانيم الثلاثة.

٢ - أن عبارة "على صورتنا كشبهنا" لا يقصد بها الصورة الجسدية لأن الله روح، بل الصورة الروحية والنفسية، فلإنسان روح خالدة لا تفنى، وعقل يدرك الخير والشر، وشعور حسى، وإرادة حرة تقدر على اختيار البر والقداسة، وفي هذا يمتاز الإنسان على سائر الخلائق^(١).

أما القول بأن "نعمل" على صيغة الجمع تشير إلى الأقانيم الثلاثة فإن ذلك على أساس أن الأقانيم الثلاثة مشتركة في عملية الخلق، والاستدلال بلفظ "نعمل" على أساس أنها تدل على الجمع.

ونحن نقول إنها لا تدل على الجمع إذ المعروف لغوياً أن النون في الفعل المضارع في مثل هذا الموضع للمتكلم العظيم^(٢).

إذ لا دلالة على الجمع هنا، لأن الفقرات السابقة على هذا القول، والفقرات التي جاءت بعد هذا القول التي تشير إلى عملية الخلقية، تدل بوضوح على أن الخلق من فعل الله وحده.

(خلق الإنسان^(٣) على صورة الله وشبهه)

اختلفت الكنائس حول قول الله - حسب رواية سفر التكوين - (نعمل الإنسان كصورتنا وشبهنا)

(١) د/ القس/ إبراهيم سعيد ونخبة من اللاهوتيين: الدين المسيحي للمرحلة الثانوية سنة ١٩٦١ ص ٢٧.

(٢) يقول العلامة علاء الدين الباجي: كيف يحسن أن يقال: وقال الله لنصنع إنساناً كصورتنا وشبهنا فإن قوله "لنصنع صيغه أمر متوجهة نحو الأمر المتكلم لأن النون في الفعل المضارع في مثل هذا الموضع للمتكلم العظيم" (على التوراة ص ٢٥).

(٣) يقول اسبيروجور: إن "آباء الكنيسة لا يفرقون بين الرجل والمرأة في الخلق على صورة الله ومثاله ويعتبرون الرجل أقتوما والمرأة أقتوماً ويكرمون طبيعتهما بالتساوى ففضائلهما متساوية ومكافأتهما متعادلة وكذلك دينوثهما، وليست المرأة بضعيفة إذ أن الضعف من فعل الجسد" سر التدبير الإلهي (التجسد) ص ٧٨.

هل المراد بهما لفظ واحد فمعناها واحد أما أنهما لفظان لكل منهما معنى خاصاً به؟ فالكنيسة الإنجيلية^(١) تقول بأن المراد بلفظتى صورتنا وشبهنا هو واحد، والكنيسة البابوية^(٢) تقول لا بل المراد باللفظة الواحدة غير المراد بالأخرى، وأن المراد بصورة الله كون الإنسان عاقلاً مختاراً. وبشبه الله ما ناله من موهبة القداسة الأصلية.

وبنت على هذا التمييز تعليمها أن البر الأصلى وهب للإنسان بعد خلقه على صورة الله.

فالكنيسة الإنجيلية تعتقد أن صورة الله التى خلق عليها الإنسان أصلاً تشمل البر والقداسة.

(١) أى الكنيسة البروتستانتية وتسمى بالإنجيلية، لأنها نادت بأن الكتاب المقدس هو القانون الوحيد المعصوم الموصى به من عند الله وأنه يحتوى على الإعلان النهائى فعلاً دون توقع لوحى آخر أو إعلان جديد، ولأجل ذلك فإنها رفضت أية محاولة لأية إضافة على هذا الكتاب (القس صموئيل مشرفى: المسيحية بين الكتاب المقدس والتقليد ص ٢٦، وقصد بهذه التسمية إلى أن أتباع هذه الكنيسة يتبعون الإنجيل دون غيره ويفهمونه بأنفسهم ولا يخضعون لفهم سواهم له، ولا تختص بفهم طائفة دون أخرى، فلكل قادر الحق فى فهمه، وجميعهم متساوون ومستولون أمام هذا الكتاب، وبهذا الاتجاه يعارضون الكنائس الأخرى التى تعتبر فهم الإنجيل وفقاً على رجال الكنيسة والتى لا تعتبر الإنجيل هو المصدر الوحيد للديانة المسيحية بل تضيف إليه الإلهام والتعاليم غير المكتوبة التى يتناقلها البابوات واحداً عن الآخر. د/ أحمد شلبى: المسيحية ص ٢٤٠. ولقد ظهرت "البروتستانتية" عندما تمت سلطة الإكليروس فى تربة الجهل، ووصلت إلى حد ظهور صكوك الغفران وبيعها، الأمر الذى جعل المؤرخين يطلقون وصف "العصور المظلمة" على العصور الوسطى التى دخلتها الكنيسة وتدهورت حالتها فيها، كما يصفون قيام "لوثر" مع مجموعة رفاقه من المصلحين ببدء "عصر الإصلاح" ويحمل الاسم الظاهرى للبروتستانتية معنى (الاحتجاج) ولكن عند تحليل اللفظة نفسها نجد معنى الشهادة لأجل.

القس صموئيل مشرفى: "المسيحية بين الكتاب المقدس والتقليد ص ٨.

(٢) والكنيسة البابوية هى الكنيسة الكاثوليكية وتسمى بالباباوية، لأنها تتبع النظام البابوى ويرأسه البابا والكرادلة وهم أصحاب الحق الأول والأخير فى تنظيم الكنيسة، إذ يتكون منهم المجمع الكنائسى الذى يصدر إرادات بابوية سامية هى إرادات إلهية - حسب اعتقادهم - لأن البابا هو تلميذ المسيح الأكبر على الأرض فهو مثل الله ومن هنا كانت إرادته لا تقبل الجدل والمناقشة (محمد فؤاد الهاشمى: الأديان فى كفة الميزان ص ٤٤.

وتسمى بالكاثوليكية - أى العامة -، لأنها تدعى أم الكنائس ومعلمتها، ولأنها وحدها التى تنشر المسيحية فى العالم. وسميت بالكنيسة الغربية أو اللاتينية لإمتداد نفوذها إلى الغرب اللاتينى خاصة إلى بلاد إيطاليا وبلجيكا وفرنسا وأسبانيا والبرتغال وإن كان لها أتباع فيما عدا ذلك من البلدان، وسميت الكنيسة البطرسية أو الرسولية لأن أتباعها يدعون أن مؤسسها الأول هو بطرس الرسول كبير الخواريين ورئيسهم والبابوات فى روما خلفاؤه. المسيحية د/ أحمد شلبى ص ٢٣٧.

والكنيسة البابوية تنكر ذلك وتقول بأن البر والقداسة وشح الله بهما الإنسان بعد خلقه إياه على صورته تعالى^(١).

أما الكنيسة الأرثوذكسية^(٢) فإنها لا خلاف بينها وبين الكنيسة الكاثوليكية في المعنى الخاص بصورة الله وشبهه.

ففي كتاب الخلاصة الشهية في أخص العقائد الأرثوذكسية يقول المؤلف: بعد أن خلق الله العالم أجمع خلق الإنسان أخيراً على صورته ومثاله وأعطاه نفساً غير جسمانية وغير مائة وجعله شريكاً في صلاحه الإلهي. وأما صورة الله فتوجد في ذات طبيعة نفسنا وهي تقوم بالنطق والحرية وبالقوى الروحية الموجودة في الله تعالى نفسه غير أن الإنسان بحسب كونه محدوداً توجد فيه هذه القوى على قدر محدود، فكما أن الله مثلاً هو روح عاقل مطلقاً وبنوع غير محدود كذلك قد زين الإنسان بعقل محدود على نسبة حاله، وكما أن الله طبعاً يختار الخير ويمقت الشر كذلك قد غرس في الإنسان نزعة غريزية شديدة إلى الرغبة في الخير ومقت الشر.

كما أن المولى سبحانه هو المولى الأعظم أو السيد الأعلى لجميع البرايا كذلك قد جعل الإنسان أيضاً سيّداً على كل ما في الأرض، وقس على ذلك باقي القوى الروحية على أنه لما كان الله عز وجل غير جسماني لم يكن في الإمكان أن يشترك

(١) علم اللاهوت النظامي ص ١٦١.

(٢) كانت الكنيسة القديمة إلى أوائل القرن الرابع الميلادي كنيسة واحدة تحمل اسم كنيسة الله ولا تحمل اسماً آخر سواه، ولكن بعد أن أضحت المسيحية دين الدولة الرسمي في عهد قسطنطين بعد عصر الاضطهاد بدأ التحالف بينها وبين الدولة، وحين ظهرت الخلافات العقائدية وخشية أن تؤثر هذه الخلافات في وحدة الدولة قام الإمبراطور قسطنطين وخلفاؤه من بعده بدعوة أساقفة الكنيسة إلى مجمع مسكونية لمناقشة الأمور التي كانت موضع الخلاف، ظهرت حينئذ لفظة الأرثوذكسية وهي تعني "استقامة الرأي" للتعبير عن كل من وقف عند حدود ما أقرته تلك المجمع العامة وتميزهم عن أتباع الهرطقة الخارجين على قوانين إيمانها، وظهرت الكاثوليكية فيما بعد وهي لفظة تعني (الجامعة) بسبب الخلاف الذي تفاقم حول عبارات جلدية في العقيدة أثناء مجتمها في المجمع المسكونية، وقد بدأ هذا الخلاف بالآكثر في مجمع خليكيدونية المنعقد في سنة ٤٥١ م بالجلد الذي ثار حول موضوع "الطبيعتين والمشيئين في السيد المسيح" ١. ه القس / صموئيل مشرقى: المسيحية بين الكتاب المقدس والتقليد ص ٧ ولعل القس متعاطف جداً حين قال (حول عبارات جلدية في العقيدة) إنما هي اختلافات كبيرة بين الطبيعة الواحد والطبيعتين والمشيئة الواحدة والمشيئين.

جسدنا فى صورته، وتشمل صورة الله عموم الجنسيتين^(١) أى الرجال والنساء كما يتضح ذلك من الكتاب المقدس^(٢).

وأما مثال الله فيعبر به بحسب تعليم آباء الكنيسة عن تقوية وترقية القوى الروحية التى أخذها من الله وذلك يصير بواسطة الفضيلة والقداسة^(٣). فالكاثوليك والأرثوذكس يتفقون فى أن لكل من (صورة الله وشبهه) معنى خاصاً به. أما الكنيسة الإنجيلية فتعتبر الصورة والشبه بمعنى واحد. يقول القس إلياس مقار: "وإذا كان الإنسان قد انفرد فى الخليقة عن سائر المخلوقات فإنه قد اقترب إلى الخالق وصنع على صورته وشبهه والسؤال القائم ولا شك هو: كيف يمكن أن يكون الإنسان على صورة الله وشبهه، وإذا كان من المتفق عليه أن الصورة والشبه يفيدان معنى واحداً، وإذا كانت كلمة (الشبه) تعتبر تأكيداً وتخصيصاً للصورة؛ إذ تعبر عن التماثل القوى الكائن بين الأصل والصورة، إلا أن الخلاف قام على نوع التماثل القائم بين الإنسان والله، وقد اتفق الجميع على استبعاد التماثل فى الجانب المادى إذ أن الله منزّه عن اللحم والدم وهذا أمر بديهى ولا شك لا يمكن أن يثور معه نزاع"^(٤). ثم يقول:

والرأى المسلم به أن التماثل قائم أولاً بين الإنسان كشخص وبين الله كشخص. وأن الإنسان له مقومات الشخصية الثلاثية: الفكر، الشعور، الإرادة. مع هذا الفارق الحاسم أن الله له هذه المقومات فى كمالها اللانهائى. بينما يحوزها الإنسان فى المعنى الجزئى المحدود.

ويكفى الإنسان مجداً أن يكون على صورة الله وشبهه فى هذه كلها مهما يكن الفرق بينهما كالفرق بين شعاة النور والشمس الكاملة^(٥).

(١) يشير بذلك إلى ما جاء فى تكوين ١ : ٢٧ (صنع الله الإنسان على صورة الله ذكراً وأنثى).

(٢) أفلاطون مطران موسكو: الخلاصة الشهية فى آخص العقائد والتعاليم الأرثوذكسية ترجمة الخورى يوحنا خربون ص ٣٦، ٣٧.

(٣) المرجع السابق ص ٣٧.

(٤) القس إلياس مقار: قضايا المسيحية الكبرى ص ٣٥٩.

(٥) المرجع السابق ص ٣٦٤، رجال الكتاب المقدس للمؤلف السابق ص ٩، ١٠.

ويقول كلايد تارنر: "لا يظهر أن هناك فرقاً واضحاً بين "صورة" و"مثال" فالإنسان مخلوق على شبه الله. فكيف صنع الإنسان على شبه أو مثال الله؟ هذا بالتأكيد لا يعنى أنها مشابهة جسدية لأن الله روح بلا شكل جسدى فالمشابهة إذن فى طبيعته الروحية"^(١).

وقبل أن نشرح المعنى العام لقولهم إن الإنسان مخلوق على صورة^(٢) الله لنا على ما سبق من أقوال بعض التعليقات.

لا شك أن الإنسان أفضل مخلوقات الله ، ولقد ميزه الله سبحانه وتعالى عن باقى المخلوقات بمميزات لا تتوافر فى المخلوقات الأخرى ، وذلك يرجع إلى أن الإنسان هو خليفة الله فى الأرض ، وهو الذى حمل لواء التكليف ومهما كانت قيمة وقدرة هذه المميزات فإنها لا ترفعه إلى أن يكون إلهاً أو كإله فאלله سبحانه منزه أن يكون له صورة أو شبه.

يقول العلامة: الباجى: كيف يحسن أن يقال "كصورتنا وشبهنا" مع أن الله سبحانه وتعالى منزه عن الصورة بل هو خالق الصور كلها، والخالق مغاير للمخلوق ومستغن عنه؟ فإن قيل: المراد خلق الإنسان له قدرة على الخير والشر وإرادة.

قلت: هذا إن سلم فلفظ الصورة لا يدل عليه ، لأن لفظ الصورة مدلوله الهيئة والشكل كما يقال فلان صورته حسنة ، والصورة فى الحائط مليحة ، واللفظ الدال على هذا أن يقال: صفاته صفاتنا ، فلم عدل عن "اللفظ الحسن الدال على المعنى المراد من غير إيهام للباطل إلى ما يوهمه"^(٣).

على أنه إن سلم بأن الإنسان مخلوق على صورة الله على أساس (إن صورة الله عز وجل هى صورة كاملة من الصفات الحسنى فى مثلها الأعلى رحمة وكرم وعلم

(١) هذه عقائدنا ص ٥٠.

(٢) ونحب أن ننبه أن الحديث النبوى الذى رواه الإمام مسلم (أن الله خلق آدم على صورته) يختلف كل الاختلاف عن اعتقاد النصارى ذلك أنهم يعتقدون أن آدم على صورة الله ولكن الحديث يعنى أن الله خلق آدم على صورته (والضمير يعود على آدم لا على الله تعالى).

(٣) الباجى: على التوراة ص ٢٥ - ٢٦.

وعمل ومشیئة ومجد وعظمة وفتح وإبداع وإنشاء وكل صفة من هذه الصفات مطلوبة من الإنسان على غاية ما يستطيع لا يرتقى ذلك المرتقى الذى لا يدرك بالإبصار ولا بالعقول ولكنه يرتقى قادراً على الارتقاء من التراب إلى السماء أوجاً فوق أوج فى طريق عسر طويل هو طريق النهوض بأمانة التكليف. مخلوق تهبط به أمانة التكليف إلى أسفل سافلين وترتفع إلى أعلى عليين^(١).

إنه إن سلم ذلك فإن كلمة (كشبهنا) تنقض هذا المعنى لذلك يقول ابن حزم: -
 "لو لم يقل إلا" كصورتنا" لكان له وجه حسن ومعنى صحيح وهو أن نضيف الصورة إلى الله تعالى إضافة الملك والخلق، كما تقول هذا عمل الله وتقول للقرء وللقيح والحسن هذه صورة الله، أى تصوير الله والصفة التى انفرد بملكها وخلقها، لكن قوله (كشبهنا) منع التأويلات وسد المخارج وقطع السبل وأوجب شبه آدم لله عز وجل ولا بد ضرورة، وهذا يعلم بطلانه ببديهة العقل، إذ الشبه والمثل معناهما واحد، وحاشا لله أن يكون له مثل أو شبه"^(٢).



أما إذا كان المراد بصورة الله هو المسيح كما يقول المسيحيون فغير مسلم على المعنى الذى أراده المسيحيون.

يقول المسيحيون "إن المسيح هو صورة الله الحقيقية"^(٣).

وبولس يخبرنا أن آدم الأول هو "مثال الآتى"^(٤) لذلك يسمى المسيح "آدم الأخير"^(٥) كما أنه أخبر فى رسالته إلى أهل أفسس^(٦) أن المرأة رمز الكنيسة التى سيحضرها المسيح لنفسه بلا عيب ولا لوم، فأدم إذن - كما يقولون - رمز المسيح صورة الله والمرأة رمز الكنيسة وهى على صورة الله^(٧).

(١) العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ٩٤.

(٢) ابن حزم: الفصل فى الملل والنحل ج ١ ص ١١٧، ١١٨.

(٣) ف. وجرت: سفر التكوين فى ضوء العهد الجديد ص ٣١.

(٤) رومية ٥: ١٤.

(٥) ١ - كورنثوس ١٥: ٤٥.

(٦) أفسس ٥: ٢٥ - ٣٢.

(٧) المصدر السابق ص ٤٣.

ويرد على ذلك الباجي فيقول: "ولئن قيل: المراد صورته سبحانه التي يظهر فيها عندما يحل في بدن عيسى - عليه السلام - كما يزعمون، أى صورة عيسى، قلت: هذا ممنوع، وإن سلم على معتقدهم لكان حاصله: قدرته سبحانه على حلوله في زمن مستقبل في صورة من الصور، وقدرته سبحانه على هذا التقدير ليست مخصوصة بحلوله في بدن عيسى عليه السلام - وحده، بل هو سبحانه قادر على حلوله في كل صورة، وظهوره في كل مظهر، وأن كنا ننزهه عن ذلك.

فإن كانت قدرته على حلوله في صورة عيسى - عليه السلام - موجبة لجعل صورة عيسى صورة له سبحانه لزم جعل جميع الصور صورة له سبحانه لعموم القدرة - كما بينا - فيفوتهم المعنى المقصود.

وأيضاً: فإنه على مقتضى معتقدهم لا يمكن أن يقال: إن صورة عيسى صورة متأصلة لله سبحانه حتى يتفرع على ذلك: أن يخلق آدم على صورتها^(١) فلا اختصاص للمسيح بما ذكر على كل تقدير حق وباطل، بأى تفسير فسر قوله (سنخلق بشراً على صورتنا وشبهنا) لم يخص ذلك المسيح^(٢).

"والقول بكون المسيح هو صورة الله يعنى أن المسيح هو غير الله سبحانه وتعالى لأن كون الشيء على صورة شيء لا يقتضى أنه هو، بل بالعكس يفيد أنه غيره، فمثلاً صورة الآلهة المعبودة من دون الله هى بالقطع ليست عين الإله المعبود، بناء على هذا المثل فإن القول بأن المسيح (هو صورة الله) يفيد بلا شك أنه غيره لآعينه"^(٣).



أما استدلالهم بهذه الفقرة من سفر التكوين على الثالث في المسيحية بمعنى أن التماثل بين الله والإنسان من ناحية ثلاثية الأقسام والإنسان فهو غير صحيح ويظهر ذلك من قول القس إلياس مقار السابق الذى يذكر فيه أن البعض فسر هذا التماثل بين الله والإنسان من ناحية أن الإنسان له نفس وروح وجسد وهى تشبه الثلاثة أقانيم: الآب، والابن، والروح القدس. والثلاثة تكون شخصاً واحداً.

(١) الباجي: على التوراة ص ٢٦.

(٢) ابن تيمية: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ج ٢ ص ٢٣١.

(٣) بحث للمستشار عزت الطهطاوى فى مجلة الوعي الإسلامى العدد ٢٢٤ شعبان سنة ١٤٠٣ ص ٣٣.

وبين أن الكثيرين أبوا أن يسلموا بهذا التشبيه، لقصوره شكلاً وموضوعاً عن تعيين التماثل بين الإنسان والله، إذ أن النفس والروح والجسد ليست فى ذات المساواة القائمة بين الآب والابن والروح القدس فى الجوهر الإلهى العظيم، كما أن العلاقة القائمة بينهما جميعاً تقوم على التدرج فالجسد أدنى الجميع وفى خدمة الجميع وفى خدمة الكل، والروح أعلاها مما يتمتع معه التشبيه من هذا القبيل...

يضاف إلى ذلك أن الكثيرين لا يسلمون على الإطلاق بأن الإنسان ثلاثى الطبيعة يقوم على ثلاثة عناصر هى النفس والروح والجسد، بل هو ثنائى يقوم على اثنين لا ثالث لهما هما الجسد والروح، وأنه إذا كان قد جاء فى الكتاب ألفاظ مختلفة عن النفس والروح فإن الاثنين يفيدان معنى واحد^(١).

وكفانا المؤلف المسيحى بهذا ردّاً على من يقول بأن التماثل قائم بين الله والإنسان على أساس أن الإنسان له نفس وروح وجسد ويجعل من هذا دليلاً على القول بالثلاث من العهد القديم.

ثم بعد ذلك نجد أن هذا القس يجعل التماثل الثلاثى بينهما من نوع آخر فيقول: الرأى المسلم به أن التماثل قائم أولاً بين الإنسان كشخص وبين الله كشخص، وأن الإنسان له مقومات الشخصية الثلاثية الفكر والشعور والإرادة^(٢).

وتعقيبنا على مثل هذا القول يتلخص فى :-

أولاً: جاء فى قاموس الكتاب المقدس الذى أسهم فى تأليفه سبع وعشرون باحثاً مسيحياً متخصصاً - تحت لفظ تثليث (والكلمة نفسها "التثليث" أو "الثالوث" لم ترد فى الكتاب المقدس، ويظن أن أول من صاغها واخترعها واستعملها هو "ترتليان" فى القرن الثانى للميلاد، ثم ظهر سبيلوس ببدعته فى منتصف القرن الثالث وحاول أن يفسر العقيدة بالقول "إن التثليث ليس أمراً حقيقياً لكنه مجرد إعلان خارجى فهو حادث مؤقت وليس أبدياً" ثم ظهرت بدعة "أريوس" الذى نادى بأن الآب وحده هو الأزلى بينما الابن والروح القدس مخلوقان متميزان عن سائر الخليفة، وأخيراً ظهر

(١) القس إلياس مقار: قضايا المسيحية الكبرى ص ٣٥٩ بتصرف شديد.

(٢) المصدر السابق ص ٣٦٣.

اثنا سيوس داحضاً هذه النظريات وواضعاً أساس العقيدة السليمة التي قبلها واعتمدها مجمع نيقية في سنة ٣٢٥م^(١).

وواضح من النص السابق أن لفظ "الثالوث" لم يرد في الكتاب المقدس ولم يظهر هذا اللفظ إلا بعد عصر المسيح والحواريين، ويظهر أيضاً من النص: أن التثليث من اختراع أفراد واجتهادات فردية تمت الموافقة عليها في مجمع نيقية الذي لم يسلم من النقد بينما رفضت الأفكار السائدة بتنزيه الله.

والسؤال الآن: كيف تكون عقيدة أساسية ثم لم تذكر في كتابهم المقدس؟ كيف تكون عقيدة أساسية ثم لم يذكرها عيسى ولا الحواريون؟ ولا تكفي الإشارات ولا تغني التلميحات لأنها من أسس الديانة. وكيف تؤسس ديانة على إشارات وتلميحات؟

على أن هذه الإشارات وتلك التلميحات لا تسلم من النقد العلمي من جهة أن هناك تصريحاً بالتوحيد الذي يناقض الإشارات إلى التثليث.

وهنا نقول: لماذا قبلت هذه العقيدة دون غيرها في مجمع نيقية وليس لها دليل من الكتاب المقدس إلا الإشارات مع أن عقيدة الوحدانية نصوصها صريحة في الكتاب المقدس.

فالله واحد ودلائل ذلك كثيرة منها على سبيل المثال: (اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد)^(٢).

(الرب هو الإله ليس آخر سواه)^(٣).

وقال داود عليه السلام "يا رب ليس مثلك ولا إله غيرك حسب كل ما سمعناه"^(٤).

وقال إشعياء "أنت هو الإله وحدك لكل ممالك الأرض"^(٥).

(١) قاموس الكتاب المقدس ص ٢٣٢، ص ٢٣٣.

(٢) تثنية ٦ : ٤.

(٣) تثنية ٤ : ٣٥.

(٤) أخبار الأيام الأول ١٧ : ٢٠.

(٥) إشعياء ٣٧ : ١٦.

وقال نحميا: "أنت هو الرب وحدك" (١)

الرب سبحانه لا يرى ولا يقدر أن يراه أحد:

ففى كتبهم أن موسى طلب من الله أن يراه قال موسى لله (أرنى مجدك).

فقال الله (لا تقدر أن ترى وجهى لأن الإنسان لا يرانى ويعيش) (٢).

وأكد ذلك سفر إشعيا (حقاً أنت الله محتجب يا إله إسرائيل) (٣).

والله ليس كمثله شئ:

ففى سفر التثنية "ليس مثل الله" (٤).

وفى سفر الأخبار "أيها الرب إله إسرائيل لا إله مثلك فى السماء والأرض" (٥).

إلى غير ذلك من الفقرات البيّنات الواضحات التى لا تحتل التأويل ولا التلويح

ثانياً: قوله "إن التماثل قائم أولاً بين الإنسان كشخص، وبين الله كشخص، وأن الإنسان له مقومات الشخصية الثلاثية: الفكر، والإرادة، والشعور" هذا التماثل غير صحيح من وجوه عدة:

فمن ناحية لا يليق بالعظمة الإلهية أن يطلق عليه لفظ "شخص"

إذ أن الشخص: كل جسم له ارتفاع وظهور - وغلب فى الإنسان (٦)، والله سبحانه وتعالى منزّه عن أن يكون جسماً.

وعند الفلاسفة يطلق على الله لفظ "الذات" (٧).

ومن ناحية أخرى فإن منطقة قياس ثلاثية الإنسان على الثالوث الإلهى غير

صحيح.

(١) نحميا ٩: ٦.

(٢) خروج ٣٣: ١٧ - ٢٠.

(٣) إشعيا ٤٥: ١٥.

(٤) تثنية ٣٣: ٢٦.

(٥) أخبار الأيام الثانى ٦: ١٤.

(٦) المعجم الوسيط ج ١ ص ٤٧٥.

(٧) المعجم الفلسفى (مجمع اللغة العربية) ص ١٠١.

ولذلك نجد الباحث المسيحي الذي أسلم - محمد مرجان - يرد على مثل هذا القياس فيذكر أن دعاة الثالوث ينظرون إلى الله العظيم الذي ليس كمثلته شيء والمنزه عن مشابه الكائنات فيمثلونه بأحد مخلوقاته الضعيفة وهو الإنسان. إن الله في نظر فلاسفة المسيحية له كيان قائم بذاته كالإنسان تماماً والله ناطق بكلمته كالإنسان، وكذلك هو حي بروحه كالإنسان ومن هذه الأقانيم، أو العناصر الثلاثة يتكون الله كما يتكون الإنسان تماماً (الذات - النطق - الروح) ^(١).

ومع ذلك فإن الباحث المتأمل يلاحظ أن فلاسفة المسيحية قد أعطوا للإنسان صفات ضنوا بها على الله، فالإنسان به عناصر وأجزاء أخرى كثيرة لا تقل أهمية عن العناصر الثلاثة السابقة، هذا إذا لم تكن تفوقها أهمية، منها مثلاً أن الإنسان مبصر بعينه، سميع بأذنيه، رحيم بقلبه، مفكر بعقله، مشير بيده، وهكذا نستطرد في ذكر العناصر والأجزاء التي يتكون منها الإنسان المخلوق فنجد أنها قد تفوق فيها على خالقه ^(٢) لذلك نجد المؤلف المسيحي (كلايد تارنر) يقول:

يقترح الدكتور ملنز ثمانية أشياء تظهر كون الإنسان مخلوقاً على صورة الله: له طبيعة مفكرة، وطبيعة أدبية، وطبيعة عاطفية، وإرادة، وكيان حر، وميل إلى البر، وتسلط على الخلائق الدنيا، وخلود ^(٣).

فلو قصرنا التشابه بين الله والإنسان على الثلاثة التي ذكرها القس إلياس مقار - ليؤخذ عليه: أن الإنسان موصوف بصفات لم يتصف بها الثالوث المسيحي، والله سبحانه منزّه عن الشبيه فضلاً عن أنه هو الخالق والإنسان هو المخلوق، وفرق كبير بين الخالق والمخلوق.

على أنه إذا اعتبر أن هذه الصفات الثلاث شبيهة بالأقانيم الثلاثة أي أن كل أقنوم خاص بصفة أو شبيه بصفة من الصفات الثلاث، لأخذ عليهم "أنهم قد قسموا الله إلى ثلاثة أقسام منحوا كل قسم صفة من الصفات منعوها عن القسم الآخر، في

(١) أو الفكر - والإرادة - والشعور - كما في قول القس إلياس مقار.

(٢) محمد مجدى مرجان: الله واحد أم ثالوث ص ١٤.

(٣) كلايد تارنر: هذه عقائدنا ص ٥٠.

حين أن تلك العناصر والصفات تجتمع كلها فى الإنسان الواحد ولا تجتمع فى الله^(١) وعلى ذلك فإنه لا يفهم من الفقرة التى تقول (نعمل الإنسان كصورتنا وشبهنا) إلا أن الإنسان أرقى مخلوقات الله، لأن الله نفخ فيه من روحه ومنحه السيطرة على الخلائق الأخرى.

ثالثاً: إن الاستدلال بالفقرة السابقة - من كلام القس إلياس مقار - على التشابه الثلاثى بين الله والإنسان من ناحية التعدد الثلاثى: الفكر والإرادة والشعور فى الإنسان. والآب، والابن، والروح القدس فى الإله. استدلال خطأ من ناحية أن الفكر والإرادة والشعور تكون ذاتا واحدة ومنها جميعاً يكون إنسان فلا يطلق على الفكر وحده إنسان ولا يطلق على الإرادة وحدها إنسان، ولا يطلق على الشعور وحده إنسان وإنما يطلق عليها مجتمعة إنسان. فليست كل واحدة من هذه الصفات ذاتا وإنساناً. بينما يطلق على الآب ذات وإله، فيقال (الله الآب) وكذلك على الابن فيقال (الله الابن) (والله الروح القدس) فيطلق على كل واحد منهم أنه أقنوم وإله وكل منهم ذات قائمة بنفسها، بينما الشعور - والفكر والإرادة ليسوا بذوات قائمة بنفسها فالقياس خاطئ كل الخطأ.

(مسكن آدم بعد خلقه قبل المعصية)

يذكر المسيحيون أن الله سبحانه وتعالى بعد أن خلق آدم فى حالته الجسدية والروحية وضعه فى جنة عدن (وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض ونفخ فى أنفه نسمة حياة فصار آدم نفساً حية وغرس الرب الإله جنة فى عدن شرقاً ووضع هناك آدم الذى جبله)^(٢).

وتحت لفظ "جنة" جاء فى قاموس الكتاب المقدس:

الفردوس الأصلى الذى رتبته الله للإنسان قبل سقوطه^(٣) ووضع فى وسطه شجرة الحياة، وأطلقت الكلمة على كل بستان فى قصور الملوك^(٤).

(١) الله واحد أم ثالوث ص ١٥.

(٢) تكوين ٢: ٧ - ٨.

(٣) تكوين ٢: ١٠ (وكان نهر يخرج من عدن ليسقى الجنة).

(٤) قاموس الكتاب المقدس ص ٢٧٥.

وتحت لفظ (عدن) جاء :-

"عدن: اسم عبري معناه (بهجة) حيث غرس الله في الأرض شجراً شهياً للنظر وجيداً للأكل، وعمل حديقة سميت بجنة عدن من أجل آدم ليسكن فيها قبل الخطية، وكان يسقيها نهر يشق مجراه لنفسه في عدن، ويتفرع إلى أربعة رؤوس: فيشون، وجيحون، وحد اقل، والفرات"^(١).

أما موقع جنة عدن - في نظرهم - فلا يزال غير مجمع عليه حالياً كما قال غالبية الجغرافيين واللاهوتيين، وبعض منهم يعتبرون أرمينيا أنها عدن، لأن الفرات والدجلة ينبعان في أرمينيا، وهناك من يرى أن نهر عدن الذي تفرع إلى رؤوس ما هو إلا نهر الفرات - دجلة الذي يصب في شط العرب (في الخليج الفارسي) منقسماً على نفسه إلى عدة فروع، فجنة عدن بحسب رأيهم هي القسم الجنوبي من العراق حيث الخصب، ويعتقدون أنه أقرب الأمكنة إلى الصواب لأن فيه الصفات التي وردت في الكتاب المقدس لعدن: شرق فلسطين فيه دجلة والفرات، وكوش التي بقربها هي عيلام المعروفة قديماً باسم كاشو، كما أن سهل بابل كان معروفاً منذ القدم باسم عدنو، وموقع الحويلة هي جزء من جزيرة العرب الذي يجاور العراق إلى الجانب الغربي منه^(٢). وهي - أي جنة عدن، كما في سفر التكوين - من غرس الله ذاته^(٣) ويدل هذا على أن جنة عدن واقعة الغرس فعلاً لآدم، بينما هناك رأى آخر لبعض طلاب الكتاب المقدس بأن القصة رمزية ترمز إلى وقائع معينة.

يقول كلايد تارنر: ينظر بعض طلاب الكتاب المقدس إلى قصة الخليفة بكاملها نظرتهم إلى قصة رمزية، فالجنة بالنسبة لهم شيء رمزي ترمي إلى بعض الحقائق الخاصة.

(١) وكان نهر يخرج من عدن ليسقى الجنة. ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس. اسم الواحد فيشون، وهو المحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب، وذهب تلك الأرض جيد. هناك المقل وحجر الجزع، واسم النهر الثاني جيحون وهو المحيط بجميع أرض كوش، واسم النهر الثالث حد اقل، وهو الجاري شرقي آشور، والنهر الرابع الفرات. تكوين ٢: ١٠ - ١٤.

(٢) قاموس الكتاب المقدس ص ٦١٣، ٦١٤.

(٣) تكوين ٢: ٨.

ولكن القصة كما يرويها الكتاب المقدس تمثل حقائق واقعة. كانت الجنة واقعة حتماً فى عدن شرقاً. إن لفظتى عدن و"الجنة" ليستا لفظتين مترادفتين "فعدن" ومعناها "السرور" هى البلاد التى جعلت فيها الجنة، أما أين تقع تلك هذه البلاد فليس واضحاً تماماً، ولو أن الوصف المعطى والأنهار المذكور تشير إلى أنها واقعة فى أواسط آسيا^(١).

يقول الشيخ الباجى فى تعليق على الفقرة السابقة من سفر التكوين :-
فإن ظاهره أن الأرض التى نحن عليها^(٢) متصلة بأرض الحبشة^(٣) فيمكن أن تجرى الأنهار من الجنة إلى أرضنا. ولو كان كذلك لا تصل بالجنة بعض الناس السالكين فى الأرض مع تطاول السنين.

وأيضاً فإن ظاهر حال جريان هذه الأنهار وهيئتها أن الجنة محيطة بالأرض فتكون أرضنا التى نحن فيها فى وسط الجنة فنكون نحن فى وسط الجنة وهو ظاهر الفساد^(٤).

(وصف الجنة التى عاش فيها آدم قبل السقوط)

يذكر سفر التكوين أن الجنة التى غرسها الله بيده ووضع آدم فيها كان فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ به الأعين (وأثبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل)^(٥) يقول جيمس فريزر: "يصور الكاتب اليهودى عن طريق إلقاء قليل من الضوء ولكن بريشة فنان ماهر الحياة السعيدة التى عاشها الأبوان الأولان فى جنة السعادة التى خلقها الرب لهما ليسكنها فيها، هناك نمت فى وفرة كل الأشجار التى تعطى الثمار الطيبة وتسعد العين بمرآها، وهناك عاشت صنوف الحيوان فى وئام مع الإنسان ومع بعضها بعضاً"^(٦).

(١) كلايدتارنر: هذه عقائدنا ص ٥٣.

(٢) يقصد أرض مصر، لأنه من أهلها، كما ذكر الزركلى (راجع: الأعلام ج ٥ ص ٥٥).

(٣) وذلك على أساس أن النهر الثانى (هو المحيط بجميع أرض كوش) أى التى هى بلاد الحبشة كما جاء فى قاموس الكتاب المقدس ص ٧٩٨.

(٤) على التوراة ص ٣٠.

(٥) تكوين ٢: ٨.

(٦) جيمس فريزر: الفلكور فى العهد القديم (التوراة)، ترجمة د/ نبيلة إبراهيم ج ١ ص ١٠٥.

وكان أهم ما يميز هذه الجنة - كما يقولون - أنه في وسطها غرس الله شجرتين عجيبتين هما "شجرة الحياة التي جعلها لخلاص الإنسان من الموت لو لم يخطئ، وشجرة معرفة الخير والشر التي جعلت لامتحان مقدار ولاء الإنسان لله"^(١).

وفي سفر التكوين (وشجرة الحياة في وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر)^(٢).

(شجرة الحياة)

هي "شجرة وسط ثمرها - كما يدعون - يمنح الإنسان حياة خالدة". ولذلك عندما أخطأ آدم وحواء يقولون طردهما السيد من الجنة لثلا يأكلا من شجرة الحياة ويعيشا إلى الأبد.

وسرعان ما صار التعبير بـ "شجرة الحياة" تعبيراً شعرياً استخدمه كاتب الأمثال^(٣) إشارة إلى مصادر البركة العظيمة في حياة الإنسان ثم استخدمها يوحنا الرائي^(٤) مشيراً إلى الامتيازات المجيدة العظيمة التي تنتظر المفدين في العالم الآخر^(٥).

واختلف شراح المسيحية حول خاصية ثمرة هذه الشجرة، هل لها قوة ذاتية لتجديد قوة الإنسان؟ أم أنها رمز إلى الحياة الأبدية الموعود بها آدم؟

قال بعضهم: أنه كان لهذه الشجرة خاصية تجديد قوة الإنسان حتى أنه مع كون جسده قابلاً للفناء لأنه من تراب الأرض فإنه لو تناول من هذه الشجرة لعاش إلى الأبد بدليل قوله (لعله يمد يده ويأخذه من شجرة الحياة ويعيا إلى الأبد)^(٦).

(١) كلايد تارنر: هذه عقائدنا ص ٥٤.

(٢) تكوين ٢ : ٩.

(٣) أمثال ٣ : ١٨ (هي شجرة حياة لمسكها والمتمسك بها مغبوط).

(٤) (من له أذن فليسمع ما يقوله الروح للكنائس : من يغلب فسأعطيه أن يأكل من شجرة الحياة التي في وسط فردوس الله) رؤيا يوحنا ٢ : ٧ في وسط سوقها وعلى النهر من هنا ومن هناك شجرة حياة تصنع اثنتي عشرة ثمرة وتعطى كل شهر ثمرها وورق الشجرة لشفاء الأمم) ٢ : ٢٢ (طوبى للذين يصنعون وصايا لى يكون سلطانهم على شجرة الحياة ويدخلوا من الأبواب إلى المدينة) ٢٢ : ١٤.

(٥) قاموس الكتاب المقدس ص ٥٠٧.

(٦) تكوين ٣ : ٢٢.

وزهب بعضهم إلى أن هذه الشجرة الدائمة الخضرة والنضارة كانت رمزاً إلى الحياة الأبدية الموعود بها آدم بشرط الطاعة الكاملة، وأن أبوينا الأولين كانا يتناولان منها كأنها سر مقدس مدة برهما الأصيلي^(١).

يقول د/ راغب عبد النور - وهو من القائلين بالرأى الأول.

وعاش الإنسان الحياة أسعد ما تكون الحياة ولكى يحفظ له الرب هذه القامة الشاخنة في السمو والترفع فإنه علمه بوصية ألا يأكل من شجرة معرفة الخير والشر حتى لا يقع في المخالفة - وتكون عقوبته الموت (يوم تأكل منها موتاً تموت)^(٢) وفى نفس الوقت أعطاه شجرة الحياة التى تثبته فى مكانه من الحياة وقداسة الحق^(٣).

ويقول "ولست أظن أن شجرة الحياة كانت إشارة مجازية ولكنى أظنها أنها كانت شجرة حقيقية خصها الرب بخصائص تثبت الحياة فى المقبلين إليها"^(٤).

وعن الرأى الثانى جاء فى (علم اللاهوت النظامى).

كانت شجرة الحياة إشارة إلى الحياة، وكان للإنسان أن يأكل من ثمرها مادام فى كماله، ولا نقدر أن نقطع بأنه كان لثمرها قوة ذاتية لمنح الحياة أى لتحفظ جسد الإنسان فى نشاطه أو لتجعله بالتدريج مثل جسد المسيح الممجد الآن، ولا بأن العلاقة بين أكل ثمرها والخلود نظير العلاقة بين العلة والمعلوم، ولكن نعلم أن الأكل من تلك الشجرة كانت واسطة للتمتع بالحياة الأبدية^(٥).

ولقد ذهب هؤلاء الشراح إلى القول بأن هذه الشجرة كانت رمزاً إلى المسيح - عليه السلام - الذى به الحياة الأبدية.

يقول القس منسى يوحنا: (وأنها - أى شجرة الحياة - كانت رمزاً إلى المسيح لأن فيه كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس)^{(٦)(٧)}.

(١) القس / منسى يوحنا : حياة آدم ص ٥٩.

(٢) تكوين ٢ : ١٧.

(٣) د/ راغب عبد النور : شجرة الحياة ص ٨.

(٤) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٥) علم اللاهوت النظامى ص ٦١٩.

(٦) يوحنا ١ : ٤.

(٧) حياة آدم ص ٩.

ويقولون إن تلك الشجرة كانت رمزاً إلى المسيح أصل الحياة للمؤمنين، وتشبهه في منح الحياة أى أن المسيح صار ينبوع الحياة الروحية والأبدية لشعبه كما كانت تلك الشجرة ينبوع حياة لأبوى جنسنا الأولين ولكل ذريتهما لو لم يعصيا الله^(١).

وكانت الشجرة التي كان لآدم إذا أطاع أن ينال الحياة الخالدة بواسطتها في ذلك الفردوس الأرضي رمزاً إلى ذلك الذي هو ينبوع الحياة الروحية والأبدية لشعبه في الفردوس الأعلى أى كانت رمزاً إلى المسيح أصل كل حياة روحية^(٢).
وتعليقنا على ما سبق ينحصر فيما يأتي :-

أما القول بأن لشجرة الحياة قوة ذاتية لتجديد قوة الإنسان. وأن الإنسان (آدم) أعطى هذه الشجرة لتثيته في مكانه (وهو جنة عدن) وأنه لم يأكل من هذه الشجرة لأنه لو أكل منها لنال الحياة الأبدية ولبقى في الفردوس فإنه مردود على أهله لأنه : كيف يعطى الإنسان شجرة تمنحه ثمرها الحياة أو دوام الحياة في الفردوس الأعلى دون أن يمتحن؟ كيف يعطى الإنسان ذلك وهو المخلوق المكلف كما هو واضح من إشارات سفر التكوين (وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها)؟ فبأى معنى يفهم ليعملها ويحفظها إلا القول بأنه كان مكلفاً ليعمل ويحفظ هذه الجنة وذلك لا يكون إلا عن طريقة الطاعة

وماذا لو مد آدم يده ليأكل من هذه الشجرة - على فرض أنه لم يأكل منها - أياكون رد الفعل الحياة الأبدية بدون عناء ومشقة وعمل لحفظ هذه الجنة؟

لذلك يقول (جرها ردوس فوس) : أما التمتع بثمارها الحلوة للوصول إلى النتائج المباركة دون امتحان فهو لا يتفق مع طبيعتها المقدسة ولكن بعد أن يتيقن الإنسان من بلوغه الحياة الأسمى فإن الشجرة تصبح حينذاك الوسيلة لتوصيل الحياة الأسمى^(٣).

(١) علم اللاهوت النظامي ص ٦١٩.

(٢) المرجع السابق ، ونفس الصفحة.

(٣) جرهاردوس فوس : علم اللاهوت الكتابي ترجمة عزت زكى ص ٥٢.

أما كونها رمزاً إلى الحياة الأبدية فإن من أدلة هذا الرأى - كما سبق أن ذكرنا أن الأكل من تلك الشجرة كان واسطة للتمتع بالحياة الأبدية بدليل أن الإنسان طرد بعد معصيته من الفردوس لثلا يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد^(١) ويستدلون بما جاء فى سفر التكوين (وقال الرب الإله هوذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر والأن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد).

ولادلالة فى النص على الرمزية ولكنه أكثر وضوحاً بأن ذات هذه الشجرة يمنح الحياة لا أنها رمز، إذ المعروف أن النص لا يصرف عن معناه الحقيقى إلى معنى آخر مجازى أو رمزى إلا إذا كانت الألفاظ لا تحتمل المعنى الحقيقى، أما وأن النص واضح بأن الله طرد آدم من الجنة حتى لا تمتد يده إلى شجرة الحياة فيأكل منها فينال الحياة الأبدية، فما ذلك إلا لأنها تدل حقيقة على منح الحياة لا أنها رمز إلى شىء.

يقول الشيخ على الباجى: كيف يحسن أن يقال (لعله يمد يده فيأخذ...) فإن ظاهره أن الحياة والموت ليسا بيد الله وقدرته بل بسبب بعض المأكولات، وأن الله خشى من حياته الأبدية بسبب أكل الشجرة فأخرجه من الفردوس، ولو كان أكل الشجرة الأولى موجباً لعلم الخير وأكل الثانية موجباً للحياة الأبدية كما هو ظاهر اللفظ لكان آدم عقيب أكل الشجرة الأولى أكل من الشجرة الثانية ضرورة من غير تأخير إذ قد علم الخير والشر، فيعلم أن هذا خير فلا يمكنه الصبر عنه أصلاً^(٢).



أما القول بأنها كانت رمزاً إلى المسيح الذى به الحياة الأبدية وذلك عن طريق الإيمان بالمسيح، فإنه يرد عليه بأنه أيضاً لادلالة فى النص على الرمزية هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن نوال الحياة الأبدية من شجرة الحياة يكون عن طريق الأكل منها.

(١) علم اللاهوت النظامى ص ٦١٩.

(٢) الباجى: على التوراة ص ٣٤.

ونوال الحياة الأبدية من المسيح يكون عن طريق الإيمان به والطريق الأول طريق جسدى وطعام جسدى وهو الأكل من الشجرة. والطريق الثانى: إيمان بالمسيح وهو طريق روحى وبه التصديق القلبى والإذعان الباطنى.

وفرق كبير بين طعام جسدى وطعام روحى.

وبون شاسع بين طريق الجسد الذى بسببه يكون الشهوات.

وطريق الإيمان الذى به نوال السعادة فى الدنيا والآخرة.

شجرة معرفة الخير والشر

يذكر سفر التكوين أن هذه الشجرة أيضاً فى وسط الجنة (وشجرة الحياة فى وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر)^(١).

"وأما ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة فقال الله لا تأكلها منها"^(٢).

"وحقيقة هذه الشجرة غير واضحة وكذلك معناها والأرجح - لديهم - أن المراد بها شجرة أكل ثمرها ينشئ معرفة حسب تعيينها لذلك ويستدلون على ذلك ما يأتى :-

١ - مشابقتها لشجرة الحياة، فكما وضعت تلك لتحفظ الحياة كذلك وضعت هذه لتنشئ المعرفة، وأكد المجرى للمرأة أن أكل ثمرة تلك الشجرة يفتح عينها"^(٣).

٢ - ما نشأ عن أكل ثمرها المنهى عنه وهو انفتاح أعين اللذين عصيا"^(٤).

٣ - قول الله تعالى بعد سقوط آدم هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر"^(٥). أى بأكله الثمرة المنهى عنها حصل معرفة مشابهة فى بعض الأوجه لمعرفة الله غير أنها تتميز عنها لا محالة فى أوجه أخرى ولا يحسن اعتبار هذا القول تهكماً لأنه قول الله بل لا يصح إذ لا محل للتهكم هنا.

(١) تكوين : ٢ : ٩.

(٢) تكوين ٣ : ٣.

(٣) تكوين ٣ : ٤ (فقال الحية للمرأة لن تموتاً بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تفتحن أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر).

(٤) تكوين ٣ : ٦ (فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل فانفتحت أعينهما...).

(٥) تكوين ٣ : ٢٢.

والخلاصة: أن شجرة المعرفة - كما صورها المسيحيون - هي شجرة ثمرها ينشئ المعرفة بموجب تعيين الله لا من قوة ذاتية فيها، وليس من الضرورة أن نحسب لثمرها قوة ذاتية على إفساد طبيعة الإنسان الجسدية وأخلاقه الأدبية، فكل ما يعلم من قوله تعالى لآدم كما ذكرها هو أن المعرفة تبعث بعد أكل تلك الثمرة^(١). أما لماذا سميت بهذا الاسم فيقول أحدهم: إنما سميت شجرة معرفة الخير الشر بهذا الاسم فى الكتاب المقدس لأنها ستكون سبباً وشاهدًا لعصيان الإنسان الأول وأمانته^(٢). ويقول القس منسى يوحنا (ويظن أن هذا الاسم دعيت به الشجرة بعد السقوط، لأنه قبل السقوط لم يكن أبوانا قد عرفا الشر، وما يستطيعان معرفته بمجرد النمو الفعلى، لأن ذلك إما بالشعور بالخطأ وإما بمشاهدته فى آخر)^(٣). وهذا القول - أو الظن - لا نسلم به، لأن الله أوصاه بعدم الأكل من شجرة وترك له الأخرى بدون تحذير، فكيف يميز آدم إحداهما عن الأخرى إذا لم تكن كل شجرة قد سميت باسم معروف به؟ وإذا لم تكن كل شجرة قد سميت باسم فما نوع التعامل (أو التحذير وعدمه) هل كان بالإشارة؟ أو هل كانت بنوع آخر من التفاهم؟

ثم إن القول بأن معرفة الشر لا يأتى إلا عن طريقة التجربة أو المشاهدة. قول أيضاً فيه بعض الخطأ، لأن معنى ذلك أن الله حين نهى آدم عن المعصية يكون قد ظلمه من ناحية أن آدم يجرب المعصية ولم يشاهد أحداً يعصى الله. تعالى الله عن ذلك وما ربك بظلام للعبيد.

وأخيراً نقول إن لفظ التحذير واضح (وأوصى الرب الإله آدم قائلاً من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها)^(٤). والتسمية للشجرة باسمها واضح من النهى.

ولقد وردت شجرة معرفة الخير والشر فى أقوال المفسرين المسيحيين بثلاثة معان:-

(١) علم اللاهوت النظامى ٦٢٠.

(٢) القس / منسى يوحنا: حياة آدم ص ٥٤.

(٣) المصدر السابق ص ٥٩.

(٤) تكوين ٢: ١٦، ١٧.

الأول: بمعنى المعرفة البسيطة، واستنتجوا هذا المعنى من أن الكتاب يعبر عن جهالة الطفولية بعدم تمييز الطفل بين الخير والشر ومن ذلك قوله (وأما أطفالكم..... الذين لم يعرفوا اليوم الخير والشر)^(١) وقوله (لأنه قبل أن يعرف الصبي أن يرفض الشر ويختار الخير)^(٢).

وبتعبيره أيضاً عن بلوغ شخص في المعرفة العقلية أو الروحية بأن له قوة أن يميز بين الخير والشر فجاء في الكلام على المؤمن الكامل والبالغ أنه قد صارت له الحواس مدربة على التمييز بين الخير والشر^(٣). ومن المشابهة بين هذه الفقرات استنتج أن - المراد بشجرة معرفة الخير والشر الإشارة إلى المعرفة البسيطة فقط، أى أن آدم قبل السقوط كان في حال السعادة والبراءة دون هذه المعرفة، ولما أكل من الشجرة المنهى عنها حصل عليها.

لكن هذا التفسير لا يصح لأن آدم كان له تلك المعرفة وكان بالغاً لا طفلاً^(٤).

الثاني: بمعنى معرفة التمييز بين الصواب والخطأ.

غير أن هذه المعرفة كانت له منذ البدء وكانت خيراً لا يسوغ منعه عنه، وقد ذهب البعض إلى أن المراد بذلك معرفة ما هو الخير؟ وما هو الشر؟. ولكن هذا معين لنا بإرادة الله لأن كل ما يأمر به هو خير وما ينهى عنه هو شر فلا نقدر أن نحكم به من نفس الأمر أو من اعتبار الموافقة.

هذا ولا ريب في أنه كان للإنسان من تلك المعرفة - كما يعتقدون - قبل سقوطه أكثر مما كان بعده^(٥).

الثالث: بمعنى اختبار نتيجة عمل الخير والشر التي هي إما السعادة أو الشقاء وهو الأرجح - عندهم - أى أن الأكل من الثمر المنهى عنه أوجب آدم أن يعرف بالاختبار الذاتى الفرق بين الخير والشر.

(١) تثنية ١ : ٣٩.

(٢) إشعياء ٧ : ١٦.

(٣) عبرانيين ٥ : ١٤.

(٤) علم اللاهوت النظامي ص ٦٢١.

(٥) المرجع السابق، ونفس الصفحة.

فإن الله جل شأنه علم طبيعة الشر ونتائجه من علمه بكل شيء، ولكن آدم لم يقدر أن يعرف ذلك إلا بالاختبار الذاتى الذى حصل عليه حين أخطأ^(١).

يقول القس: منسى يوحنا (واعلم أن هذه الشجرة لم تدع شجرة معرفة الخير والشر من حيث إنه كان فيها قوة تعطى جدينا الأولين معرفة الخير والشر التى لم يعرفاها، بل من حيث الوصية التى كانت متعلقة بها أنها متى أكلها كانا مزمعين أن يختبرا ما بين الخير والشر من الفرق الجسيم. إنها سميت شجرة معرفة الخير والشر لأن آدم بأكله منها عرف الخير بفقده له وعرف الشر باختباره إياه^(٢).

ولعنا لا نسبق أحداث وأفكار البحث إذا قلنا إنه إذا كان المقصود من شجرة معرفة الخير والشر هو الاختبار الذاتى بين الخير والشر وتعليم الإنسان حالة السعادة التى تتبع عمل الخير وحالة الشقاوة التى تتبع عمل الشر فإن آدم - على هذا المعنى - ضحية هذا الاختبار، لأن النتائج المترتبة على الاختبار علمت آدم ومن جاء بعده، فمن جاء بعد آدم علم نتيجة هذا الاختبار. ولكن آدم لم يكن - على حسب القول السابق - يعلم نتيجة الاختبار فهو ضحية لغيره، وأيضاً ظلم لآدم لأنه وفر لغيره ما لم يوفر له من بيان معرفة الخير والشر والله سبحانه منزه عن الظلم.

وأخيراً نورد تعليق عالم الأنثروبولوجيا (جيمس فريزر) على الشجرتين يقول: من المسلم به بوجه عام فيما يبدو أن حكاية الشجرتين قد اعترتها بعض الخلط، وأن شجرة الحياة لم تلعب فى الحكاية الأصلية هذا الدور المثير السلبي الصرف الذى لعبته فى هذه الحكاية، ومن ثم فقد اعتقد البعض أنه كان هناك فى الأصل حكايتان مختلفتان عن السقوط صورت فى إحديهما شجرة المعرفة على حدة.

كما صورت الأخرى شجرة الحياة منفردة.

(١) المرجع السابق، ونفس الصفحة.

(٢) حياة آدم ص ٥٩.

وإن كاتباً مزج بين الحكايتين فى غير حذق وجعل منها حكاية واحدة، وعلى حين احتفظ بإحدهما فى شكلها الأسمى على وجه التقريب اختصر الحكاية الثانية وشذبهها حتى كادت تفقد عالمها^(١).

ومن ناحيتنا لا نسلم بكل ما قاله فإنه مجرد فرض لم يصل إلى درجة الحقيقة واليقين حتى نسلم به. وإن كان القول بوجود شجرتين، شجرة تقوم بدور سلبي وشجرة عليها التحذير والوصية بعدم القرب منها مما يحير الباحث المتأمل فى إصحاحات سفر التكوين فإن الرب الإله لم ينه آدم عن الأكل من شجرة الحياة، وفى الوقت ذاته عندما أكل من شجرة معرفة الخير والشر يخشى أن يمد يده لشجرة الحياة مع أنه لم ينهه عن الأكل منها.

عمل الإنسان (آدم) فى الجنة

إن الله سبحانه وتعالى خلق آدم ووضعه فى الجنة وفيها - بجانب شجرة الحياة وشجرة معرفة الخير والشر - كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل، ولما كان الإنسان فى وضع المخلوق المكلف كان له بعض المسؤوليات الخاصة فى الجنة التى وضع فيها "فلم يكن للبطالة محل فى برنامج الله للإنسان"^(٢).

إنهم يقولون إن الكتاب المقدس يعلمنا بأن الله أسند إلى آدم بعض المسؤوليات الإدارية والهامة.

أما المسؤولية الأولى: فكانت عنايته بالجنة وحفظها (وأخذ الرب الإله آدم ووضعه فى جنة عدن ليعملها ويحفظها)^{(٣)(٤)}.

يذكر المسيحيون أنه لم يكن الإنسان ليأكل من ثمار الجنة ويتمتع بجمالها فقط بل كان عليه أن يعمل فيها ويحفظها، لم يكن مقصد الله مطلقاً أن يعيش بطلاً لا فى

(١) جيمس فريزر: الفلكور فى العهد القديم ج١ ص ١٠٧ - ١٠٨.

(٢) كلايد تارنر: هذه عقائنا ص ٥٤.

(٣) تكوين ٢: ١٥.

(٤) د/ القس/ حنا جرجس الخضرى: تاريخ الفكر المسيحي المجلد الأول ص ٢٦.

هذه الحياة ولا فى الأخرى^(١) ولذلك أوصاه الله بأن يأكل من شجر الجنة، ولكن حذره ألا يأكل من شجرة معرفة الخير والشر "وأوصى الرب الإله آدم قائلاً من جميع شجر الجنة تأكل وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها"^(٢).

يعتقدون أيضاً أنه كان على الإنسان ألا يعصى إرادة الله التى أعلنها - أعنى الوصية المذكورة - ولكى تنطبع هذه الوصية أكثر فى قلب جدينا الأولين قال لهما: - إنه إذا خالفها سيفقدان ما حصلوا عليه ويسقطان إلى الشقاء ويصيرون تحت عبودية أهوائهما معرضين للضيق والمحن على اختلافها، وأما جسدهما فبعد أن يكابد أوجاعاً وأسقاماً كثيرة سينفصل أخيراً عن النفس ويفسد ويبلَى. وأما نفسيهما فسينبذها الله أبدياً^(٣) لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت^(٤).

يقول القس إلياس مقار (ولماذا وضع الله فى طريق آدم هذه الشجرة وحرّم عليه فى الوقت ذاته أن يأكل منها؟ وإذا أضيف إلى ذلك أن الله كان ولا شك يعلم مقدماً بسقوط الإنسان فهل يكون بعد هذا الامتحان مبرراً؟ هل يتفق هذا مع وجود الله وحنانه وحبّه ورحمته؟ هذه أسئلة كثيراً ما تمسك بالفكر البشرى وتتابعه وتلح عليه وتضغط على ملكاته جميعاً، ومع أننا لا نستطيع الإجابة عليها إجابة كاملة شافية شاملة إلا أننا نستطيع مع ذلك أن نؤكد أن هناك على الأقل عاملين أساسيين يلزمان ويحتملان هذا الامتحان :-

أولهما: أن امتحان الإنسان أمر تمليه الطبيعة الإنسانية، فالإنسان من حيث هو إنسان كان لا بد وأن يمتحن، لأن الإنسان يتميز عن المخلوقات الأخرى بأنه العاقل الحر المرید، وكان لا بد أن ينشأ تبعاً لهذا التفرقة بين هذه المخلوقات. فإذا انفرد الإنسان من هذه المخلوقات بملكة الإرادة الواعية العاقلة المقتدرة كان لا بد لهذه الإرادة أن توجد بما تختار وأن يظهر فعلها بما تقبل أو ترفض ومن ثم زرع الله مقابلها شجرة معرفة الخير والشر^(٥).

(١) كلايد تارنر: هذه عقائدنا ص ٥٤.

(٢) تكوين ٢: ١٦ - ١٧.

(٣) الخلاصة الشهية فى أخص العقائد والتعاليم الأرثوذكسية ص ٧٨.

(٤) تكوين ٢: ١٧.

(٥) القس إلياس مقار: قضايا المسيحية الكبرى ص ٣٦٨ بتصرف شديد.

ولكن لعلم الله أن إرادة الإنسان يمكن أن تميل إلى إحدى الجهتين - الخير والشر - سبق فدعم النعمة المعطاة له بالوصية التي قدمها إليه والمكان الذي أقامه فيه لأنه أتى به إلى جنته وأعطاه وصية حتى إذا حفظ النعمة واستمر صالحاً استطاع الاحتفاظ بحياته في الفردوس بلا حزن ولا ألم ولا هم فضلاً عن موعد عدم الفساد في السماء، أما إذا تعدى الوصية وارتد وأصبح شريكاً فيعلم بأنه يجلب على نفسه الفساد بالموت الذي كان يستحقه بالطبيعة وأنه لا يستحق الحياة في الفردوس بعد، بل يطرد منه من ذلك الوقت^(١).

ثانيهما: إن امتحان الإنسان ضرورة تليها الطبيعة الإلهية - كما يقولون - فعدالة الله كان لابد أن تفعله، إذ أن الله يودع ويطلب على الدوام بما يقابل ما يودع، والذي يودعونه كثيراً يطالبونه بأكثر، كما أن العدالة الإلهية التي امتحنت الملائكة لتحديد مصيرهم ومراكزهم كان لابد أن تفعل مع الإنسان ما فعلت معهم، إذ لا يجمل بالله أن يمتحن الملائكة لأنهم^(٢) ذوا إرادة ثم يبعد هذا الامتحان أو يمنع عن الإنسان ذي الإرادة - المماثلة. ثم إن محبة الله ورحمته كان من المحال أن تظهر في أروع صورها وأمجدها من غير هذا التدخل الذي حدث في حياة الإنسان الساقط، فمن السهل أن نرى محبة الله في شتى مظاهرها ونحن أبرار قديسون طائعون، ولكن أدق محبة وأعمقها تكشف فقط عند السقوط والانهيال والحظية^(٣).

وعليه فإن وضع شجرة معرفة الخير والشر في وسط الجنة وتحذير الله لآدم بعدم الأكل منها كان - في اعتقادهم - من أجل امتحان الإنسان لأن الامتحان أمر تليها الطبيعة الإلهية وكذا الطبيعة الإنسانية لأنه المخلوق العاقل ذو الإرادة الحرة.

(١) القديس الاثناسيوس الرسولي: تجسد الكلمة ص ٢٥.

(٢) وذلك على أساس فكرتهم أن الملائكة امتحنوا، وكانوا في تلك الفترة ذوى إرادة واختيار، فلما أطاعوا الله كانت لهم الحياة الأبدية. أما الذين عصوا الله فكان جزاؤهم الطرد وهم الشياطين، كما يظهر في الفصل الثالث من هذا الباب.

(٣) قضايا المسيحية الكبرى ص ٣٦٩ بتصرف شديد.

وإذا كان الأمر كذلك فإنه لا يظهر لآدم أى خصوصية فى وضعه فى الجنة بل كان عليه عبء ومسئولية كبرى وهى كيف يحفظ هذه الحياة التى يعيشها؟ إذا كانت الحياة التى يعيشها كانت عبارة عن امتحان وابتلاء فأى ميزة لآدم عن باقى الجنس البشرى؟ هل يتميز عن باقى الجنس البشرى بأنه كان يعيش فى جنة؟ إن الجنة التى تحدثون عنها كانت الحياة فيها أكثر امتحانا من الحياة التى يعيشها باقى أفراد الجنس البشرى.

على أن لباقى الجنس البشرى ميزة عن آدم لأن آدم لم يكن يعرف عاقبة عصيانه بينما باقى الجنس البشرى عرف من تاريخ آدم عاقبة العصيان فباقى الجنس البشرى أكثر حظاً ونعيماً عن آدم.

المسئولية الثانية:- يذكر المسيحيون أن الله أحضر إلى آدم جميع الحيوانات ليضع لها اسماً "فالله كلفه بأن يعطى اسماً لكل حيوان من الحيوانات ولكل طير من الطيور.." "وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها، وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها"^(١) يقول المسيحيون هذه هى المسئولية الثانية التى كلف بها آدم^(٢).

والمسئولية والتكليف فى الأولى أوضح من الثانية.

لأن المسئولية الأولى (وصية وتحذير) وهو عين المسئولية والتكليف أما الثانية فإن الله أحضر الحيوانات والطيور ليرى آدم ماذا يسميها وليس فى هذا تكليف ولا مسئولية وإنما تكريم (من هذا نرى أن الله أعطى لآدم سلطاناً عظيماً جداً).

ففى المزامير (فمن هو الإنسان حتى تذكره وابن آدم حتى تفتقده، وتنقصه قليلاً عن الملائكة وبمجدٍ وبهاء تكلمه. تسلطه على أعمال يديك. جعلت كل شئ تحت قدميه)^(٣) فإن الله أعطى لآدم سلطاناً ليس على حيوانات البرية وطيور السماء فحسب بل على الخليفة كلها^(٤) "وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا

(١) تكوين ٢ : ١٩ .

(٢) تاريخ الفكر المسيحى المجلد الأول ص ٢٦ .

(٣) مزمو ٨ : ٤ - ٦ .

(٤) تاريخ الفكر المسيحى المجلد الأول ص ٢٦ .

فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض"^(١).

وهذا السلطان العظيم أعطاه الله إياه لأنه المخلوق المكلف، ولأنه خليفة الله في الأرض ولا أدل على ذلك من أن هذا السلطان لم يرفعه الله عن آدم بعد معصيته بل بقي لنسله ولجميع الجنس البشري من بعده.

* * *

أما عن مدة إقامة آدم في الجنة فإن القس: منسى يوحنا يقول "رأى أحد الرهبانيين أن آدم وحواء بقيا في حال البر والقداسة ست ساعات، وذهب آخر إلى أنهما بقيا كذلك أربعاً وعشرين ساعة، ولكن من يذكر أن الله خلق العالم بالترتيب والتوالي وأنه لم يخلقه دفعة واحدة وأن آدم كان يزرع الفردوس وأن الزرع يقتضى وقتاً طويلاً للنمو والنضج إلى غير ذلك، يرى أن آدم أقام بالفردوس أكثر من ذلك فإن ذلك الوقت لم يكن كافياً لتسمية آدم الحيوانات وغيرها من المخلوقات، ومع كون هذه المدة لا تعرف بالتحقيق إلا أنه لا يوجد شك في أنها محسوبة ضمن السنين التي عاشها آدم في الأرض وقررها عنه الكتاب المقدس"^(٢) وعاش آدم مائة وثلاثين سنة وولد ولداً^(٣).

وهذه الآراء عبارة عن افتراضات لا ترقى إلى الصواب إلا إذا وجد ما يؤيدها من نصوص صحيحة.

حالة الإنسان المخلوق على صورة الله قبل المعصية

لقد سبق أن قلنا إن المسيحيين يقولون إن الإنسان خلق على صورة الله، ووضعه الله في الجنة في حالة من السعادة والابتهاج، والإنسان في هذه الفترة - أي قبل سقوطه في الخطيئة - كان يتصف بصفات أخرى بجانب حالة السعادة التي فقدها بالخطيئة - كما يعتقد المسيحيون إذ أن هناك جزءاً من صفات الله في آدم لازالت باقية فيه وفي نسله حتى بعد سقوطه في الخطيئة (فالجزء الباقي من صورة الله في الإنسان

(١) تكوين ١ : ٢٦.

(٢) حياة آدم ص ٧، ٨.

(٣) تكوين ٥ : ١ - ٣.

هو الطبيعة الروحية العقلية التى لا تزال فى كل بنى جنسنا، والجزء الذى زال بالسقوط هو الكمال الأدبى الذى فطر الإنسان عليه أى حال البر والقداسة التى خلق عليها، وبعد السقوط بقى على صورة الله فى طبيعته العقلية الأدبية المشابهة لصورته تعالى غير أنه تغير فى حالته الأدبية وانحط من حالة البر والطهارة إلى الخطيئة والفساد الأدبى^(١).

ومن أقوال الكتاب المقدس الدالة على ما هو باق من صورة الله فى الإنسان ما جاء فى مواليد آدم من أنه خلق على شبه الله وأنه ولد ولدًا على شبهه كصورته ودعا اسمه شيثًا^(٢) وقوله "سافك دم الإنسان بالإنسان يسفك دمه لأن الله على صورته عمل الإنسان"^(٣).

"وإن الرجل لا ينبغى أن يغطى رأسه لكونه صورة الله ومجده"^(٤).

وقوله فى اللسان (به نبارك الله الأب وبه نلعن الناس الذين قد تكونوا على شبه الله)^(٥). فالجزء الباقي فى الإنسان بعد السقوط هو الطبيعة العقلية. أما الجزء الذى فقدته الإنسان بالسقوط هو حالة الطهر والكمال والقداسة.

أما الصفات التى كان عليها الإنسان قبل السقوط وفقدتها بعده فهى :-

١ - الإنسان على صورة الله فى المعرفة :-

جاء فى كتاب أصول الإيمان المسيحى : أن الله خلق الإنسان على صورته فى المعرفة وهذا يعنى أن آدم قبل أن يخطئ كان قادرًا على أن يفهم إعلان الله عن نفسه فى العالم فعندما "دعا آدم بأسماء جميع البهائم أو طيور السماء وجميع الحيوانات البرية"^(٦) فإنه كان يفعل شيئًا أكثر من مجرد "إعطاء أسماء" فهذه الأسماء كانت وصفًا حقيقياً للأشياء التى أطلقت عليها. فعندما دعا آدم اسم امرأته حواء إنما فعل ذلك لأنها أم كل حى^(٧)، وكذلك عندما تأمل آدم الحيوانات وأعطاهها أسماء أظهر أنه

(١) علم اللاهوت النظامى ص ٥٩٧.

(٢) تكوين ١ : ٥ - ٢.

(٣) تكوين ٩ : ٦.

(٤) ١ كورنثوس ١١ : ٧.

(٥) يعقوب ٣ : ٩.

(٦) تكوين ٢ : ٢.

(٧) تكوين ٣ : ٢.

قادر على فهم طبيعة الأشياء والتعبير عنها ، وبعبارة أخرى إن آدم - قبل أن يخطئ - كان نبياً في أسمى معاني النبوة لأن النبي هو من يستطيع أن يرى الحق الإلهي وأن يعلن هذا الحق لخير الآخرين^(١).

وإذا كانت هذه المعرفة التي أعطيت لآدم فهمها الشراح المسيحيون من خلال بعض النصوص فإننا نقول إن نصوص الكتاب المقدس جاءت صريحة وواضحة في نسبتها لغير آدم.

ففي سفر الخروج (وقال موسى لبني إسرائيل انظروا قد دعا الرب بصلييل بن أوري بن حور من سبط يهوذا باسمه ، وملاه من روح الله بالحكمة والفهم والمعرفة وكل صنعة)^(٢).

وكذلك أيضاً سأل سليمان الله أن يعطيه حكمة ومعرفة (تراءى الله لسليمان وقال له اسأل ماذا أعطيك ، فقال سليمان لله إنك قد فعلت مع داود أبي رحمة عظيمة وملكنتي مكانه. فالآن أيها الرب الإله ليثبت كلامك مع داود أبي لأنك قد ملكنتي على شعب كثير كتراب الأرض ، فأعطني الآن حكمة ومعرفة لأخرج أمام هذا الشعب وأدخل ، لأنه من يقدر أن يحكم على شعبك هذا العظيم ، فقال الله لسليمان: من أجل أن هذا كان في قلبك ولم تسأل غنى ولا أموالاً ولا كرامة ولا أنفس مبغضيك ولا سألت أياماً كثيرة بل إنما سألت لنفسك حكمة ومعرفة تحكم بهما على شعبي الذي ملكتك عليه قد أعطيتك حكمة ومعرفة وأعطيتك غنى وأموالاً وكرامة لم يكن مثلاً للملوك الذين قبلك ولا يكون مثلاً لمن بعدك)^(٣).

وكذلك أعطى الله لغير سليمان - ممن هو أهل لذلك - الحكمة والمعرفة.

ففي سفر إشعياء (ويخرج قضيب من جذع يسيّ وينبت غصن من أصوله ، ويحل عليه روح الرب ، روح الحكمة والفهم ، روح المشورة والقوة ، روح المعرفة وخافة

(١) ج. أ. وليمسن: تفسير أصول الإيمان ، ترجمة الشيخ فايز فضيل ج١ ص ٣٩.

(٢) خروج ٣٥ : ٣١.

(٣) أخبار الأيام الثاني ١ : ٧ - ١٢.

الرب، ولذته تكون فى مخافة الرب، فلا يقضى بحسب نظر عينيه، ولا يحكم بحسب سمع أذنيه، بل يقضى بالعدل للمساكين، ويحكم بالإنصاف لبائس الأرض، ويضرب الأرض بقضيب فمه، ويميت المنافق بنفخة شفثيه^(١).

على أن تلك المعرفة يستطيع أى إنسان أن يحصل عليها وذلك عن طريق الخوف من الله ففى سفر الامثال (مخافة الرب رأس المعرفة)^(٢). وأيضاً (بدء الحكمة مخافة الله ومعرفة القدوس فهم)^(٣). (وبالمعرفة ينجو الصديقون)^(٤).

فلا ميزة لآدم - قبل المعصية - فى هذا الأمر، إذ أن الله أعطى المعرفة لغير آدم، وهى واضحة كما سبق.

وأيضاً فإن الاقتباسات السابقة من الكتاب المقدس تدل على أن الإنسان لم يفقد المعرفة بالخطيئة، بدليل أنها أعطيت لأحدهم وهو من نسل آدم، بل يستطيع كل إنسان عن طريق الإخلاص فى الطاعة والعبادة والخوف من الله ومراقبته أن يحصل على المعرفة والحكمة والفهم، وبهم يكون النجاة.

٢ - الإنسان على صورة الله فى القداسة :-

والقداسة: صفة من صفاته تعالى: ففى سفر الخروج أن موسى وبنى إسرائيل رنموا قائلين: "يا رب من مثلك معتزا فى القداسة"^(٥).

والقداسة - كما عرفها المسيحيون - : الخلو من الخطيئة والطهارة التامة. وهى أخص صفات الله وتميزه بنوع كلى من جميع آلهة الوثنيين وتجعله يكره المعصية ويعاقب الخاطئ، وقد خلق الله الإنسان على صورته وشبهه، أى فى البر والقداسة على أن آدم فقد قداسته وأدخل الخطيئة إلى العالم فجاز الموت إلى جميع الناس، إذ أخطأ الجميع^(٦).

(١) إشعياء ١١ : ١ - ٥.

(٢) أمثال ١ : ٧.

(٣) أمثال ٩ : ١٠.

(٤) أمثال ١١ : ٩.

(٥) خروج ١٥ : ١١.

(٦) قاموس الكتاب المقدس ص ٧١٨.

وقد ورد في تفسير أصول الإيمان: أن الله خلق الإنسان على صورته في القداسة وهذا يعنى أن آدم قبل أن يخطئ كان بجملته مكرساً لله.

وفي العهد القديم نجد هذه الفكرة تنمو باضطراب في نظام العبادة الذى أعلنه الله لموسى، فكان يوجد رئيس الكهنة وخيمة الاجتماع والتقدمات المختلفة وكانت توجد الشعائر الإلهية، وكانت الفكرة الأساسية للقداسة هي السائدة دائماً، والقداسة هنا معناها "التخصيص للرب".

وبالنسبة لآدم لم تكن القداسة مسألة شعائر أو ذبائح بل كانت تعبدًا قليياً، كان مقدساً، لأنه كان يجد سروره الأعظم فى الرب، كان (قبل أن يخطئ) لا يعرف الخوف من الرب، فكان يشعر بالسلام فى حضرة الله (فكان مخصصاً للرب فى كل شيء عن رغبة قلبية)^(١).

وكون آدم على صورة الله فى القداسة بمعنى أنه كان لا يعرف الخوف من الرب، فإن هذا لا يتوافق مع ما سبق أن أوردناه من أن رأس المعرفة مخافة الله وبدء الحكمة مخافة الله فكيف يكون آدم على صورة الله فى المعرفة ثم هو لا يخاف الله مع أن رأس المعرفة مخافة الله؟

ثم إننا نجد أن الله سبحانه وتعالى - كما ورد فى كتبهم - يأمر عباده بأن يعبدوه بخوف ورهبة منه، فقال (تأدبوا يا قضاة الأرض اعبدوا الرب بخوف واهتفوا برعدة)^(٢).

"لتخشى الرب كل الأرض ومنه ليخف كل سكان المسكونة"^(٣).

وخوف الله لا يقتصر على وقت دون آخر بل هو ثابت إلى الأبد "وصايا الرب مستقيمة تفرح القلب. أمر الرب طاهر ينير العينين. خوف الرب نقى ثابت إلى الأبد"^(٤).

(١) ج. أ. وليمن: تفسير أصول الإيمان ج ١ ص ٤٠.

(٢) مزمور ٢: ١١.

(٣) مزمور ٣٣: ٨.

(٤) مزمور ١٩: ٨، ٩.

والله سبحانه وتعالى يعطى الخائفين سر النجاة فאלله يوفق الخائفين لطريق الخير ويبارك فيهم وفى نسلهم (من هو الإنسان الخائف الرب. يعلمه طريقاً يختاره، نفسه فى الخير تبين، ونسله يرث الأرض، سر الرب لخائفه، وعهده لتعليمهم)^(١).

والله سبحانه وتعالى يرعى بعنايته الخائفين منه (هو ذا عين الرب على خائفه الراجين رحمته)^(٢).

ويحفظهم بالملائكة (ملاك الرب حالّ حول خائفه وينجيهم)^(٣).

ويشملهم برحمته (قويت رحمته على خائفه)^(٤).

(كما يترأف الأب على البنين يترأف الرب على خائفه)^(٥)

وعليه فإما أن يكون آدم على صورة الله فى القداسة: بمعنى العبادة والطهارة والتخصيص للرب، والعبادة لا تكون إلا بالخوف من الله الذى به العبادة والطاعة والنجاة والخير والرحمة. وهذا الا خصوصية فيه لآدم قبل السقوط.

وإما أن آدم على صورة الله فى القداسة، ولكن بدون عبادة وخوف، وهذا لا يتناسب مع إنسان على صورة الله فى المعرفة التى لا يمكن إثباتها إلا بالخوف من الله.

وأيضاً لا يتناسب مع إنسان على صورة الله فى البر وهو عنوان الفقرة التالية.

٣- الإنسان على صورة الله فى البر:-

يقول المسيحيون: إن الله بعد أن خلق الإنسان جعله فى حال البر والنعمة^(٦).

يقول أصول الإيمان (إن الله خلق الإنسان على صورته فى البر.

(١) مزمور ٢٥: ١٢ - ١٤.

(٢) مزمور ٣٣: ١٨.

(٣) مزمور ٣٤: ٧.

(٤) مزمور ١٠٣: ١١.

(٥) مزمور ١٠٣: ١٣.

(٦) دوم كولومبا مريمون: المسيح حياة النفس ص ٦٦.

والبراسم آخر للطاعة لله ، فالذى يعمل ما يريد منه الله أن يعملهُ إنما يصنع البر. ومن الصواب أن نقول. إن آدم كان ملكاً (قبل أن يخطئ) ، والمملك هو من يحكم. كان آدم يحكم كل العالم الذى وضعه الله تحت سلطانه ، ولأنه كان يعرف مشيئة الرب (كنبى) كان يرغب فى أن يخدمه وحده (ككاهن) كان أيضاً قادراً أن يعمل أعمال البر كملك على الخليقة.

وهكذا نرى أنه ليس صحيحاً أن نتكلم عن صورة الله فى الإنسان ، ولكن من الصواب أن نتكلم عن الإنسان نفسه كصورة حقيقية الله^(١). ونحن نقول إن آدم كان ملكاً على الخلائق وله سلطان عليها ، لأنه خليفة الله فى الأرض ، ولا خصوصية لآدم فى أن جميع الخلائق مسخرة له.



وبعد فإن خلاصة ما قاله المسيحيون عن حالة آدم قبل المعصية كما يلي: إن الله خلق الإنسان فى حالة البراءة ، وكان الإنسان صورة حقيقية لله فى المعرفة والبر والقداسة ولكن لم يكن قد ثبت بعد فى تلك الحالة المباركة فوضع الله أمام أبونا الأولين اختيارين:-

فمن جهة كان أمامهما طريق الطاعة الكاملة وهذا الطريق كان يؤدى فقط إلى الحياة الأبدية إذ يقول بولس (الإنسان الذى يفعلها - أى وصايا الله - سيحيا بها)^(٢). ولكن من جهة أخرى كان يوجد طريق العصيان ، وهذا الطريق كان يؤدى فقط إلى الموت. إذ قال الرب لآدم متكلماً عن شجرة معرفة الخير والشر لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت)^(٣).

وهذا هو الذى تجده عندما تقرأ أصول الإيمان^(٤).

(١) شرح أصول الإيمان ج١ ص ٤٠ ، ٤١.

(٢) غلاطية ٣ : ١٢.

(٣) تكوين ٢ : ١٧.

(٤) تفسير أصول الإيمان ج١ ص ٥٢.

وما قلناه سابقاً عن حالة الإنسان من المتفق عليه بين الكنائس.

جاء فى علم اللاهوت النظامى :-

من أوجه الاتفاق بين الكنائس الشرقية والغربية (أى الباباوية) والإنجيلية بالنسبة للتعليم فى الإنسان :-

(١) البراءة الأصلية أى أن الإنسان خلق صورة الله فى العقل والحرية والطهارة والقداسة على أنه محتاج إلى الامتحان وقابل للسقوط.

(٢) السقوط ومن لوازمه الخطية والموت والفساد والذنوب والاحتياج إلى الخلاص (خلافًا للتعليم البيلاحي). وستحدث عنه بالتفصيل فى الصفحات التالية.

(٣) الفداء بالمسيح^(١)

أما وجه الاختلاف بين الكنيسة الباباوية والكنيسة الإنجيلية فهو فى البر الأصلية هل هو طبيعى أم أنه فوق الطبيعة.

جاء فى علم اللاهوت النظامى : (أن بين تعليم الكنيسة الباباوية فى حال الإنسان الأصلية وتعليم الإنجيليين موافقة تكاد تكون تامة.

ووجه الخلاف بين الفريقين محصور فى قضية واحدة مهمة وهى أن الإنجيليين يعتقدون أن البر الأصلية فى آدم كان طبيعياً.

أما الرومانيون فيعتقدون أنه كان فوق الطبيعة. فقالوا إن الله خلق جوهرى طبيعة الإنسان - أى النفس والجسد - مائلين إلى المضادة، ولأجل الموافقة بينهما وخضوع الجسد للروح خضوعاً لاثقاً أعطاه عطية غير عادية وهى البر الأصلية، فلما سقط آدم فقد بسقوطه هذا البر الفائق الطبيعة، ورفع إلى الحال الطبيعة التى كان عليها قبل تخويله إياه.

أما الإنجيليون فيعتقدون عكس ذلك، أى أن البر الأصلية طبيعى مخلوق مع الإنسان، وأن آدم كان طبعاً يحب الله ويميز مجده تعالى، كما كان طبعاً يحب نفسه ويميز جمال الخليفة، وأنه خلق قادراً بالطبع، (أى بدون افتقار إلى موهبة جديدة

(١) علم اللاهوت النظامى ص ١٥٤.

فوق ماله من المواهب) أن يتمم غاية وجوده العظمى وهى أن يمجّد الله ويتمتع به إلى الأبد^(١).

خلاصة تعليم الكتاب المقدس فى حالة الإنسان الأصلية

سنذكر هنا خلاصة تعليم الكتاب المقدس فى حالة الإنسان الأصلية وإن كانت تفهم مما سبق حتى يتبين مدى اختلاف البيلاجيين عن هذا التعليم.

يقول المسيحيون إن الكتاب المقدس يعلمنا أن الله أبدع الإنسان على ما يأتى :-
أولاً: فى حال البلوغ والكمال :- والمراد ببلوغه أنه لم يخلق طفلاً، فأخطأ من زعم أنه كان أولاً ضعيفاً عاجزاً مجرداً عن قدرة القيام بما يحتاج إليه وخالياً من الكمال نفساً وجسداً وأنه تقوى عقله وجسده بالتدريج ووضع لنفسه لغة وتنبهت قواه الأدبية، لأن هذا الزعم مخالف لنص الكتاب على كيفية خلقه وما قام به من العمل بأمر الله وعلى أن الله كان أولاً يكلمه ويعلن له إرادته وهو يفهم كلامه وإعلانه تعالى وكل ذلك يدل على كماله الجسدى والعقلى^(٢).

ويستدلون على ذلك بنصوص نذكر منها ما يأتى :-

فعند أول وجود الإنسان على الأرض "باركهم الله وقال لهم اثمروا واكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا"^(٣).

وأوصى الرب الإله آدم قائلاً: "من جميع شجر الجنة تأكل وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها"^(٤).

وكذلك ما ورد من الله أحضر الحيوانات والطيور لآدم^(٥) ليرى ماذا يدعوها.

كل ذلك يدل - فى نظر المسيحيين - على بلوغه وكمال الجسدى والروحى.

ثانياً: على صورته تعالى وشبهه: وهو الكمال الأدبى الذى فطر عليها أى على صورته فى المعرفة والقداسة والبر.

(١) المرجع السابق ص ٦٠٩.

(٢) علم اللاهوت النظامى ص ٥٩٤.

(٣) تكوين ١ : ٢٨.

(٤) تكوين ٢ : ١٦.

(٥) تكوين ٢ : ١٩ ، ٢٠.

ثالثاً: كونه ذا سلطان على الخلائق: "والمراد بذلك هو تخويل الله إياه السلطان على الخلائق، أى جعله رئيساً على الأرض وحاز هذا السلطان بتخويل الله إياه القوى والمواهب وتفويضه الصريح له"^(١) ومن الأقوال التى يستدلون بها على ذلك ما جاء فى الإصحاح الأول من سفر التكوين "فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التى تدب على الأرض"^(٢). كل ذلك لأنه - كما يقولون - خلق على صورة الله.

(التعليم البيلاجى فى^(٣) حالة الإنسان الأصلية)

هو تعليم بيلاجيوس وجمهور العقليين الذين خالفوا تعليم الكتاب المقدس - كما

(١) علم اللاهوت النظامى ص ٥٩٨.

(٢) تكوين ١: ٢٦.

(٣) التعليم البيلاجى أحد أنظمة اللاهوت الثلاث التى انتشرت على الدوام فى الكنيسة وهى: ١- النظام الأوغسطينى ٢- النظام البيلاجى ٣- النظام النصف البيلاجى. ودائماً يكون النظام الأوغسطينى هو نظام تعليم الكتاب المقدس، والنظام البيلاجى نظام العقلانيين، والنصف البيلاجى بعضه بيلاجى وبعضه أوغسطينى.

وقضايا النظامين الأوغسطينى والبيلاجى المتناقضة برزت أولاً وحددت بسبب ما نشأ من الجدل فى أوائل القرن الخامس الميلادى بين الشهيدين أوغسطينوس الذى كان أسقف هبو فى شمال إفريقيا من سنة ٣٩٥ - إلى سنة ٤٣٠م، وبيلاجيوس الراهب البريطانى الذى تصحب له تلميذاه، كويلستيوس وبوليانيوس من أكلايوم فى إيطاليا.

أما النصف البيلاجى: فإنه لما اشتد الخصام فى شأن النظام البيلاجى شرع يوحنا كاسيانوس - وهو سورى الأصل تربى فى الكنيسة الشرقية ثم انتقل إلى مرسيليا فى فرنسا لأجل ترقية مصالح الرهبنة فى ذلك القطر - فى إنشاء نظام متوسط بين الأوغسطينى والبيلاجى. وقد سُمى المعلمون ذلك النظام بالنصف البيلاجيين. أما مبادئه الجوهرية فهى نفس مبادئ النظام المسمى الآن بالأرمنى (الذى ينتسب إلى يعقوب أرمنيوس الذى كان أستاذاً لعلم اللاهوت فى مدرسة ليدن الجامعة من سنة ١٦٠٢ م إلى حين سنة ١٦٠٩م (علم اللاهوت النظامى) ص ١٣٨.

وهذا المذهب سُمى بالنصف البيلاجى لأن بعضه أخذ عن بيلاجيوس وبعضه عن أوغسطينوس. وهو يخالف البيلاجى برفض الاعتقاد أن خطية آدم أضرت نفسه فقط. وهو يعلم أن نتائج تلك الخطية اجتازت إلى كل البشر وأثرت فى النفس والجسد كليهما فجعلت الجسد تحت طائلة الموت والمرض والألم وأضعفت النفس حتى صارت مائلة إلى الشر وعاجزة بدون المعونة الإلهية عن تكميل شئ مما هو محسوب عند الله من الصلاح والخير غير أن هذا الضعف فى النفس والميل إلى الخطية فعلاً لا يحسبان عندهم من باب الخطية بل من باب البلية والتعطيل فقط، على أنهم يسلّمون أن تلك الحال تؤدي لا محالة إلى ارتكاب الخطايا فعلاً وهو يخالف الأوغسطينى فى أنه يعلم (١) أن خطية آدم غير محسوبة على نسله ولم يصب الجنس بسبب سقوط آدم غير الضعف الأدبى وانحراف الصحة الروحية وذلك على قولهم ليس خطية (٢) أن بدء الخلاص هى من الإنسان أى هو يتدبئ أن يطلب الله ثم يأخذ الله فى مساعدته. (٣) أن رجوع النفس إلى الله من الأعمال الصالحة ذات الاستحقاق. (٤) أن الإنسان يشارك الله فى عمل التجديد والتقديس فنصف العمل محسوب لله والنصف الآخر للإنسان. (علم اللاهوت النظامى ص ٦٣٦، ٦٣٧) ولقد اشتهر النظام الأوغسطينى بأنه إيمان الكنيسة الغربية الأرثوذكسى، ولم يكن لإنسان غير موحى إليه تأثير عام بين البابا وبين الإنجيليين نظير ما كان لأوغسطينوس. وكان أهم مسائل الخلاف بين الأوغسطينيين الذين يمثلون فى نظر المسيحيين تعاليم الكتاب المقدس وبين البيلاجيين الذين يمثلون وجهة النظر العقلية تدور حول مسائل الخطية والنعمة (علم اللاهوت النظامى ص ١٣٣، ١٣٨).

جاء فى علم اللاهوت النظامى - فى شأن حال الإنسان الأصلية بعدة أشياء يمكن حصرها فى أمرين :-

الأول: أن الإنسان خلق فى الأصل بدون سجية أدبية أى خاليا من كل صفة أدبية خيراً كان أم شراً.

الثاني: أنه خلق قابلاً للموت أى كان موته محتوماً سواء خطئ أم لم يخطئ^(١) فقد آمن بالإرادة الحرة وشك فى مبدأ الخطيئة الأولى^(٢).

وسوف نتحدث عن هذين الأمرين بشئ من التفصيل - كما هو وارد فى كتب المسيحيين - ثم نعلق على كل واحد منهما.

الأمر الأول: أن الإنسان خلق فاعلاً مختاراً ولكن بدون صفات أدبية، أى ليس باراً أو غير بار ولا قديساً ولا غير قديس، غير أنه قابل أن يصير إلى ما شاء من الحالىين لأنه خلق عاقلاً مختاراً أى أن سجيته متوقفة على كيفية استعمال عقله وإرادته، فإذا عمل حسناً صار باراً والعكس بالعكس، وبما أنهم أنكروا خلق صفة أدبية فى الإنسان رفضوا تعليم البر الأصلى لاعتقادهم أنه مخالف للعقل.

وقد نشأ هذا المذهب عن اعتقادهم أن السجية الأدبية لا تقوم إلا بأعمال الإرادة أو بنتائجها فى فاعلها، أى أن ليس مدحاً أو ذماً عند الديان العظيم لسوى الأعمال، وكذلك ليس للأخلاق الداخلية صفة أدبية إلا إذا انتجت من الأعمال الاختيارية.

ولا ريب فى أن هذا المبدأ كما ينفى البر الأصلى فى آدم ينفى الفساد الذاتى الموروث منه المدعو غالباً بالخطيئة الأصلية^(٣).

وهذا المذهب صائب فى قوله إن الإنسان خلق عاقلاً مختاراً ونتيجة لاستخدام عقله واختياره يصبح باراً أو غير بار.

(١) علم اللاهوت النظامى ص ٥٩٩.

(٢) برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية ج ١ ص ٩٧.

(٣) علم اللاهوت النظامى ص ٥٩٩.

ويتضح ذلك مما جاء فى قصة الخليقة من أن الله أوصى آدم بالأكل من جميع شجر الجنة، وحذره من الأكل من شجرة معرفة الخير والشر.

ألا يظهر واضحاً من هذا التحذير وتلك الوصية أن الله ترك آدم للاختيار، وعن طريق هذا الاختيار يتحدد مصير الإنسان عامة فى نظرهم.

فإن آدم لو لم يخطئ لصار فى النعيم بالحياة الأبدية ولكنه أخطأ فوق فى الضيق والألم، وكان هذا العمل منه واقعاً تحت طائلة عقله واختياره لأن الله قال له (يوم أن تأكل منها موتاً تموت) فكان على آدم أن يختار

نعم إن الله ميز آدم عن باقى المخلوقات ولكن فى هذه النقطة بالذات تركه للاختيار.

جاء فى تفسير أصول الإيمان المسيحى (يجب أن نفكر عندما نقرأ أصول الإيمان أن أبونا الأولين كانا قد تركا حرية إرادتهما" هذا يعنى أن أبونا الأولين كان لديهما أمران هامان.

الأول: كانت لهما الحرية أن يتبعاً طريق الطاعة للحياة أو طريق العصيان للموت كانت لهما الحرية لأنه لم يكن لهما من يجبرهما على السير فى طريق أو فى آخر، حتى الشيطان لم يكن يستطيع أن يجبرهما على عمل ما يريد منهما أن يعملاه، كان يستطيع فقط أن يجبرهما كان يستطيع أن يغويهما لعمل ما يريد منهما أن يعملاه بمحض إرادتهما.

الثانى: كانت لهما المقدرة أن يختارا أياً من الاختيارين^(١).

ومعروف أن هذا الاختيار يقوم على أساس أنه يوجد فى الإنسان (العقل) الذى به يحدد مصيره عن طريق اختياره.

التعليم الثانى فى حال الإنسان الأصلية التى خالف بها اليبلاغيون الكنائس المسيحية هو: أن الإنسان خلق قابلاً للموت. أى كان لابد من موته سواء خطئ أم لم يخطئ، ومقصودهم بذلك نفى كون الموت نتيجة المعصية أو قصاصها،

(١) تفسير أصول الإيمان ج١ ص ٥٢ ، ٥٣.

وإثبات أن آدم كان تحت طائلة الموت ولو لم يسقط وذلك بسبب بنية طبيعته الأصلية^(١).

وأدلتهم على هذا التعليم مقنعة وفيها ما يوافق بعض فقرات الكتاب المقدس، وأدلتهم هي: ١ - بنية آدم الجسدية: قالوا إنها لم تجعل موافقة لدوامه إلى الأبد، بل كانت في ذاتها قابلة للتلاشي، وكان يقتضى لها أن تراح دائماً بالنوم، وتجدد بالطعام فلزم أن تشيخ وتفسد على طريقة طبيعية.

٢ - بنية سائر الحيوانات. قالوا إنه يظهر من تركيب بنية سائر الحيوانات التي تعيش على وجه الأرض أن خالقها لم يقصد بها أن تعيش إلى مالا نهاية، وأنه خلقها ذكراً وأنثى لأجل دوام جنسها بواسطة التوالد، وقالوا هذا يبرهن أن الخالق أراد توالى الأشخاص لا دوامهم، وهو يصدق على الإنسان كما يصدق على غيره من الحيوانات، فيلزم منه أن الإنسان كان معيناً للموت كذلك منذ البدء بدون نظر إلى الخطية.

٣ - قول بولس إن الإنسان من أصل ترابي^(٢) وأن له جسداً طبيعياً وأنه لما كان هذا الجسد غير مؤهل للخلود لأن لحمًا ودمًا كما للإنسان في هذا العالم لا يقدر أن يرث ملكوت الله كان نوال الجسد الروحاني بعد القيامة (١ - كورنثوس ١٥ : ٤٢ - ٥٠) فاستدلوا منه أن الله لم يخلق آدم ليكون خالدًا في هذه الدنيا بدليل أنه لم يؤهله أصلاً كذلك بل ألبسه جسداً شأنه قبول الفساد^(٣).

يقول برتراندرسل (فعلى الرغم من أن هذه الآراء قد تبدو الآن بغير جديد يستوقف النظر إلا أنها قد سببت في ذلك العصر اضطراباً شديداً وأعلن أنها زندقة، وكان ذلك يرجع في أغلبه إلى جهود بذلها القديس أوغسطين، ومع ذلك فقد صادفت نجاحاً ملحوظاً وإن يكن نجاحاً إلى حين^(٤)).

(١) المرجع السابق ص ٦٠٧.

(٢) ويدل على هذا القول ما جاء في سفر الجامعة (من التراب وإلى التراب يعود) ٣ : ٢٠.

(٣) علم اللاهوت النظامي ص ٦٠٧.

(٤) تاريخ الفلسفة الغربية ج ٢ ص ٩٧.

ولما كان هذا الرأى ينفى البر الأصلى والخطيئة الأصلية فإنه بالتالى ينفى عقيدة الخلاص المسيحية القائمة على الخلاص من الخطيئة الأصلية.

لذلك نجد أن هذا الرأى يعلم (أن القصد الأعظم فى رسالة المسيح هو أن يعلم ويؤكد الحقائق التى العقل البشرى مرتاب فيها وهذا ما يفعله بواسطة تعليمه.

ووظيفة المسيح الخصوصية هى التعليم، فإنه قد وضع ناموساً جديداً، وأعطى مثلاً حسناً للحياة المقدسة، وعلم شخصية الله وأوضح تعليم الحياة العتيدة بقيامته.

وأن موت المسيح كان ضرورياً لأجل الاستعداد لقيامته فقط، وقد قصد منه التأثير الأدبى فى الخطاة واستمالتهم إلى التوبة عن الخطيئة وتأكيد حلم الله لهم، لأن إرضاء العدل الإلهى غير ضرورى بموجب رأيهم وهو لا يمكن بواسطة الآم نيابية^(١).

وهكذا تبين أن هذا التعليم يرفض الخطية الأصلية وما يترتب عليها من فساد الطبيعة الموروثة التى تستدعى الخلاص.

لذلك نجد أنه يؤكد أن وظيفة المسيح هى أنه رسول الله يعلم الناس الطريق إلى الله.



الفصل الثالث

سقوط الإنسان في الخطيئة في القصور المسيحي

obeikandi.com

تهديد:

يعتقد المسيحيون أن آدم عاش في الجنة وهو على صورة الله في المعرفة والقداسة والبر، وقد أعطى من النعم ما يضمن له السعادة والابتهاج، وكان عليه أن يحافظ على صورته التي خلقه الله عليها، وأن يحافظ على النعم التي أعطاه الله إياها في الجنة التي وضع فيها، وذلك بألا يقرب شجرة معرفة الخير والشر ولا يأكل منها. كانت هذه هي الوصية التي أعطيت لآدم بعد وضعه في الجنة. ولكن آدم لم يحفظ هذه الوصية وتعداها فسقط وأكل من الشجرة المحرمة وذلك نتيجة لظروف معينة ستظهر واضحة فيما بعد، فلم يبق الإنسان على حالته الأولى كاملاً - كما يقولون - فسقط من عليائه وتحولت حالته من حال السعادة والراحة إلى حال الشقاوة والتعب.

معنى السقوط^(١):

يقول ابن منظور: سقط: السقطة الوقعة الشديدة

سقط، يسقط، سقوطاً فهو ساقط وسقوط: وقع^(٢).

والسقوط يعنى في المسيحية: الوقوع في الخطيئة نتيجة لأكل آدم من الشجرة المحرمة، ولكي يتبين هذا المعنى واضحاً لابد من تعريف الخطيئة.

يقول كلايد تارنر "استعملت عدة كلمات في الكتاب المقدس للدلالة على الانفصال الذي حدث بين الله والإنسان، فقد قيل فيه إنه: تعدّ، إثم، شر، إهانة، معصية، تمرد. ولكن الكلمة المستعملة عادة لوصف سقوط الإنسان هي الخطيئة، هذه

(١) المسيحيون يعبرون عن معصية آدم بالسقوط، وذلك فإن استخدامنا لها باعتبار أنها تعبير مسيحي يصور موقفهم من آدم عليه السلام بعد المعصية.

(٢) لسان العرب ص ٢٠٣٧ ط دار المعارف.

هى الكلمة التى استعملها الله ذاته. فعندما أنذر قابين^(١) قال إن لم تحسن فعند الباب خطية رابضة^(٢).

تعريف الخطيئة^(٣):

جاء فى لسان العرب: تحت كلمة "خطأ"

الخطأ، والخطاء: ضد الصواب، وقد أخطأ. وأخطأ الطريق: أى عدل عنه، وأخطأ الرامى الغرض: لم يصبه.

وخطئ الرجل يخطئ خطأ وخطأة على "فعله": أذنب^(٤).

فالخطيئة تعنى لغويا: الذنب.

ويقال للفرد الذى أخطأ: حاد عن طريق الصواب. ولقد جاءت كلمة "الخطيئة" فى الكتاب المقدس بمثل بعض هذه المعانى اللغوية.

يقول إيلياس مقار: "إن الخطيئة ومشتقاتها فى الأصل اللغوى" تعنى "القصور" أو "عدم بلوغ الهدف" أو "الانحراف" إذ الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله^(٥).

وتعنى "البطل" أو "العدم" كالقول "ماذا وجد فى آباؤكم من جور حتى ابتعدوا عنى وساروا وراء الباطل وصاروا باطلاً"^(٦).

وكقول بولس "إذا خضعت الخليقة للبطل"^(٧).

وتعنى أيضاً "التمرد" أو "العصيان"

(١) تكوين ٤ : ٧.

(٢) كلايد تارنر: هذه عقائدنا ص ٦٤.

(٣) والخطيئة على فييلة: الذنب ولك أن تشدد الياء لأن كل ياء ساكنة قبلها كسرة، أو واو ساكنة قبلها ضمة، وهما زائدتان للمد لا للإلحاق ولا هما من نفس الكلمة، فإنك تقلب الهمزة بعد الواو واوا وبعد الياء ياء وتدغم وتقول فى مقروء: مقروء، وفى خبي: خبي بتشديد الواو والياء. لسان العرب ص ١١٩٣، أى يجوز أن يطلق على هذه الكلمة خطيئة وخطية.

(٤) لسان العرب ص ١١٩٢، ١١٩٣.

(٥) رومية ٣ : ٢٣.

(٦) إرميا ٢ : ٥.

(٧) رومية ٨ : ٢٠.

كما تعنى أيضاً "عدم الاستقرار" فى القول "أما الأشرار فكالبحر المضطرب لأنه لا يستطيع أن يهدأ أو تقذف مياهه حمأة وطيناً. ليس سلام قال إلهى للأشرار"^(١) وتعنى "الخيانة" "فمات شاول بخيائته التى خان بها الرب من أجل كلام الرب الذى لم يحفظه"^(٢).

كما جاءت بمعانى "مرض" أو "ذنب" أو "خراب" أو "ضيق" أو "تعب" أو "تعد" وهذه الألفاظ تساعدنا على الحالة التى وجد فيها آدم بالسقوط، إذ لم يعد الإنسان البار السليم الصحيح، بل الإنسان المريض المنحرف الخائن المتمرد القاصر المتعب المتعدى المذنب غير المستقر^(٣).

وهذه المعانى توضح تصور المسيحيين لحالة آدم بعد المعصية، وذلك لأن المعانى اللغوية التى أوردها القس فيها تزايد على المعانى الواردة فى اللغة العربية لكلمة خطيئة، فليس من معانيها فى اللغة العربية (العدم) ولا (الخراب) ولا (والضيق)، وإنما هى معانى تنطبق على تصورهم لحالة آدم بعد الخطيئة.

الخطيئة فى اصطلاح المسيحيين:

والخطيئة بوجه عام تعنى لدى المسيحيين^(٤): التعدى على شريعة الله وأحكامه أو عدم الامتثال لشريعة الله. ويدل على ذلك ما ورد "كل من يفعل الخطية يفعل التعدى أيضاً، والخطية هى التعدى"^(٥).

يقول القس / لبيب ميخائيل: إن الكتاب المقدس وضع تعريفات واضحة للخطية نذكرها فيما يلى:

(١) أشعيا ٥٧: ٢٠ - ٢١.

(٢) أخبار الأيام الأول ١٠: ١٣.

(٣) القس إلياس مقار: قضايا المسيحية الكبرى ص ٣٧٢ - ٣٧٣.

(٤) راجع فى ذلك: قاموس الكتاب المقدس ص ٣٤٤، شرح أصول الإيمان ص ١٠٣، تفسير أصول الإيمان ج ١ ص ٥٢.

(٥) ١ يوحنا ٣: ٨.

(٥) ١- يوحنا ٣: ٤.

١ - الخطية هي التعدى على قانون الله، وهذا يعنى أن الشخص الذى يخطئ يتعدى الحدود المرسومة فى ناموس الله ويدخل فى منطقة محرمة لا يصح له دخولها "لأن من حفظ كل الناموس وإنما عثر فى واحدة فقد صار مجرمًا فى الكل لأن الذى قال لا تزن قال أيضاً لا تقتل فإن لم تزن ولكنك قتلت فقد صرت متعديا الناموس"^(١).

٢ - الخطية هي إهمال ناحية الخير فى الحياة: يضع يعقوب تعريفاً للخطية فيقول "من يعرف أن يعمل حسناً ولا يعمل فذلك خطية له"^(٢).

٣ - الخطية هي كل ما ليس من الإيمان "كل ما ليس من الإيمان فهو خطية"^(٣).

٤ - الخطية هي كل إثم نرتكبه. فى رسالة يوحنا الأولى نجد هذا التعريف "كل إثم هو خطية"^(٤).

٥ - الخطية هي فكر الحماقة: يعرف صاحب الأمثال الخطية فى هذه العبارة "فكر الحماقة خطية"^(٥).

٦ - الخطية هي نور الأشرار: وهذا تعريف آخر لصاحب الأمثال "طموح العينين وانتفاخ القلب نور الأشرار خطية"^(٦) ثم قال "هذا هو التعريف الكتابي للخطية"^(٧).

وهذه التعريفات عبارة عن أوصاف للخطيئة أو أوصاف للشخص المخطئ ويجمعها التعريف الذى أوردناه فى قائمة التعريفات التى ذكرها.

(١) يعقوب ٢: ١٠ ، ١١.

(٢) يعقوب ٤: ١٧.

(٣) رومية ١٤: ٢٣.

(٤) ١ - يوحنا ٥: ١٧.

(٥) أمثال ٢٤: ٩.

(٦) أمثال ٢١: ٤.

(٧) القس ليب ميخائيل: صوت الاختبار ص ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦ بتصرف شديد، يقين الخلاص ص ١١٨.

والخطيئة من الناحية الإيجابية - كما يقول عوض سمعان - ليست هي عمل الشر فحسب كما يظن كثير من الناس، بل إنها مجرد التفكير فيه، أو الميل إليه، أو التحدث به (فكر الحماسة الخطيئة) و"من نظر إلى امرأة ليشتيهها فقد زنى بها في قلبه"^(١) "وكل من يبغض أخاه فهو قاتل نفسه"^(٢) "وكل كلمة بطلاة يتكلم بها الناس سوف يعطون عنها حساباً يوم الدين"^(٣) ومن قال يا أحمق يستوجب نار جهنم"^(٤) "ولا غرابة في ذلك فهذه الاعمال تدل على انحراف نفس فاعلمها عن كمال الله - وانحراف النفس عن كمال الله هو الخطيئة بعينها"

ومن الناحية السلبية ليست هي التقصير في عمل الخير فحسب كما يظن كثير من الناس، بل إنها أيضاً الانشغال بأمور الدنيا عن الصلة بالله وتنفيذ مشيئته في هذه الحياة كما قال "فمن يعرف أن يعمل حسناً ولا يعمل فذلك خطيئة له"^(٥).

وقال أيضاً إن محبة العالم - أو بالأحرى الانصراف إليه - عداوة لله"^(٦) وإن "الأشرار يرجعون إلى الهاوية كل الأمم الناسين الله"^(٧) ولا غرابة في ذلك، فالله ليس فقط صالحاً ويطلب الصلاح، بل أيضاً خالقنا وصاحب الفضل علينا. ومن الواجب أن يكون له المقام الأول في حياتنا"^(٨).

أقسام الخطيئة:

والخطيئة في نظر المسيحية نوعان"^(٩):

(١) متى ٥ : ٢٨.

(٢) ١ - يوحنا ٣ : ١٥.

(٣) متى ١٢ : ٣٦.

(٤) متى ٥ : ٢٢.

(٥) يعقوب ٤ : ١٧.

(٦) يعقوب ٤ : ٤.

(٧) مزمور ٩ : ١٧.

(٨) عوض سمعان : طريق الخلاص ص ٩ - ١٠.

(٩) هذا التقسيم هو السائد بين المسيحيين. ولكن هناك بعض المسيحيين الذين يقسمون الخطيئة إلى ثلاثة أنواع: ١ - خطيئة آدم الأولى ٢ - فقدان البر الأصلي ٣ - المخالفات الفعلية. (شرح أصول الإيمان ص ١١٨) وذلك على اعتبار أن فقدان البر الأصلي مرحلة أخرى بعد خطيئة آدم.

أصلية : وهى التى يولد الإنسان بها

وفعلية : وهى التى يرتكبها الفرد.

جاء فى "علم اللاهوت النظامى" وهى - أى الخطية - نوعان :

أصلية ، وفعلية ، أى مالنا بالوراثة ، ومالنا بأعمالنا الاختيارية. الأمر الجوهرى فيها هو نسبتها إلى شريعة الله ، أى أنها مخالفة لها أو عدم الامثال لها. وهى تتضمن الفساد والجرم ، أى تستحق الدينونة أمام قداسة الله وأمام عدله أيضاً^(١).

فالأصلية لا تعنى - فى نظرهم - أن الإنسان الأول خلق بها (فقد خلق الإنسان الأول بريئاً ، ثم دخلت الخطية إلى حياته وفكره عن طريق خطية آدم وحواء ، ومن ثم سيطرت على الجنس البشرى كله) كما هو مكتوب : إنه ليس بار ولا واحد ، ليس من يفهم. ليس من يطلب الله الجميع زاغوا وفسدوا معا. ليس من يعمل صالحاً ليس ولا واحد^(٢) ويقولون وصف داود حالته بسبب الخطية الأصلية قائلاً : (هأنذا بالإثم صورت ، وبالخطية حبلت بى أُمى)^(٣) انتقلت الخطية إلى الجنس البشرى بأسره لكنها لم تخلق فى الإنسان الأول قبل السقوط^(٤).

يتبين لنا مما سبق أن المسيحين يميزون بين مرحلتين :

المرحلة الأولى : وهى قبل السقوط ، وفيها الإنسان بدون خطية.

المرحلة الثانية : وهى ما بعد السقوط ، وفى هذه المرحلة دخلت الخطية إلى العالم نتيجة لخطأ آدم وحواء ، ثم انتقلت الخطيئة إلى الجنس البشرى كله ، فأصبحوا يولدون بخطية أصلية أى سابقة عليهم وأصلية فيهم.

ولذلك فللخطيئة الأصلية تعريف لدى المسيحيين :

(١) علم اللاهوت النظامى ص ٨١٩.

(٢) رومية ٣ : ١٠ - ١٢.

(٣) مزمور ٥١ : ٥

(٤) القس صموئيل حبيب : الخلاص فى مفهومه الكتابى والتطبيقات ص ٢٢.

ففى علم اللاهوت النظامى أن التعريف السلبي هو أن الخطية الأصلية (أى فساد الطبيعة المأخوذ من آدم) ليست :

١ - فساد ذات النفس أو جوهرها ، فإن جوهر النفس لا يتغير بالسقوط ولا قبل الولادة الثانية ولا بعدها ، بل تتغير أميالها وأحوالها ، ففسادها الأصلى لا يمس جوهرها ، بل أخلاقها وطبائعها وميل الإرادة فيها ، لأنها انخرفت عن الصلاح وحادت عن الحق.

٢ - ولا عنصراً مدخلاً إليها ممزوجاً بها كما يمزج السم بالخمر.

٣ - ولا فقد شيء من القوى لأنها لا تزال حائزة جميع قواها.

وأما التعريف الإيجابى فهو أن الخطية الأصلية :

١ - فساد عام فى أحوال كل قوى النفس ، غير أنه لا يمس جوهرها بل أميالها فقط. وهذا يتضمن القضايا الآتية وهى : خلوها من البر الأصلى ، وفساد طبيعة الإنسان الأدبية ، فساداً تاماً يشمل الحيدان عن الله ، وعن كل خير روحى ، والميل إلى كل شر ، وأن كل ذلك يحسب خطية بالطبع لا محالة.

٢ - أن الخطية غير منفكة عن قلوب البشر حتى المتجددين ، بل تحفظ فيهم إلى درجات مختلفة سجيئتها الشريرة.

٣ - أنها "تمت النفس روحياً فالإنسان الطبيعى أو غير المتجدد"^(١) عاجز كل العجز من لقاء ذاته عن كل عمل صالح لدى الله"^(٢).

فالخطية الأصلية تعنى عند المسيحيين : الفساد الأصلى لكل أحوال وقوى النفس ، بمعنى أن هذه القوى قد أصابها الفساد نتيجة للخطية الأولى ، وهذا الفساد

(١) أى غير المؤمنين بالمسيح ، لأنهم يعتبرون أن الذى آمن بالمسيح خلص ، وكما قلنا سابقاً فإن من معانى الخلاص : التجديد.

(٢) علم اللاهوت النظامى ص ٦٧٣.

عبارة عن خلو النفس من البر الأصلى والمعرفة الأصلية والقداسة الأصلية تلك التى خلق الإنسان على صورة الله فيها. "والكتاب المقدس يعلم أن هذا الفساد الأصلى موروث أى أنه خاص بالطبيعة البشرية لا مكتسب من معاشرة الأشرار بعد الولادة"^(١) أما لماذا يسمى المسيحيون هذه الحال الناقصة والفاصلة التى يولد عليها جميع البشر منذ السقوط بالخطية الأصلية؟ فإنهم يجيبون على ذلك بما يأتى:

١ - لأنها خطية بالطبع لا مجرد بلية أو حادثة محزنة.

٢ - لأنها صدرت عن آدم باعتبار كونه أصل جنسنا.

٣ - لأنها أصل جميع الخطايا الأخرى.

٤ - لأنها تمتاز طبعاً عن الخطايا الفعلية^(٢).

أما الخطايا الفعلية فهى التى يفعلها المرء بعد ولادته، أى يكتسبها الفرد بعد ولادته. وهذه الخطايا تكون نتيجة للخطية الأصلية، أى نتيجة لحالة الفساد الذاتى لكل أحوال وقوى النفس.

يقول القس / صموئيل حبيب (إن الخطية ليست مجرد الأعمال الخاطئة التى تصدر عن الإنسان، بل هى حالة الفساد التى فى الإنسان والتى بسببها تصدر الخطايا الأخرى^(٣)).

عامل السقوط فى الخطيئة فى التصور المسيحى:

إن قصة السقوط كما يرويها الكتاب المقدس يظهر فيها أن عامل السقوط هو الحية^(٤).

الحية فى الكتاب المقدس: يفهم من عباراته أن الحية كانت قبل السقوط لها ملامح أخرى وصفات أخرى غير التى نراها بها الآن وذلك نتيجة لأن الله لعنها

(١) المرجع السابق ص ٦٧٤.

(٢) المرجع السابق ص ٦٧٢.

(٣) الخلاص فى مفهومة الكتابى والتطبيقات ص ٢١.

(٤) كلايد تارنر: هذه عقائدنا ص ٥٤ ..

لأنها هي التي قامت بعملية الإغواء لحواء وآدم، بل سخطها وجعلها تمشى على بطنها "فقال الرب الإله للحية لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية على بطنك تسعين وتراباً تأكلين"^(١).

يفهم من هذه الفقرة أنها كانت قبل اللعنة بوصف آخر غير هذا الوصف. يقول كلايد تارنر: أما كيف كان شكل الحية ومظهرها وميزاتها الخاصة قبل السقوط فهو على الراجح أمر غامض يصورها البعض مخلوقاً جميلاً يسير منتصباً لا زاحفاً على الأرض^(٢).

والحية في الكتاب المقدس بوجه عام: أحيل جميع حيوانات البرية^(٣)، حيوان يزحف على بطنه^(٤)، لها رأس وذنب^(٥) لكن ليس لها أطراف، تسمى اسماً شاملاً في العبرية نحاش، وإذ تتلوى في سيرها يكون قمها معرضاً للاحتكاك بالتراب الذي تلحسه^(٦)، ولدغة بعض أنواعها تصب سماً مميتاً في الجرح^(٧) وبعضها يمكن أن يرقى^(٨).

والحية موجودة في البرية وفي المناطق المأهولة، وعلى الطرق، وفي السياجات وعلى الصخور وفي الجدران^(٩). أما الحيات المحرقة فهي التي أرسلها الرب على شعب إسرائيل فلدغتهم وسببت الموت. جاء في سفر العدد (فأرسل الرب على الشعب الحيات المحرقة فلدغت الشعب فمات قوم كثيرون من بني إسرائيل)^(١٠).

(١) تكوين ٣ : ١٤.

(٢) كلايد تارنر : هذه عقائدنا ص ٥٤ ، ٥٥.

(٣) تكوين ٣ : ١.

(٤) تكوين ٣ : ١٤.

(٥) تكوين ٣ : ١٥.

(٦) ميخا ٧ : ١٧ ، تكوين ٣ : ١٤.

(٧) عدد ٢١ : ٦ ، مزمو ٥٨ : ٤ ، أمثال ٢٣ : ٣٢.

(٨) جامعة ١٠ : ١١.

(٩) تكوين ٤٩ : ١٧ ، أمثال ٣٠ : ١٩ ، جامعة ١٠ : ٨ ، عاموس ٥ : ١٩.

(١٠) عدد ٢١ : ٦.

أما الحية النحاسية: فهي شكل حية محرقة صنعها موسى وأقامها على عمود فى البرية - حسب ما جاء فى الكتاب المقدس - لكى ينظر إليها بنو إسرائيل الذين لدغتهم الحيات المحرقة. (فأتى الشعب إلى موسى وقالوا قد أخطأنا إذ تكلمنا على الرب وعليك فصل إلى الرب ليرفع هنا الحيات، فصلى موسى لأجل الشعب. فقال الرب لموسى أصنع لك حية محرقة وضعها على راية فكل من لدغ ونظر إليها يحيا، فصنع موسى حية من نحاس ووضعها على الراية فكان متى لدغت حية إنسانا ونظر إلى حية النحاس يحيا)^(١).

وفى السنين التالية بدأ العبرانيون يستخدمونها كصنم فحطمها حزقيا (وعمل - حزقيا - المستقيم فى عينى الرب حسب كل ما عمل داود أبوه - هو أزال المرتفعات وكسر التماثيل وقطع السوارى وسحق حية النحاس التى عملها موسى لأن بنى إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها ودَعَوْهَا - أى حزقيا - نُحْشَتَان)^(٢) أى قطعة نحاس فقط كما فى إحدى الترجمات^(٣).

❖ وأما قصة إغواء الحية لحواء وآدم فإننا نترك المجال للكتاب المقدس لوصف هذا الإغواء حيث يقول (وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التى عملها الرب الإله. فقالت للمرأة أحقا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة. فقالت المرأة للحية من ثمر شجر الجنة نأكل. وأما ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمسها لئلا تموتاه. فقالت الحية للمرأة لن تموتا. بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة العيون وأن الشجرة شهية للنظر فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضا معها فأكل. فانفتحت أعينهما وعلمتا أنهما عريانان. فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر)^(٤).

(١) عدد ٢١ : ٧ - ٩.

(٢) ملوك ثانى ١٨ : ٣، ٤.

(٣) قاموس الكتاب المقدس ص ٣٣٣.

(٤) تكوين ٣ : ١ - ٧.

فالحية استخدمت أساليبها في إغواء حواء، لكي تأكل من شجرة المعرفة، فأكلت حواء منها وأعطت آدم فأكل، فسقطا في الخطيئة.

ووجهة النظر المسيحية الشائعة تشير إلى أن القوة الشيطانية استخدمت الحية لفعل الإغواء لحواء وآدم "فالشيطان أخفى روحه عن آدم وحواء في حية"^(١).

ويشرح (جرها ردوس فوس) الآراء التفسيرية لاتصال الحية بالروح الشريرة فيقول: هناك أكثر من رأى لتفسير ذلك: أما الرأى العصرى الذى يبغض الاعتراف بصحة الكتاب المقدس فهو يرى أن القصة كلها مجرد قطعة رمزية لم يقصد الكاتب منها وصف حادثة واحدة محدودة بل محاولات مستمرة للخطية للدخول إلى قلب الإنسان، وهكذا تكون الحية رمزاً أو مجازاً مثل بقية القصة.

وهذا الرأى يتنافى مع هدف القصة الواضح والتي تتحدث عن حية فعلية يقارن بينها وبين جميع الحيوانات التى خلقها الله، فإن كانت الحيوانات الأخرى حقيقية فلا بد أن يكون الحية حية حقيقية وليست شيئاً آخر.

وفى تكوين ٣: ١٤ نجد العقاب ينطق به بعبارات تستلزم وجود حية حقيقية.

على أن البعض الآخر قد ذهب إلى أقصى الطرف المقابل وهو أنه لم يكن سوى حية والاقتراسات التى أشرنا إليها^(٢) قد تتفق مع هذا الرأى أكثر مما مع الرأى الأول، ولكن مما لا يتفق مع تعليم الكتاب المقدس عن الحيوانات أن نرى حية - مجرد حية - تتكلم.

إن الكتاب يفرق بين الآدميين الذين لهم اللسان الناطق وبين العجماوات التى لا تستطيع البيان وليس هناك سوى استثناء واحد هو أتان بلعام^{(٣)(٤)}.

(١) الأناباسا ويرس: الدر الثمين فى إيضاح الدين ص ٣٣.

(٢) أى الاقتباسات من سفر التكوين الإصحاح الثالث (وهى اقتباسات خاصة بإغواء الحية لحواء وآدم وسقوطهما فى الخطيئة).

(٣) وكلام أتان بلعام وارد فى سفر العدد، ذلك أن بلعام ضرب أتان ثلاث مرات (ففتح الرب فم الأتان فقالت لبلعام ماذا صنعت بك حتى ضربتني الآن ثلاث دفعات فقال بلعام للأتان لأنك ازدرت بى لو كان فى يدي سيف لكنت الآن قد قتلتك، فقالت الأتان لبلعام ألسنت أنا أتانك التى ركبت عليها منذ وجودك إلى هذا اليوم هل تعودت أن أفعل بك هكذا قال: لا.. إلى آخره) ٢٢: ٢٨ - ٣٠.

(٤) جرها ردوس فوس: علم اللاهوت الكتابي، ترجمة د/ عزت زكى ص ٥٩.

وهكذا يصور لنا هذا الكتاب المسيحى التفسيرات الخاصة بإغواء الحية لحواء، فيذكر أن هناك من ينكر صحة هذه القصة مفسرا إياها بأن الحية رمز أو مجاز، ثم يشير إلى عدم صحة هذا رأى.

أما الرأى الثانى فيقول بصحة هذه القصة، غير أن الحية لم تكن سوى حية، أى أن أصحاب هذا الرأى ينكرون استخدام الشيطان للحية وهو ينكر هذا الرأى أيضا

واعتراضه عليه ينحصر في أن خاصية الحيوانات عدم الكلام بلسان يفهمه الآدمي ويقول إن هذا تعليم الكتاب المقدس، ثم يأتي فيستثنى كلام الأتان بلعام. ونحن بدورنا نقول: لماذا يستثنى كلام الأتان ولا يستثنى كلام الحية أيضاً؟ خاصة وأنه لادلالة صريحة أو غير صريحة في العهد القديم أن وراء - الحية روحاً شريرة قد تقمصت فيها: إن هذا تحكم لا أصل له.

وفي علم اللاهوت النظامي "جواب على مثل هذا فيقول:

أما كيف أمكن للحية أن تتكلم؟ فليس في كلام الحية من الصعوبة أكثر مما في سماع كلام مفهوم من سيناء أو لصوت من السماء عند معمودية المسيح، أو كلام أتان بلعام^(١).

والمراد بالكلام المفهوم من سيناء ما جاء في سفر الخروج من أن موسى كان يرعى الغنم في البرية "وجاء إلى جبل الله حوريب - أي جبل سيناء - وظهر له ملاك الرب بلهب نار من وسط عليقة. فنظر وإذا العليقة تتوقد بالنار والعليقة لم تكن ت احترق. فقال موسى أميل الآن لأ نظر هذا المنظر العظيم. لماذا لا ت احترق العليقة. فلما رأى الرب أنه مال لينظر ناداه الله من وسط العليقة، وقال موسى موسى. فقال هأنذا فقال لا تقترب إلى ههنا اخلع حذاءك من رجليك. لأن الموضع الذى أنت واقف عليه أرض مقدسة"^(٢).

(١) علم اللاهوت النظامي ص ٦٢٢.

(٢) خروج ٣: ١ - ٥.

والمراد بالصوت المسموع عند المعمودية المسيح هو ما جاء في العهد الجديد من أن روح الله نازلة من السماء مثل الحمامة وهي تقول (هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت) (فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء وإذا بالسموات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلاً مثل الحمامة وآتياً عليه وصوت من السموات قائلاً هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت)^(١).

فليس كلام الحية بأصعب من الكلام الذي وقع لموسى من وسط عليقة والكلام أيضاً للمسيح من الروح التي هي مثل الحمامة.

وعليه فإن اعتراض (جرها ردوس فوس) على الرأي الثانى بحجة أن الحية لا تتكلم ولا تستطيع البيان غير مقبول للأدلة السابقة التى ذكرناها. ويبقى القول بأن الحية هى عامل الإغواء لا إبليس هو ما صرح به الكتاب المقدس عندهم. أما الرأي الذي يرتضيه (جرها ردوس) وأكثر المسيحيين فهو كما يقول: وعلى ذلك لم يبق أمامنا إلا الرأي التقليدي القديم الذي يسلم بوجود حية حقيقية وقوة شيطانية استخدمت هذه الحية مطية لتنفيذ مخططها، وليس هذا أمراً مستحيلاً، وإننا لنجد في الأنجيل ما يماثل ذلك، حيث استخدم الشيطان الإنسان وتحدث بلسانه والحفريات الأثرية الحديثة قد أيدت صحة هذا الرأي القديم، لأنه في الرموز البابلية تبدو الحية ومن خلفها صورة شيطانية، وبالإضافة إلى ذلك فهناك شهادة الكتاب الواضحة عن وجود روح شرير وراء التجربة، صحيح أن العهد القديم لا يلقي ضوءاً على هذا الموضوع، وذلك لسبب مزدوج فمن جانب أنه نادر ما يشار إلى حادث السقوط هناك، ومن الجانب الآخر أن موضوع الأرواح الشريرة بمجملته و"الشيطان" و"المقاوم ظل خافياً"^(٢).

وخلاصة أدلتهم على أن وراء الحية قوة شيطانية ما يلي :

(١) متى ٣ : ١٦ ، ١٧ ، مرقس ١ : ٩ - ١١ ، لوقا ٣ : ٢١ ، ٢٢ .

(٢) جرهاردوس : علم اللاهوت الكتابي ص ٥٩ ، ٦٠ .

١ - أن الأناجيل تشير إلى استخدام الشيطان للإنسان.

٢ - الحفريات الحديثة أكدت وجود الصور الشيطانية وراء الحية في الرموز البابلية. وفي النهاية يحاول الكاتب المسيحي أن يوجد مبرراً لعدم ذكر ذلك في العهد القديم.

وسوف نناقش ذلك كله فيما يأتي :-

إما قوله إن استخدام الشيطان للحية ليس مستحيلاً لأنه يماثل ما جاء في الإنجيل من أن الشيطان استخدم الإنسان وتحدث بلسانه فنحن نقول إن هذا ليس دليلاً على استخدام الشيطان للحية لأن المفارقة بين الأمرين بعيد: أولاً: أن الحية حيوان والحيوان لا يستطيع التحدث بينما الإنسان حيوان ناطق يستطيع التحدث.

ثانياً: أن الإنسان أفضل مخلوقات الله، وأن الله ميزه عن المخلوقات كلها بآلة التمييز وهي العقل للتمييز بين الخير والشر، وذلك لأن طبيعته قابلة للخير والشر. فالله ميزه بالعقل التي هي آله التعقل والتمييز والإدراك حتى يميز بين ما هو خير له وبين ما هو شر له، والطبيعة الإنسانية لاشك أنها مكونة من ناحية روحية وناحية جسدية وكل منهما يحاول إشباع رغباته، فإذا غلبت الناحية الجسدية انحدر الإنسان إلى الناحية الشريرة التي تتمثل في إشباع الرغبات والشهوات والنزعات الجسدية، فإذا دخل الشيطان للإنسان من هذه الناحية فإنه لم يخلق في الإنسان طبيعة جديدة على طبيعته، لأن طبيعته قابلة للخير والشر، والإنسان يعمل الشر وهو يعلم أنه شر.

وذلك بخلاف الحيوانات التي ليس من طبيعتها التعقل والتمييز، بمعنى أنها ليست مكلفة فإن طبيعتها واحدة، وهي بذلك مسخرة للإنسان وحده.

وأما استدلاله على استخدام الشيطان للحية بأن الحفريات الأثرية الحديثة تؤيد ذلك الرأي عن طريق الرموز البابلية التي تبدو الحية فيها ومن خلفها القوة الشيطانية.

فإننا نقول إنه دليل إدانة، لأن الأساطير البابلية كانت تملأ الجو الذي عاش فيه اليهود خلال السبي البابلي، وتأثرهم بهذه الفترة مسلم به لدى الباحثين إذ أنها كانت بمثابة التحضر لهم.

والثابت تاريخياً أن اليهود ما كتبوا التوراة إلا بعد رجوعهم من السبي.

معنى ذلك أنها كانت توجد في الأساطير البابلية قبل أن توجد بين اليهود ولا شك أن السابق يؤثر على اللاحق.

ويكفي من دليل على أن العهد القديم الذي هو أساس العقائد المسيحية ومصدرها لا يذكر شيئاً عن هذا الاستخدام.

أما ما ساقه الكاتب المسيحي من مبررات فلا تعتبر دلائل إنما هي أعذار لعدم ذكرها، وهذه الأعذار غير مقبولة، وهل تقبل أعذار لعدم ذكر عقيدة في المصدر الأساسي؟

فلا دليل من العهد القديم على أن الموسوس لحواء وآدم هو الشيطان وعمدة الدليل من العهد الجديد ما جاء في سفر الرؤيا "فطرح التنين العظيم الحية القديمة المدعو إبليس والشيطان الذي دخل العالم كله"^(١).

وأيضاً "فقبض على التنين الحية القديمة الذي هو إبليس والشيطان"^(٢).

وكما قلنا سابقاً فإن رؤيا يوحنا مشكوك في صحة نسبتها إلى يوحنا الرسول لذلك اختلف المسيحيون حول كاتبها^(٣) هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فإن الكنيسة

(١) رؤيا يوحنا ١٢ : ٩.

(٢) رؤيا يوحنا ٢٠ : ٢.

(٣) يقول د القس / فهم عزيز (هناك شبه اتفاق بين علماء الكتاب المقدس على أن كاتب الإنجيل لا يمكن أن يكون هو نفسه كاتب سفر الرؤيا وهذا الرأي ليس حديثاً ولكنه يرجع إلى أوريجانوس رئيس المدرسة اللاهوتية بالإسكندرية الذي بنى ذلك على الاختلاف الواضح بينهما). (المدخل إلى العهد الجديد ص ٥٧٥ ويقول ول ديورانت) (وقد يبدو من غير المعقول أن يكون كاتب الرؤيا هو نفسه كاتب الإنجيل الرابع ذلك أن سفر الرؤيا يهودي وأن الإنجيل فلسفة) قصة الحضارة ج ٣ من المجلد الثالث ص ٢٧٤.

ترددت في قبول سفر الرؤيا لكي يكون من الكتب القانونية، فلم تعترف به في مجمع نيقية الذي حدد الكتب القانونية وإنما قبلته في مجمع لوديسا ٣٦٤م^(١).

وبرغم أنه اعترف بقانونية هذا السفر إلا أن هناك من الكنائس من لم تعترف به إلا في وقت متأخر.

يقول القس/ فهميم عزيز: أما الكنيسة السريانية فلم تضعه من ضمن الكتب المقدسة إلا في القرن الثاني عشر الميلادي^(٢).

وعموم القول فإننا ناقشنا هذه الفكرة لأن البحث العلمي يفرض نفسه علينا، ومع ذلك فإننا نسير مع البحث ونتنقل بعد ذلك إلى بيان أنه إذا كان الشيطان هو سبب الإغواء فلا بد من معرفة الشيطان في نظر المسيحية، وعداوته لآدم، وسبب عداوته.

الشيطان

واسم "الشيطان" بالألف واللام هو أشهر أسماء قوى الشر لأنه ورد في كتب الديانات الثلاث ودخل في تعبيرات اللغات الأوربية بلفظه المنقول عن اللغات السامية^(٣).

وهذه الكلمة ترجمة الكلمة العبرية "شطن" ومعناها "مقاوم"^(٤).

ولقد ورد الشيطان في الكتاب المقدس بأسماء عديدة مثل:

❖ "رئيس سلطان الهواء" يقول بولس "وأنتم إذ كنتم أمواتا بالذنوب والخطايا التي سلكتم فيها قبلا حسب دهر هذا العالم حسب رئيس سلطان الهواء الروح الذي يعمل الآن في أبناء المعصية"^(٥).

(١) راجع المدخل إلى العهد الجديد ص ١٥٤، علم اللاهوت النظامي ص ٩٨.

(٢) المدخل إلى العهد الجديد ص ٦٤١.

(٣) العقاد: كتاب إبليس ص ٣٢.

(٤) قاموس الكتاب المقدس ص ٥٣٣.

(٥) أفسس ٢: ١ - ٣.

❖ وأيضاً سمى "بليعال" يقول بولس "وأي اتفاق بين المسيح وبليعال" ^(١).

وبليعال: اسم عبري معناه "عديم الفائدة" أو "شرير". وهو اسم كان كتاب الأسفار المقدسة يلقبون به كل من كان ذميماً أو لثيماً لا يخاف الله ولا يهاب إنساناً ^(٢).

❖ وأطلق عليه "رئيس هذا العالم" يقول يوحنا "أجاب يسوع وقال ليس من أجلي صار هذا الصوت بل من أجلكم، الآن دينونة هذا العالم. الآن يطرح رئيس هذا العالم خارجاً" ^(٣).

يقول الأنبا ساويرس: وإن شك أحد أن رؤساء هذا الدهر ليسوا هم إبليس وجنوده، فإن الإنجيل المقدس يزيل شكه، لأنه في عدة مواضع يسمى إبليس رئيس هذا العالم، على أن بولس أيضاً يظهر لنا في رسائله في عدة مواضع أن رؤساء هذا الدهر هم الشياطين، لأنه يقول في رسالته إلى أهل أفسس (إنه من الآن يا أخوتي تقووا في الرب وفي شدة قوته، ألبسوا سلاح الله الكامل لكي تقدرُوا أن تثبتوا ضد مكاييد إبليس، فإن مصارعتنا ليست مع دم ولحم، بل مع الرؤساء، مع السلاطين، مع ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر، مع أجناد الشر الروحية في السماويات) ^(٤) فهذا قول ظاهر أظهر لهم فيه أنهم رؤساء وولاة هذا العالم المظلم لأنهم ملكوه لما ملكوا على آدم وذريته بطاعتهم له ^(٥).

❖ وأطلق عليه القتال، والكذاب، وأبو الكذاب. يقول المسيح لليهود الفريسيين فيما ينقله يوحنا في إنجيله (أنتم من أب هو إبليس وشهوات أيكم تريدون أن تعملوا. ذاك كان قتالاً للناس من البدء ولم يثبت في الحق لأنه ليس فيه حق. متى تكلم بالكذب فإنه يتكلم بما له لأنه كذاب وأبو الكذاب" ^(٦)).

(١) ٢ كورنثوس ٦ : ١٥.

(٢) قاموس الكتاب المقدس ص ١٨٩.

(٣) يوحنا ١٢ : ٣٠ ، ٣١.

(٤) أفسس ٦ : ١٠ - ١٢.

(٥) الأنبا ساويرس: الدر الثمين في إيضاح الدين ص ٤٣.

(٦) يوحنا ٨ : ٤٤.

❖ وأشهر أسماء "الشیطان الأكبر" "إبليس".

يقول د/ بطرس عبد الملك: أصل الاسم في اللغة اليونانية "ديابوس"، ومعناه "المشتكي زورا"، أو "الثالب"، والكلمة (ديابوس) في العهد الجديد باللغة اليونانية ترجمت في العربية في معظم الأماكن بكلمة "إبليس"، وفي مواضع قليلة ترجمت "بالشیطان" أو "الثالب" وهو "روح شرير" أو "شیطان"^(١) يقول العقاد "يختلف اللغويون في أصله كما يختلفون في نسبة كلمة شیطان إلى إحدى اللغات السامية، والمتكلم العربي يفهم من وصف إنسان من الناس بأنه إبليس كل ما يريده القائل من هذه الصفة، فهي دالة في كلام الخاصة والعامة على الدس والفتنة والدهاء والسعي بالفساد.

ويرى بعض الغربيين أن الكلمة في أصلها يونانية من كلمة (ديابلوس) التي تفيد معنى الاعتراض والدخول بين شيئين كما تفيد معنى الوقعة، وأصلها في اليونانية من "ديا" بمعنى "أثناء" و"بالين" بمعنى يقذف أو يلقي، ومعنى الكلمتين قريب من معنى الاعتراض والدخول بين الشيئين أو قريب من ثم إلى معنى الوقعة^(٢).

ثم يقول "وعندنا أن هذا التركيب أضعف من قول القائلين إن كلمة "ديفل" أي الشيطان في اللغات السكسونية مأخوذة من فعل الشر أي من كلمة "دو" بمعنى يفعل وكلمة "إيفل" بمعنى الشر"، وقد أجمع اللغويون والدينيون على نبذ هذا التركيب مع أنه أقرب إلى صفة الشيطان من الصفة التي توحى بها الكلمتان اليونانيتان بعد التمحل والاعتساف"^(٣).

ولقد وردت الكلمة في الكتاب المقدس في مواضع كثيرة وهي تعني في أغلب الأحيان إلى أنه "روح شريرة" أو "شیطان" ففي إنجيل متى "ثم أصدع يسوع إلى البرية من الروح ليحرب من إبليس"^(٤).... ثم أخذه إبليس إلى المدينة المقدسة وأوقفه على

(١) قاموس الكتاب المقدس ص ١٥.

(٢) إبليس ص ٣٤.

(٣) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(٤) متى ٤ : ١.

جناح الهيكل^(١).... ثم أخذه إبليس إلى جبل عال جداً وأراه جميع ممالك العالم ومجدها^(٢).... ثم تركه إبليس وإذا ملائكة قد جاءت فصارت تخدمه^(٣).

"وهذا هو المثل، الزرع هو كلام الله والذين على الطريق هم الذين يسمعون ثم يأتي إبليس وينزع الكلمة من قلوبهم لئلا يؤمنوا فيخلصوا^(٤)". "والعدو الذي زرعه هو إبليس"^(٥).

وفي أعمال الرسل "يسوع الذي من الناصرة كيف مسح الله بالروح القدس والقوة الذي جال يصنع خيراً ويشفي جميع المتسلط عليهم إبليس"^(٦) وكلها تعني "الروح الشريرة" أو "الشیطان".

ويطلق على رؤساء الشياطين "بعلزوب": وهو اسم كنعاني.

وفي العهد الجديد جاء "بعزبول".

وأصل هذا الاسم "بعزبوب" فغير اليهود لفظه إلى "بعزبول" ومعناه "بعل الأقدار" لأنهم كانوا يحرقون آلهة الوثنيين ويعتبرونهم كشياطين، وأما بعزبوب ومعناه إله الذباب فكان إله عقرون^(٧)، والأرجح أنه كان إله الطب عندهم وهو أكبر جميع آلهتهم، ولذلك دعى رئيس الشياطين، وقد ظن البعض أنه بعل المساكين لأنه رئيس الأرواح النجسة التي تدخل بعض الناس وتسبب الجنون كالروح^(٨) النجس الذي أخرجه يسوع من الإنسان المجنون حينما دعاه الفريسيون بعزبول رئيس الشياطين^(٩).

(١) متى ٤ : ٨.

(٢) متى ٤ : ٥.

(٣) متى ٤ : ١١.

(٤) لوقا ٨ : ١١ ، ١٢.

(٥) متى ١٣ : ٣٩.

(٦) أعمال ١٠ : ٣٨.

(٧) ملوك ثاني ١ : ١ ، ٢ (وسقط أخزيا من الكوة التي في عليه التي في السامرة فعرض وأرسل رسلاً وقال لهم اذهبوا اسألوا بعل زبوب إله عقرون إن كنت أبرأ من هذا المرض...).

(٨) متى ١٢ : ٢٤.

(٩) قاموس الكتاب المقدس ص ١٨٣.

ولقد ورد لفظ "بعلزبول" في العهد الجديد كرئيس للشياطين بلسان الفريسيين ففي إنجيل متى: "إن كانوا قد لقبوا رب البيت بعلزبول فكم بالحرى أهل بيته" (١) وأيضاً "أما الفريسيون فلما سمعوا قالوا هذا لا يخرج الشياطين إلا ببعلزبول رئيس الشياطين" (٢).

وفي إنجيل مرقس "وأما الكتبة الذين نزلوا من أورشليم فقال إنه معه بعلزبول وإنه برئيس الشياطين يخرج الشياطين" (٣).

وفي إنجيل لوقا "وأما قوم منهم فقالوا ببعلزبول رئيس الشياطين يخرج الشياطين" (٤).

وبعد

فلقد أطلق على قوى الشر والأرواح الشريرة أسماء ومعاني كثيرة ولعل أشهرها هو كلمة "الشیطان" الذي هو - كما يقول القس صموئيل حبيب - كائن حقيقي وهو أعلى شأنًا من الإنسان ورئيس رتبة من الأرواح النجسة (٥).

ولا يفوتنا أن نقول: إن قوله عن الشيطان إنه أعلى شأنًا من الإنسان قول لا يتناسب مع الصورة الحقيقية للإنسان التي رسمها الكتاب المقدس "فقال الله نعمل الإنسان على صورتنا وشبهنا..." (٦).

وكذلك أيضاً لا يتناسب مع قول يوحنا (من يفعل الخطية فهو من إبليس لأن إبليس من البدء يخطئ) (٧) وواضح من هذه الفقرة أن الذي يرتكب الخطيئة من الإنسان ينحدر إلى مرتبة أقل وهي مرتبة إبليس، فالإنسان بطبيعته أعلى في المرتبة والدرجة من الشيطان.

(١) متى ١٠ : ٢٥.

(٢) متى ١٢ : ٢٤.

(٣) مرقس ٣ : ٢٢.

(٤) لوقا ١١ : ١٥.

(٥) قاموس الكتاب المقدس ص ٥٣٣.

(٦) تكوين ١ : ٢٦.

(٧) ١ - يوحنا ٣ : ٨.

طبيعة الشيطان وصفته

يعتقد المسيحيون أن طبيعة الشيطان روحية "وهو ملاك سقط بسبب الكبرياء، ورغم ذلك فهو يمتاز بكل امتيازات هذه الرتبة من الكائنات سواء كانت عقلية كالإدراك والذاكرة والتمييز، أو حسية كالعواطف والشهوات، أو إرادية كالاختيار، وهو خبيث، فإنه قائد العصاة على الله، يعمل ضد البر والقداسة، ومملوء بالكبرياء والمكر والقساوة، حالته تنطبق على صفاته فلكونه عدو الله وهو مطرود من وجهه، ومحبوس مع رفقائه في موضع العذاب، حيث يعاقب على العواطف النجسة التي فيه، والأعمال الخبيثة الناتجة عنها، غير أن طرده إلى عالم الظلمة لا يمنع اشتغاله في الأرض كإله هذا العالم وعدو الإنسان اللدود"^(١).

يقول الأنبا ساويرس: أول ما خلق الله السماء والأرض قبل أن يخلق أحداً على الأرض خلق الملائكة في السماء أرواحاً بغير أجسام، خلقهم فرقاً فرقاً، ولكل فرقة طبقة، أعني مرتبة يسكن فيها، ولكل مرتبة مقدم، فكان مقدم الفرقة في الطبقة التي هي أعلا جميع المراتب ملاك اسمه "سلطانائيل" والملائكة، لأنهم يعيشون بتسبيح الله وتقديسه كما تعيش الأجسام بالطعام، فساعة أن خلقهم الله سبحوه جميعهم وقدسوه بالطبع، فلما نظر سلطانائيل علو مرتبته استكبر نفسه وظن أنه مثل الله فلم يسبحه ولم يقده، ومنع جميع العساكر الذين في مرتبته عن التسبيح، فأسقطهم الله معه جميعاً إلى الأرض وصاروا شياطين"^(٢).

ويزيد ذلك وضوحاً فيقول "بعد أن خلق الله السماء والأرض خلق الملائكة بروح قدسه"^(٣) خلقهم من النور روحانيين بغير أجسام"^(٤) خلق الملائكة صفوفاً صفوفاً

(١) قاموس الكتاب المقدس ص ٥٣٤. راجع أيضاً: ١. بطرس ٥: ٨، ٢ بطرس ٢: ١١، رسالة يهوذا ٦: ٢، كورنثوس ١١: ١١.

(٢) الدر الثمين في إيضاح الدين ص ٣٢.

(٣) وذلك إشارة إلى ما جاء في مزمور ٣٣: ٦ من أن السموات والأرض خلقت بكلمة الله والملائكة خلقت بروح قدسه بكلمة الله قامت السموات وجميع أجناده بروح فمه) وفي الترجمة الحديثة (وينسمة فيه كل جنودها).

(٤) مزمور ١٠٤: ٤ (الصانع ملائكته رياحاً وخدامه ناراً ملتهبة).

ولكل صف منزلة في السماء العليا التي هي أول خلقه على قدر مرتبته أعني مرتبة العساكر ولكل صف مقدم، وعدد الصفوف مائة كما يشهد بذلك يسوع المسيح في الإنجيل المقدس عن المائة خروف (متى ١٨ : ١٢)^(١) لأن الناس لا يعرفون من الملائكة إلا تسع صفوف التي سمّتها الأنبياء وهم: الملائكة، ورؤساء الملائكة، والرؤساء، والسلطين، والكراسي، والأرباب، والقوات، والكارويم والسارافين، وأما رب الأنبياء وخالق الملائكة فقد ذكر أنهم مائة صف والناس لا يعرفون غير تسعة والعاشرة فقط هي التي سقطت.

فلما خلق الملائكة في بدء خلقه النور في أول الأيام الذي هو يوم الأحد سبحانه للوقت جميعهم وقد سوه لأنه لتسبيحه وتقديسه خلقهم ولا حياة لهم ولا نعيم روحانيين إلا بهما وبدونهما لا يتنعمون نعيمًا مؤبدًا ويحيون حياة مؤبدة مع الإله الدائم المؤبد كما يعيش الجسدانيون في الدنيا ويتنعمون بالأطعمة الفانية حياة فانية ونعيم فان. فكان مقدم المرتبة العليا في المنزلة التي فوق جميع المنازل سلطاناتيل وهو كان المقدم للمنزلة التي فوق المائة منزلة لأن المنازل مائة كما قد ذكرت وكما قال يسوع (إن المنازل في بيت أبي كثيرة)^(٢) وذلك يحقق تفسير المائة خروف، فلما سبّح جميع العساكر وقدموا خالقهم نظر سلطاناتيل مقدم المنزلة العليا أنه فوق الجميع فاستكبرت نفسه ولم يسبح خالقه ولم يمجده مثلهم بل شبه نفسه به في قلبه ومنع جميع الذين معه في منزلته من التسبيح والتقديس فأطاعوه وللوقت أسقطه الله وإياهم جميعهم من أجل طاعتهم له فيما لا يرضي الله خالقهم^(٣).

يقول إشعياء (كيف سقطت من السماء يا زهرة بنت الصبح، كيف قطعت إلى الأرض يا قاهر الأمم، وأنت قلت في قلبك أصعد إلى السموات أرفع كرسي فوق

(١) يريد بذلك ما ورد في متى ١٨ : ١٢ "ماذا تظنون إن كان لإنسان مئة خروف وضل واحد منها أفلا يترك التسعة والتسعين على الجبال ويذهب يطلب الضال" وهي لا تدل على مقصوده كما سيظهر.

(٢) يوحنا ١٤ : ٢.

(٣) الدر الثمين في إيضاح الدين ص ٤٥ - ٤٦.

كواكب الله وأجلس على جبل الاجتماع في أقاصي الشمال، أصدع فوق مرتفعات السحاب. أصبح مثل العلى، ولكنك انحدرت إلى الهاوية إلى أسافل الجب^(١).

ويقول القس / منسي يوحنا (سقط الشيطان من رتبته باختياره وحرته وتحولت فيه قوات الخير إلى قوات الشر)^(٢).

ويقول العقاد (وإنما - أي الشيطان - كان في الكتب العبرية أو اليهودية واحداً من الملائكة المغضوب عليهم أو واحداً من الأرواح المتمردة)^(٣).

يقول كلايد تارنر "أما من أين جاء هذا العدد الضخم من الأرواح الشريرة فإن ما نعرفه عنه لا يعدو النزر القليل من الفقرات الواردة في الكتاب المقدس التي تذكر شيئاً عن هذه الأرواح نستنتج منها أنها كائنات مخلوقة كانت في يوم بلا خطية وتحت قيادة الشيطان عصوا الله فطردهم من حضرته.

يقول الكتاب المقدس عنهم (الملائكة الذين لم يحفظوا رياستهم بل تركوا مسكنهم"^(٤) وبطرس يقول "لأنه إن كان الله لم يشفق على ملائكة قد أخطأوا بل في سلاسل الظلام طرحهم في جهنم وسلمهم محروسين للقضاء"^(٥).

وقال يسوع لرسله "رأيت الشيطان ساقطاً مثل البرق من السماء"^(٦).

أما سبب سقوط الشيطان وملائكته فغير مذكور وبين بولس أنه الكبرياء "لثلاث يتصلف"^(٧) فيسقط في دينونة إبليس" وهكذا^(٨) أصبح الشيطان عدو الله وقد قاد أنصاره لمحاربة الله بكل طريقة ممكنة^(٩).

(١) إشعياء ١٤ : ١٢ - ١٥.

(٢) حياة آدم ص ٦٦.

(٣) إبليس ص ٩٠.

(٤) رسالة يهوذا فقرة رقم ٦.

(٥) ٢ بطرس ٢ : ٤.

(٦) لوقا ١٠ : ١٨.

(٧) صلف الشيء صلفاً: قل خيره يقال: صلف النبات: قل ريعه، وصلف الطعام: قل غناؤه وصلف

السحاب: قل مطره وكثر رعده.. وصلف فلان: لم يحظ عند الناس وأبغضوه فهو صلف وهي صلفة

(المعجم الوسيط ج ١ ص ٥٢٠).

(٨) ١- تيموثاوس ٣ : ٦.

(٩) كلايد تارنر: هذه عقائدنا ص ٥٥.

فالشیطان فی نظرهم - له طبیعة روحیة وهی طبیعة الملائكة ولكنه سقط من رتبته وانحدر من منزلته بسبب الكبیراء، ثم أخذ یعمل فكره على أن یفسد على الإنسان حیاته (فكره مشتغل على الدوام بالمقاصد والأعمال التي مآلها قلب مقاصد الله وأعماله وهو فی ذلك كسائر الملائكة جسور مغامر، أما عمله بین الناس منذ البدء فهو الغدر والمخاصمة والظلم والقساوة وهو بشخصه أو بواسطة ملائكته یجرب الناس للخطیئة أو یصدھم عن القداسة ویشتكي علیهم بالخطیئة والضعف وعدم الثبات نحو بعضهم ونحو الله ویعرضهم للشقاوة الحالیة والمستقبلة) ^(١) وهو قادر على التشكل بأشكال حسنة یقول بولس (ولا عجب لأن الشیطان نفسه یغیر شكلهم إلى شبه ملاك نور فلیس عظیمًا إن كان خدامه یغیرون شكلهم كخدام للبر) ^(٢).

❖ ویوضح من نصوص الكتاب المقدس أن لإبلیس سلطانًا على العالم، ویظهر ذلك من التجارب التي امتحن بها إبلیس السید المسیح فی البریة، فإبلیس من خلال هذه التجارب یحاول إغواءه بما یملكه من العروض والمغریات، ولقد وردت هذه القصة فی الأناجیل الثلاثة (متی، مرقس، لوقا). وهی كما جاءت فی إنجیل "متی" (ثم أصعد یسوع إلى البریة من الروح لیجرب من إبلیس، فبعد ما صام أربعین نهارًا وأربعین لیلة جاع أخیرًا فتقدم إليه المجرب وقال له إن كنت ابن الله فقل أن تصیر هذه الحجارة خبزًا، فأجاب وقال مكتوب لیس بالخبز وحده یحیا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله، ثم أخذه إبلیس إلى المدینة المقدسة وأوقفه على جناح الهيكل، وقال له إن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل. لأنه مكتوب أن یوصی ملائكته بك، فعلى أیادهم یحملونك لكي لا تصدم بحجر رجلك، قال له یسوع مكتوب أيضًا لا تجرب الرب إلهك، ثم أخذه أيضًا إبلیس إلى جبل عال جدًا وأراه جمیع ممالك العالم ومجدها، وقال له أعطيك هذه جمیعها إن خررت

(١) قاموس الكتاب المقدس ص ٥٣٤.

(٢) ٢ كورنثوس ١١ : ١٤ ، ١٥.

وسجدت لي، حينئذ قال له يسوع اذهب يا شيطان لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد^(١).

"وهذه القصة أوفى ما جاء في الأناجيل عن سلطان إبليس على ممالك العالم"^(٢).

وسلطان إبليس أو الشيطان على العالم يظهر أيضاً من إطلاق الأناجيل عليه أنه رئيس هذا العالم بل لقد أطلق المسيح على الشيطان رئيس هذا العالم. فيروي إنجيل يوحنا إن السيد المسيح قال لتلاميذه ليلة وداعهم "الآن دينونة هذا العالم، الآن يطرح رئيس هذا العالم خارجاً، وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إلى الجميع"^(٣) ويقول يوحنا فيما يروي عن المسيح (إن أبي أعظم مني، وقلت لكم الآن قبل أن يكون حتى متى كان تؤمنون، لا أتكلم أيضاً معكم كثيراً لأن رئيس هذا العالم يأتي وليس له في شيء)^(٤).

وكذلك ورد على لسان المسيح (وأما الآن فأنا ماض إلى الذي أرسلني وليس أحد منكم يسألني أين تمضي. لكن لأنني قلت لكم هذا قد ملأ الحزن قلوبكم. لكني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق. لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي. ولكن إن ذهبت أرسله إليكم. ومتى جاء ذلك ييكت العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة، أما على خطية فلأنهم لا يؤمنون بي. وأما على بر فلأنني ذاهب إلى أبي ولا تروني أيضاً وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين)^(٥).

❖ وسلطان إبليس على العالم يظهر من تعليقات الإنجيل لحالات المرض التي قد تصيب الإنسان. يقول د/ بطرس عبد الملك (ولإبليس قوة على إعطاء الأرواح النجسة سلطة على البشر)^(٦) يقول لوقا في سفر الأعمال "يسوع الذي من الناصرة

(١) متى ٤ : ١ - ١١.

(٢) إبليس ص ٨٧.

(٣) يوحنا ١٢ : ٣١ ، ٣٢.

(٤) يوحنا ١٤ : ٢٨ - ٣٠.

(٥) يوحنا ١٦ : ٥ - ١١.

(٦) قاموس الكتاب المقدس ص ١٦.

كيف مسح الله بالروح القدس والقوة الذي جال يصنع خيراً ويشفي جميع المتسلط عليهم إبليس لأن الله كان معه^(١) ولهذا فقد أطلقت الأناجيل على حالات المرض أنها أرواح شريرة وأن هذه الأرواح الشريرة إنما هي شياطين.

يقول مرقس (وكانت المدينة كلها مجتمعة على الباب. فشفي كثيرين كانوا مرضى بأمراض مختلفة وأخرج شياطين كثيرة ولم يدع الشياطين يتكلمون لأنهم عرفوه)^(٢) فكلمة "أخرج شياطين" بمعنى أنه أخرج الأرواح الشريرة التي تسببت في الأمراض، فكانت النتيجة أن شفى الكثيرون.

ويقول لوقا (وكان في المجمع رجل به روح شيطان نجس)^(٣). يعتقد المسيحيون أن هذه الأرواح الشريرة هي رسل مرسلّة من قبل الشيطان وتحت أمره وسلطانته، وهذه الأرواح تدخل في الناس والبهايم فتحدث فيهم أعراض الجنون والصرع والعمى.

يقول القس / صموئيل حبيب "وكان دخول الشياطين في الناس أمراً حقيقياً ظهر على هيئة أمراض جسدية وعقلية وذلك مثل الخرس والعمى والصرع"^(٤).

ومن الأمثلة على ذلك مما جاء في الأناجيل قول "متى" عن إنسان أخرس أخرج المسيح الشيطان منه فتكلم (وفيما هما خارجان إذا إنسان أخرس مجنون قدموه إليه فلما أخرج الشيطان تكلم الأخرس. فتعجب الجموع قائلين لم يظهر قط مثل هذا في إسرائيل أما الفريسيون فقالوا برئيس الشياطين يخرج الشياطين)^(٥).

(١) أعمال ١٠ : ٣٨.

(٢) مرقس ١ : ٣٣ ، ٣٤.

(٣) لوقا ٤ : ٣٣.

(٤) قاموس الكتاب المقدس ص ٥٣٤ ، ٥٣٥.

(٥) متى ٩ : ٣٢ - ٣٤ ، وعن أمثلة أخرى في الأناجيل لحالات الجنون، والعمى، والصرع، وشفاء المسيح لهم عن طريق إخراج الشياطين والأرواح الشريرة، راجع متى ١٢ : ٢٢ - ٢٩ ، وفي ٩ : ١٤ - ٢٨ ، متى ٨ : ٢٨ - ٣٤.

يستدل المسيحيون بهذه النصوص وغيرها على مدى سيطرة الشيطان على العالم من خلال تسلطه بأرواحه الشريرة على الناس.

❖ أما أعوان الشيطان في هذه التجارب فهم عصبة الأرواح الساقطة الذين شاركوه في العصيان الأول ويعملون معه لمخالفة إرادة الله وضرر أولاده الأبرياء^(١).

يقول بولس للقديسين في أفسس "البسوا سلاح الله الكامل لكي تقدرُوا أن تثبتوا ضد مكاييد إبليس. فإن مصارعنا ليست مع دم ولحم بل مع الرؤساء مع السلاطين مع ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر مع أجناد الشر الروحية في السماويات"^(٢).

ويقول بولس "فإني إن أردت أن أفتخر لا أكون غيباً لأنني أقول الحق. ولكني أتخشى لئلا يظن أحد من جهتي فوق ما يراني أو يسمع مني. ولئلا أرتفع بفرط الإعلانات أعطيت شوكة في الجسد ملاك الشيطان ليلطمني لئلا أرتفع"^(٣).

فللشيطان - كما قال بولس - ملائكة وهم أعوانه وشركائه في إغواء الناس إلى الشر.

❖ وقد سمي المتأصلون في الشر والكذب والقتل أولاد إبليس.

يقول السيد المسيح لليهود فيما ترويه الأناجيل المسيحية (لماذا لا تفهمون كلامي. لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قلتي. أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا. ذاك كان قتالاً للناس من البدء ولم يثبت في الحق لأنه ليس فيه حق متى تكلم بالكذب فإنه يتكلم بما له لأنه كذاب وأبو الكذاب)^(٤).

ويقول يوحنا (أيها الأولاد لا يضلكم أحد. من يفعل البر فهو بار كما أن ذاك بار. من يفعل الخطية فهو من إبليس....)^(٥).

(١) قاموس الكتاب المقدس ص ٥٣٤.

(٢) أفسس ٦ : ١١ ، ١٢.

(٣) ٢ كورنثوس ١٢ : ٦ ، ٧.

(٤) يوحنا ٨ : ٤٣ ، ٤٤.

(٥) ١ يوحنا ٣ : ٧ ، ٨.

ويقول القس / صموئيل حبيب (ويظهر أن الشيطان بسماع من الله اكتسب بعض السلطان على عناصر العالم الهولية، وهو يستخدمها لمقاصده الخبيثة، علماً بأنه ذكي يعرف صفات الإنسان وطباعه وأمياله، ويستخدمها للإيقاع في الخطيئة، ومن يتشرب بتلك صار وكيلاً للشيطان في التفرير بالآخرين، وإسقاطهم في مهاوي الشر والرذيلة، فمن يصير لهم هذا المشرب وتلك الطباع يلقبون بأبناء الشيطان)^(١).

ويدل على هذا المعنى ما ورد عن السيد المسيح - في الأناجيل - من أنه سمي يهوذا الذي أسلمه "شيطان": ففي إنجيل يوحنا (أجابهم يسوع أليس أني أنا اخترتكم الاثني عشر وواحد منكم شيطان، قال عن يهوذا سمعان الأسخريوطي لأن هذا كان مزماً أن يسلمه وهو واحد من الاثني عشر)^(٢).

فلقد سمي يهوذا شيطاناً لأنه يعمل بأعمال الشيطان.

ولا ننسى في تعليقنا على الفقرة الأخيرة إن نقول إن تسمية يهوذا "بشيطان" يتناقض مع ما وعده به المسيح فإن المسيح وعد الاثني عشر تلميذاً بالنعيم المقيم ووعدهم بكرسي المجد (فقال لهم يسوع الحق أقول لكم إنكم أنتم الذين تبعتموني في التجديد متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده تجلسون أنتم أيضاً على اثني عشر كرسيّاً تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر)^(٣) فإن هذا وعد وذاك وعيد وفرق كبير بينهما.

❖ أما نهاية الشيطان: فإنه - كما يعتقدون المسيحيون - سيقبض عليه ويقتل بالسلسلة ويطرح في الهاوية ويختم عليه لكي لا يضل الأمم فيما بعد، وفي النهاية يطرح في بحيرة من النار والكبريت ويعذب نهراً وليلاً إلى أبد الأبد.

يقول يوحنا في رؤياه (ورأيت ملاكاً نازلاً من السماء معه مفتاح الهاوية وسلسلة عظيمة على يده، فقبض علي التنين الحية القديمة الذي هو إبليس والشيطان وقيد

(١) قاموس الكتاب المقدس ص ٥٣٤.

(٢) يوحنا ٦: ٧٠، ٧١.

(٣) متى ١٩: ٢٨.

ألف سنة وطرحه في الهاوية وأغلق عليه وختم عليه لكي لا يضل الأمم فيما بعد حتى تتم الألف سنة وبعد ذلك لا بد أن يُحل زماناً يسيراً^(١).

ثم يقول (ثم متى تمت الألف سنة يُحل الشيطان من سجنه ويخرج ليضل الأمم الذين في أربع زوايا الأرض جوج وماجوج ليجمعهم للحرب الذين عددهم مثل رمل البحر. فصعدوا على عرض الأرض وأحاطوا بمعسكر القديسين وبالمدينة المحبوبة فنزلت نار من عند الله من السماء وأكلتهم. وإبليس الذي كان يضلهم طرح في بحيرة النار والكبريت حيث الوحش والنبي الكذاب وسيعذبون نهاراً وليلاً إلى أبد الآبدين)^(٢).

ويحكي "متى" ما سيحدث يوم القيامة حين يجلس السيد المسيح على كرسي الدينونة "ثم يقول للذين عن اليسار اذهبوا يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته"^(٣).

هذا هو إبليس أو الشيطان بداية ونهاية أوردها مختصراً حتى يكتمل البحث.

عداوة الشيطان لأدم وأسبابها في التصور المسيحي

إن الشيطان أكبر عدو لله وذلك نتيجة لخطيئته التي ذكرها بولس وهي الكبرياء وقد عمل الشيطان على أن يوقع الإنسان أيضاً في عصيان الله، لذلك عندما خلق الله الإنسان بدأ الشيطان - وذلك على حسب أن وراء الحياة قوة شيطانية - يسعى ليجلب عليه الخراب والدمار عن طريق إيقاعه في المعصية. وحيث إن الشر قد صار طبعاً له فأراد أن يستخدم هذه القوة الشريرة ليفسد طبع آدم الحسن^(٤).

(١) رؤيا يوحنا ٢٠ : ١ - ٣.

(٢) رؤيا يوحنا ٢٠ : ٧ - ١٠.

(٣) متى ٢٥ : ٤١، ٤٢.

(٤) القس منسي يوحنا: حياة آدم ص ٦٦.

يقول كلايد تارنر: اقتاد الشيطان الرجل والمرأة الأولين إلى الخطية ليس لأنه مهتم بخلاصهما أو عدمه ولكن لأن همه الاول كان مقصوراً على أنه بواسطة خطيتهما يستطيع أن يطعن الله وهذا هو مقصوده الأول من وراء كل خطية.

لا يهم الشيطان مبدئياً أن نخلص أو نهلك ولكن همه الأعظم والأوحد أن يقودنا إلى الخطية فيستطيع من جراء ذلك أن يستخدمنا في حربه ضد الله وهذا ما تعنيه الخطية، إننا بها نضع أنفسنا في يد الشيطان فيستعملنا واسطة لطعنة يوجهها إلى قلب الله^(١).

فالقول السابق يوحي بأن السبب الأساسي الذي يجعل الشيطان يوقع الإنسان في الخطيئة هو أن يطعن الله، وهذا القول يقبل لو أن خطيئة الإنسان تنقص من ملك الله شيئاً، أما وأن الطاعة لا تزيد في ملك الله شيئاً وأن المعصية لا تنقص من ملك الله شيئاً فإن هذا القول لا يقبل.

ولو كانت خطيئة الإنسان طعناً لله لما قبل الله توبته إذا رجع إليه، بل يطرده من رحمته كما طرد إبليس وعصابته.

ولكن الأمر غير ذلك والشاهد ما جاء في الكتاب المقدس (توبوا وارجعوا لتمحي خطاياكم)^(٢) فإن المعنى أن الإنسان إذا تاب ورجع إلى الله قبل الله توبته ومحا خطيئته. وعليه فإن ما ذكره الكاتب المسيحي غير مقبول لما ذكرنا.

وهناك سبب آخر لعداوة الشيطان للإنسان أورده "الأبساويرس" فقال: "فلما نظرهما إبليس - أي بعد دخولهما الجنة - وعلم أنهما لمرتبتة خلقا حسدهما"^(٣) عليها، فقال في نفسه أنا استكبرت وتشبهت بالله فأسقطني بعدله ومتى

(١) كلايد تارنر: هذه عقائدنا ص ٧٠.

(٢) أعمال الرسل ٣: ١٩.

(٣) سفر الحكمة ٢: ٢٤ (خلق الله الإنسان خالداً على صورته في الطبيعة الكاملة ولكن بحسد الشيطان دخل الموت إلى العالم "وسفر الحكمة من الأسفار المحذوفة في الطبقات البروتستانتية).

استكبر هذان وتشبها بالله مثلي أسقطهما بعدله كما أسقطني بعدله أريد أن أحتال عليهما حتى يفعلا كفعلي اختياراً لا اضطراراً فيوجب المولى الذنب عليهما دوني ويسقطهما كما أسقطني ولوقته دبر عليهما حيلة حتى سقطا مثله باختيارهما بغير قهر^(١).

يقول القس / منسي يوحنا: "ومن ثم لما أرى الشيطان الإنسان قائماً سعيداً في جنة عدن حسده وغار منه"^(٢).

ومع كون هذا السبب "الحسد" مقبولاً من الناحية الطبيعية ذلك أن الذي كان في مرتبة كبيرة ثم انحدر إلى أسفل سافلين ثم نظر فوجد آخر يعتلي عرش منزلة مثل منزلته فإنه يجد نفسه - حتى ولو لم يكن شيطاناً - منساقاً لأن يحقد عليه ويحسده على ما فيه.

وبرغم هذا فإن دليله قد استقاه من سفر الحكمة وهو غير مسلم به لدى جميع الطوائف المسيحية لذلك نجد هذا السفر من الأسفار المحذوفة في الطبقات البروتستانتية.

وتعليقنا على الفقرة السابقة ينحصر حول قول الأنبا ساويرس (حتى سقطا مثله) نعم إن آدم وحواء عصيا ربهما ولكن ليس بمثل الشيطان حيث إن معصية الشيطان هي الاستكبار بينما معصية آدم الأكل من شجرة محرمة عن طريق إغواء الشيطان. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن سياق قصة معصية آدم ينقض قوله (حتى سقطا مثله) حيث إن آدم وحواء حين أخطأ كما يقول الكتاب المقدس (اختبأ من وجه الرب الإله في وسط الجنة فنأدى الرب الإله آدم وقال له أين أنت فقال: سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأنني عريان فاخبتأت)^(٣).

واليقين أنه - أي آدم - مادام يخشى الله ويخجل منه فإنه بعصيانته ليس مثل إبليس في عصيانته، فهذا استكبر، والاستكبار فيه معنى التبجح وصفاقة الوجه، بينما آدم

(١) الأنبا ساويرس: الدر الثمين في إيضاح الدين ص ٣٣.

(٢) حياة آدم ص ٦٦.

(٣) تكوين ٣: ٨ - ١٠.

خشى الله وخاف منه وخجل من لقاءه فاختبأ، والخشية والخوف والخجل من الله ليس فيها ذرة من الاستكبار، بل فيها معنى الانكسار والندم والحزن.

وهناك أمر ثالث يدل على أن معصية آدم ليست كمعصية إبليس وهو ما فعله الله مع آدم وحواء بعد المعصية وما فعله مع إبليس بعد العصيان. نعم إن الله طرد آدم وحواء من الجنة ولكن صنع لهما أقمصه من جلد وألبسهما^(١) فهذا يدل على عدم طردهما من رحمة الله وإلا لما صنع الله لهما الأقمصة. بينما هوى إبليس بعصيانته إلى أسفل السافلين بطرده من رحمة الله.



الأساليب التي استخدمها الشيطان من أجل إغواء آدم

ولما كان الشيطان يهدف إلى أن يوقع الإنسان في الخطيئة فإنه استخدم في سبيل ذلك جميع ما لديه من وسائل وأساليب.

ولقد عدد كتاب المسيحية كثيراً من هذا الأساليب نذكر منها ما يلي :

أولاً: إخفاء شخصيته:

يقول كلايد تارنر: إن للشيطان هيئات عديدة يتستر بها ويختبئ خلفها... إنه لا يقرب إنساناً ليقول له "إنني شيطان" وبولس يقول إنه - أي الشيطان - يظهر أحياناً كملاك. "ولا عجب لأن الشيطان نفسه يغير شكله إلى شبه ملاك نور"^(٢).

وكانت الهيئة التي اختبأ خلفها إبليس من أجل إغواء آدم وحواء هي الحية. يقول الأنبا ساويرس (إنه أخفى روحه عنهما في حية)^(٣) "إنه لا يأتي للإنسان وجهاً لوجه بل بواسطة فلم يذهب هو بنفسه إلى آدم وحواء ليغويهما بل استخدم الحية للغواية"^(٤).

(١) تكوين ٣: ٢١.

(٢) كلايد تارنر: هذه عقائدنا ص ٦٥.

(٣) الدر الثمين في إيضاح الدين ص ٣٣.

(٤) القس / منسي يوحنا: حياة آدم ص ٦٦.

أما لماذا خص الحية بالذات؟

وذلك لأن الحية - كما يقولون - أحيل جميع الحيوانات (وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية)^(١) أي أكثرها حيلة ولهذا وجد فيها الشيطان الإناء المناسب والواسطة الملائمة ذلك أنه لو ظهر الشيطان في صورته الحقيقية لما كان للخطية سحرها^(٢) "ولما كانت الحية أكثر الحيوانات مكرًا وخداعًا اتخذها الشيطان أداة لتجربته"^(٣).

وهناك تعليل آخر لاستخدام الشيطان الحية بالذات أورده "الأنبساويرس" وهو أن الحية هي الحيوان الوحيد الذي استطاع أن يدخل الجنة.

يقول الأنبساويرس (فأما الحية فإن السبب في دخولها إلى الفردوس هو أن الله لما أحضر إلى آدم جميع الحيوانات لم يكن في جميعها أحسن من الحية فتركها عندهما في الفردوس يتفرجان عليها وبذلك السبب وجد الشيطان فرصة ليطغيهما بها لأنه نظرهما كثيري الأنس إليها باللعب معها ولاسيما حواء^(٤)).

ويقف الإنسان أمام هذا القول متحيراً...

هل الحية فعلاً أجمل الحيوانات؟ وإذا كانت أجمل الحيوانات في نظر آدم فإن عقيدتكم تبين أن آدم هذا كان ممثلاً للجنس البشري فلو كان آدم اختارها على أساس أنها أجمل الحيوانات لكان هذا واقعاً من نسله، ومادام ذلك لم يقع فإن في هذا القول بعض الشكوك.

ومن ناحية أخرى: فإن آدم وحواء هما اللذان اختارا الحية لتكون معهما ألا يكون اختيار آدم للحية من جميع الحيوانات لأن تبقى معهما في الجنة يجعلها أكثر وفاء لآدم وحواء منه لإبليس؟

(١) تكوين ٣ : ١ .

(٢) علم اللاهوت الكتابي ص ٦١ .

(٣) الدين المسيحي للمرحلة الثانوية ص ٣١ سنة ١٩٦٦ .

(٤) الدر الثمين في إيضاح الدين ص ٥٠ .

ولا أفهم كيف تكون الحيوانات كلها مسخرة بأمر الله للإنسان^(١) ثم هي سلاح يسخره الشيطان ضد الإنسان. فهل هي مسخرة للشيطان أم للإنسان؟

إن جواب الكتاب المقدس أنها مسخرة للإنسان ومادامت مسخرة للإنسان فإن الإنسان هو الذي يستخدمها لا غيره. وكذلك فإن الحيوانات خلقها الله غير مكلفة بشيء وذلك في حدود دائرة التسخير للإنسان - فكيف لا يكلفها خالقها ثم يكلفها غيره وهو إبليس وهو غير خالق لها؟

ثم إن الحيوانات كلها طائعة بلسان حالها لله خالقها، مسبحة له ومقدسة، وقد ذكر ذلك الكتاب المقدس في أكثر من موضع^(٢).

ولو كانت الحيوانات - النى منها الحية - غير طائعة لله لأن الشيطان استخدمها لعصيان الله لما قال الله لنوح وقت الطوفان (ومن كل حي ومن كل ذى جسد اثنين من كل تدخل إلى الفلك لاستبقائها معك. تكون ذكراً وأنثى. من الطيور كأجناسها ومن البهائم كأجناسها ومن كل دبابات الأرض كأجناسها. اثنين من كل تدخل إليك لاستبقائها)^(٣).

فإن الله أمر نوحاً بأن يأخذ من الحية ومن جنسها الذكر والأنثى لاستبقائها، فكيف تستبقى مع أن إبليس اتخذها سلاحاً ضد الإنسان من أجل معصية الله؟.

ثم إن المعجزة الأولى لموسى عليه السلام هي قلب العصا حية (فقال له الرب ما هذه فى يدك فقال عصا، فقال اطرحتها إلى الأرض فطرحها إلى الأرض فصارت حية فهرب موسى منها، ثم قال الرب لموسى مد يدك وأمسك بذنبها، فمد يده وأمسك به فصارت عصا فى يده)^(٤).

فكيف تكون الحية عامل إغواء استخدمه إبليس من أجل أن يعصى الإنسان ربه، والتي بسبب هذا الإغواء لعنها الله تعالى وقال لها (ملعونة أنت من جميع البهائم

(١) تكوين ١: ٢٤ - ٣١..

(٢) راجع: مزمور ١٤٨: ١٠ - ١٣، إشعياء ٤٣: ٢٠، وراجع أيضاً ما حدث من أتان بلعام فى سفر العدد

٣١ - ٣٤.

(٣) تكوين ٦: ١٩ - ٢١.

(٤) خروج ٤: ٢ - ٤.

ومن جميع وحوش البرية)^(١) ثم تكون هي - أى الحية - بعد ذلك عامل هداية مع موسى؟

ثانيًا: بذر الشك في محبة الله^(٢):

يصور المسيحيون استخدام الشيطان لهذه الوسيلة بما يلي:- يقولون إن طريقة التجربة تنقسم إلى مرحلتين وفي كليهما نجد أن الهدف الرئيسي للمجرب هو بذر الشك في عقل المرأة.

أما الشك في المرحلة الأولى فقد كان في ظاهره شكًا بريئًا يهدف إلى التشكيك في حقيقة الأمر ولكن تحتبئ تحته إشارة خفية مأكرة إلى شك من نوع أخطر يتضمن عدم الثقة في كلمة الله ومفهومها الصريح الواضح.

وفي المرحلة الثانية من التجربة يخلع الشك قناع التكرار الذي يخفي وراءه ذلك لأن المرأة رحبت في المبدأ بالفكر الذي طرح عليها أولاً في خبث. وإذ بدأت في الخطوة الأولى أصبح من المنطقي أن تخطو مع المجرب الخطوة الثانية.

"في المرحلة الأولى يسأل العدو مجرد سؤال" أحقًا قال الله^(٣)؟ هل النهي قد صدر حقيقة؟ ثم يضيف هذه العبارة الخيثة (من كل شجر الجنة)^(٤) بمعنى أنه إن كان قد صدر هذا النهي فلربما يكون الله قد ذهب فيه بعيدًا فجعله يشمل جميع أشجار الجنة وبهذا يحرم الإنسان من الاستفادة من ثمر جميع الأشجار.

أما المرحلة الثانية من التجربة والتي فيها يحاول إثارة الشك في قلب المرأة من ناحية عدم الثقة في كلمة الله فيقول (لن تموتا) أي يقينا لن تموتا، ويجب ملاحظة أنه في العبرية ترد أداة نفى في مطلع الجملة فلو كانت الجملة كما وردت في الترجمة الإنجليزية "إنكما بكل تأكيد لن تموتا" لكان هناك مجرد التشكيك في تنفيذ التهديد. ولكن ورود - الصيغة في العبرية بهذه الصورة غير المألوفة يجعلها تعني "ليس صحيحًا ما قاله الله لكما: إنكما موتا تموتا". وفي هذا يتجه بالكذب - بكل وضوح - إلى قول

(١) تكوين ٣: ١٤.

(٢) علم اللاهوت الكتابي ص ٦١، هذه عقائدنا ص ٦٥، علم اللاهوت النظامي ص ٦٢٣.

(٣) تكوين ٣: ١.

(٤) تكوين ٣: ١.

الله نفسه ، ولكي يؤكد الشيطان ما يدعيه عن كذب الله يتقدم بأسباب كاذبة تظهر أن الله كانت لديه دوافع خفية تجعل أقواله غير أهل للثقة فيقول: "إن الله بدافع الحسد والأنانية يكذب عليكما: الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر"^(١)، "^(٢) فإن الشيطان ألمح إليها أن الله يمنع عنهما شيئاً لهما كل الحق فيه"، ثم هو يقول لهما "لن تموتا".

إن الشيطان لينال نصراً كبيراً إذا ما استطاع أن يشكك أحداً في صدق كلمة الله، فالله يقول (النفس التي تخطئ هي تموت) ^(٣) والشيطان يقول: "لن تموتا" يقول الله "أجرة الخطية هي موت"^(٤) والشيطان يقول: "لن تموتا"^(٥).

أعتقد أن مثل هذه الأمور - الشك وعدم الثقة بالله وما ترتب عليهما - ما كانت تعتمل في ذهن آدم وحواء، وأن الفقرات الواردة في الكتاب المقدس المصورة لهذه الواقعة لا تدل على شئ من هذا.

ثالثاً: استخدام المرأة:

يقول الكتاب المقدس (فقال الحية للمرأة...) ^(٦).

ويقول جرهاردوس فوس (وإننا لنجد المحرب يتجه بتجربته إلى المرأة، ليس لأن المرأة أضعف حيلة وأوهن حكمة وأكثر ميلاً للخطية، لأن هذا ليس مفهوم العهد القديم، ولكن ربما كان السبب أن المرأة لم تأخذ الوصية رأساً من الله مثل آدم ^(٧) (وأوصى الرب الإله آدم...) ^(٨) معنى ذلك أن الوصية تختلف من آدم لحواء ذلك لأن آدم هو الذي تلقى الوصية من الله رأساً. وحواء أخذت الوصية من آدم

(١) تكوين ٣ : ٤ .

(٢) علم اللاهوت الكتابي ص ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، بتصرف شديد.

(٣) حزقيال ٨ : ٤ .

(٤) رومية ٦ : ٢٣ .

(٥) كلايد تارنر: هذه عقائدنا ص ٦٦ .

(٦) تكوين ٣ : ١ .

(٧) علم اللاهوت الكتابي ص ٦١ .

(٨) تكوين ٢ : ١٦ ، ٧١ .

وهذا أدعى إلى أن تكون المرأة أقل تحملاً للوصية. ونحن نقول: إن هذا يصح لو كان الجزاء والعقاب الواقع على حواء بسبب الأكل من الشجرة أقل من العقاب الواقع على آدم ومادام ذلك لم يقع فهما متساويان في الوصية والخطية والعقاب.

"إن المجرب أولاً - كما يقول المسيحيون - حاول إغواء حواء بعدم الاتكال على جودة الله والريب في صدق النهي عن الأكل من تلك الشجرة وذلك بقوله لها" (أحقاً قال الله لا تأكلأ من كل شجر الجنة) ثم حاول صريحاً إبطال إيمانها وتشكيكها في الله بقوله: (لن تموتا) بل بالحرى "تكونان كالله عارفين الخير والشر"^(١).

"وإننا لنجد تجاوب المرأة - كما يصورون - يتخذ مظهرين":

فنحن نجدها أولاً تجاه حقيقة وصية الله لا تنفي صدور النهي من جانب الله، وفي نفس الوقت تنفي كون هذا المنع يشمل كافة أشجار الجنة "فقالت المرأة للحية من ثمر شجر الجنة نأكل"^(٢) ولكننا من نعمة حديثها نستطيع أن نتبين أنها بدأت ترحب بفكرة أن الله كان قاسياً في وصيته، وهكذا بدأت تفرق في المبدأ بين حقوقها وحقوق الله، وفي عملها هذا فتحت قلبها ليذر فيه العدو بذار الخطية. بل إننا نرى في قولها غير الدقيق "لا تأكلأ منه ولا تمسأه"^(٣) تأكيداً لهذه الحقيقة بإضافة كلمة "لا تمسأه" التي لم ترد في وصية الله تظهر المرأة روح الضيق والتذمر من قسوة الوصايا الإلهية^(٤).

"وهكذا إذ أعدت حواء إعداداً تاماً من الناحية الذهنية والقلبية لم يبق سوى إغرائها بمظهر الثمرة الذي يؤكد فوائدها الذي ذكرها عدو الخير لدفع حواء لارتكاب الخطية. فلم تكن مجرد حاسة التذوق هي التي دفعت بالمرأة إلى أن تمد يدها وتقطف منها لأن الدافع كان أكثر تعقيداً" فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون وأن الشجرة شهية للنظر"^(٥) لقد كان الدافع الرئيسي لهذا الفعل وهو نفسه

(١) علم اللاهوت النظامي ص ٦٢٣.

(٢) تكوين ٣ : ٢.

(٣) تكوين ٣ : ٣.

(٤) علم اللاهوت الكتابي ص ٦٢.

(٥) تكوين ٣ : ٦.

ولو بصورة جزئية الدافع الذي أعطى التجربة قوتها^(١) "فالشيطان حاول استمالة رغبة المرأة الطبيعية ثم عمل بواسطة المرأة ليصطاد الرجل"^(٢) وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل"^(٣).

فالمرأة أخطأت - كما يقولون - وأكلت من ثمرة الشجرة المحرمة وأعطت الرجل فأكل معها.

فنتيجة لهذا أوقع الله عليهما العقوبة التي سنذكرها فيما بعد.

لذلك يقول د/ إبراهيم سعيد (إن حواء هي التي أغرت آدم بالأكل من ثمرة الشجرة فأكل)^(٤).

تعقيب على ما سبق:

إن قصة السقوط في الديانة المسيحية كما سبق أن بينا تتلخص في أن الحية أغوت حواء بالأكل من الشجرة المحرمة، ثم أغرت حواء آدم فأكل منها، هذا هو المعنى الذي يستفاد من رواية الكتاب المقدس لقصة السقوط وهو الرأي الذي ارتضاه البعض من المسيحيين. ولكن الأكثرية منهم فسروا قصة السقوط بأن وراء الحية قوة شيطانية تعمل من أجل أن يعصى آدم وحواء الله.

ولقد ناقشنا هاتين الفكرتين سابقاً من خلال الفقرات التي أوردناها المسيحيون أنفسهم، وهنا تتسع دائرة المناقشة لنتناقص فقرات المصدر الأساسي للقصة في الكتاب المقدس.

في البداية يجب أن نذكر بما قررناه سابقاً من أن قصة الخلق - بوجه عام - كما هي واردة في سفر التكوين عليها كثير من الإشكالات، خاصة بعد أن بينا أن هناك روايتين بينهما من التناقض، وفيهما من الأخطاء والأغلاط ما يجعلنا نفقد الثقة فيما ورد فيهما.

(١) المصدر السابق ص ٦٣.

(٢) كلايد تارنر: هذه عقائدنا ص ٦٦.

(٣) تكوين ٣: ٦.

(٤) د/ إبراهيم سعيد ونخبة من اللاهوتيين: الدين المسيحي للمرحلة الثانوية ص ٣١ سنة ١٩٦٦.

يضاف إلى ذلك أن الفقرات التي معنا هنا في هذا الموضوع والتي تصور الأساليب التي استخدمها الشيطان لإغواء آدم عليها كثير من علامات الاستفهام وذلك على النحو التالي:-

كيف يحسن أن يقال "فقلت للمرأة: ليست موتاً تموتان ولكن الله يعلم أنكما يوم تأكلان منها تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر"^(١) أفكانت الحية التي هي من وحوش الأرض أعقل من آدم وحواء وأفهم منهما وأعلم بحقائق الأمور بمراد الله تعالى من آدم وحواء مع تمام علم آدم كما تقدم هذا في قوله (وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها به وكل ما دعا آدم ذات نفس حية فهو اسمها)^(٢).

فأين هذا من ذاك؟ فإن قيل: لعل الحية تكلمت بهذا عن جهل وادعاء للمعرفة؟ قلنا: تمام الكلام يؤكد أن هذا عن علم منها وجهل من آدم وحواء وهو قوله: "فأخذت من ثمارها وأكلت وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل فانفتحت أعينهما وعلمتا أنهما عريانان"^(٣).

وأيضاً: فكيف يحسن أن يقال (وتكونان كالله تعلمان الخير والشر) أفكان آدم وحواء جاهلين لا يعلمان الخير والشر مع تمام علم آدم كما تقدم؟ ولو كانت الحية التي لم تأكل منها جاهلة بالخير والشر - وهذا كلامهما وهذا علمهما كما تقدم - فإن قيل: لعلها تكلمت بهذا لتعليم إبليس إياها أو لأن إبليس من بين أنبيائها تكلم به. قلنا: هذان كلاهما خلاف ظاهر لفظ التوراة.

على أنا نقول: كيف يصح تكلم الحية وليست ناطقة؟ وكيف يحسن أن يقال "ورأت المرأة أن الشجرة طيبة المأكول"^(٤) مع أنها لم تأكل منها إلى الآن ولم تعرف طعمها ولا أنها طيبة أم لا؟^(٥).

(١) تكوين ٣: ٤ ، ٥ .

(٢) تكوين ٢: ١٩ .

(٣) تكوين ٣: ٦ ، ٧ .

(٤) تكوين ٣: ٦ .

(٥) على التوراة ص ٣٢ ، ٣٣ .

وإذا كانت الحية وحدها هي صاحبة الدور - كما هو ظاهر في سفر التكوين - فما زال علينا أن نواجه هذا السؤال: لماذا دبرت الحية تلك المكيده للإنسان؟ وماذا كان هدفها من وراء حرمان الجنس البشري من المميزات الكبيرة التي كان الرب يعتزم أن يخلعها عليه؟ فهل كان تدخلها في هذا الأمر مجرد فضول؟ أم كانت تُكَنِّ هدفًا أبعد من هذا؟ كل هذه الأسئلة لا يجيب عنها سفر التكوين أدنى إجابة: فالحية لم تغنم شيئًا من وراء تلك المكيده بل إنها كانت على عكس هذا من الخاسرين إذ حَلَّتْ عليها اللعنة الإلهية وقضى عليها بأن تزحف على بطنها وأن تلعق التراب وربما لم تكن نياتها سيئة للغاية بل ربما كانت تقوم بعمل لا هدف وراءه كما يبدو من ظاهر القصة^(١).

والقصة توضح أن الحية أحيل جميع الحيوانات فلربما كان مكرها هو الذي جعلها تغوي الإنسان من أجل السقوط.

ولكن إذا كانت القصة تخبرنا بأنها كانت أشد ميلًا للخديعة من أي حيوان آخر فهل شئت حقًا أن تدل على حكمتها بأن تطيح بآمال الإنسان دون أن تحقق لنفسها شيئًا منها؟ وربما ساورنا الشك - كما يقول جيمس فريزر - في أن الحية في القصة الأصلية قد أثبتت لنفسها مكانًا مرموقًا بأن استولت على البركة التي حرمت منها الجنس البشري إذ أنها في الواقع أكلت هي نفسها من شجرة الحياة فاكسبت الخلود في الوقت الذي أغرت فيه الأبوين الأولين أن يأكلا من شجرة الفناء، ويبدو أننا لسنا مغالين في هذا الفرض فنحن نقرأ في حكايات بدائية ليست بالقليلة تحكي عن أصل الموت أن الحيات سعت في تدبير حيلة لتسخر من الإنسان أو لتلقي الروح في قلبه حتى تحتفظ لنفسها بالخلود الذي كان الإنسان معنيًا به، فكثير من البدائيين يعتقدون أن الحيات وبعض أنواعها من الحيوانات تجدد شبابها وتحيا إلى الأبد وذلك عن طريق تغيير جلدها مرة في كل عام. ويبدو أن الشعوب السامية قد عرفت هذه العقيدة كذلك، فالحية - وفقًا لآراء الكتاب الفينيقيين القدماء - كانت أطول الحيوانات عمرًا

(١) جيمس فريزر: الفلكلور في العهد القديم، ترجمة د/ نبيلة إبراهيم حـ ١ ص ١١٠.

لأنها كانت تجدد شبابها على الدوام عندما تغير جلدها، وإذا كان الفينيقيون قد اعتقدوا أن الحية معمرة وأن سبب هذا يرجع إلى تغيير جلدها فليس ببعيد أن جيرانهم وأقاربهم العبريين كانوا يعتقدون الاعتقاد نفسه^(١).

ثم يقول "والشيء الذي لا جدال فيه هو أن العبريين كانوا يعتقدون أن النسور تجدد شبابها عندما تغير ريشها، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لا يعتقدون بالمثل أن الحية كذلك يتجدد شبابها لتغيير جلدها؟ على أن فكرة خداع الحية للإنسان وسلبها منه الخلود عن طريق استيلائها على عشب الخلود الذي كانت الآلهة - كما يعتقدون - تقصد الاحتفاظ به للجنس البشري - تتمثل في الواقع في ملحمة جلجامش^(٢) التي تعد معلماً من المعالم الأدبية القديمة لدى الجنس السامي أكثر قدمًا من سفر التكوين"^(٣).

"فالشعوب التي تربط فكرة خلود الجنس البشري بتغيير الحيات أو السحالي أو الخنافس أو ما أشبه ذلك لجلودها تنظر بطبيعة الحال إلى هذه الحيوانات بوصفها منافساً بغيضاً سلبهم الإرث الذي شاء الإله أن يمنحهم إياه حقاً.. ومن ثم فإن هذه الشعوب تحكي حكايات تذكر فيها كيف أن هذه الكائنات الدنيئة قد دبرت مكيده لكي تحرم الإنسان من هذا الحق الذي لا يقدر بثمن.

وهذا النوع من الحكايات ينتشر انتشاراً كبيراً في أنحاء العالم وليس غريباً أن نجدها منتشرة بين الشعوب السامية.

ويبدو أن قصة سقوط الإنسان التي تروي في الفصل الثالث من سفر التكوين - أي السفر الثالث - تعد رواية مختصرة لهذه الأسطورة البدائية فهي في حاجة إلى قليل

(١) المصدر السابق ص ١١٠ - ١١١.

(٢) وفي هذه الملحمة نقرأ كيف كان أو تبايشتم الإنسان المؤله أفشى للبطل جلجامش سر وجود نبات له مقدرة سحرية على إعادة الشباب إلى الإنسان يطلق عليه اسم (الرجل الكهل يعود شاباً) وكيف أن جلجامش اهتدى إلى هذا النبات وأصابه الزهو بأنه سيأكل منه ويسترجع شبابه الذي ولى، ثم كيف أن حية تسلمت قبل أن يأكل جلجامش من هذا العشب وسرقت النبات السحري بينما كان جلجامش يستحم في المياه الباردة في أحد الينابيع. ثم كيف أن جلجامش بعد أن فقد الأمل في اكتساب الخلود جلس وبكى؟
المصدر السابق ص ١١١.

(٣) المصدر السابق ص ١١١.

من الإضافة حتى بكتمل تشابهها بمثيلاتها التي لا تزال القبائل البدائية تحكيها في بقاع كثيرة من العالم.

فالجزء المحذوف في الحكاية العبرية، وربما كان الجزء الوحيد، هو الذي يتمثل في سكوت القاص عن ذكر أكل الحية من فاكهة شجرة الحياة وما نتج عن ذلك من حصول هذا الحيوان الدنيء على الخلود، على أنه ليس من العسير علينا أن نفسر سبب وجود هذه الفجوة في الحكاية العبرية، فالاتجاه العقلاني الذي يبدو في ثانيا قصة الخلق العبرية ذلك الاتجاه الذي سلبها كثيراً من الملامح التي تزين الرواية البابلية المطابقة لها أو تشوهها قد شكل عقبة في سبيل نسبة فكرة الخلود المزعومة إلى الحية. وقد استبعد مؤلف القصة في صنيعتها الأخيرة عاقبة الإساءة هذه من طريق المؤمنين عن طريق عملية بسيطة هي حذف هذه الحادثة كلية من القصة العبرية، ومع ذلك فإن هذه الفجوة الواسعة التي أحدثها الكاتب في القصة العبرية نتيجة تطفله لم تغب عن الدارسين الذين أخذوا يجيلون النظر في غير جدوى في الدور الذي كان يجب أن تلعبه الحية في القصة العبرية^(١) ذلك لأن القصة في سفر التكوين - حذف منها الدور الذي كانت تلعبه في أساطير الساميين والبابليين.

على أن الحية في الديانات البدائية كانت رمزاً إلى الظلمة الذي يقابل النور.

ففي الديانة اليونانية: كان اليونانيون جميعاً يقدسون معبد دلفي في التلال الواقعة شمال خليج كورينثة وكانوا يحترمون نبؤة دلفي بقدر ما. وكانت دلفي مركز عبادة الإله "أبولو" الذي يرمز لقوتي النور والعقل وتروي - الأسطورة القديمة أنه قتل البيثون وهو الحية الأسطورية التي ترمز إلى الظلام وتخليداً لهذا المعنى بني الناس معبداً في دلفي^(٢).

والشاهد من هذا القول: أن الحية في أسطورة اليونان ترمز إلى الظلمة.

(١) المصدر السابق ص ١٣٥ ، ١٣٦.

(٢) برتراند رسل: حكمة الغرب ج ١ ص ٦٣ - ٦٥ سلسلة عالم المعرفة.

وكذلك أيضاً في الديانة المصرية: يقول أدولف أرماني: فإنه من الواجب أن يكون لإله الشمس الذي على شكل آدمي قارب يسبح فيه فوق سطح محيط السماء، وبالفعل كان له قارب جميل من الذهب طوله (٧٧٠) ذراعاً. قام بينائه الآلهة أنفسهم، تشرف على تسييره النجوم وتصاحب الآلهة العظمى الشمس فيه "إنه الإله العظيم رب السماء" الذي يحكم العالم من قاربه هذا، ولا غرابة في ذلك فإنه إله الشمس وهو سيد الآلهة. واعتقد المصري أن هناك ثعباناً يلتف حول قرص الشمس الذي يحمله الإله على رأسه. هذا الثعبان هو الخادم الخطر الذي يحرق أعداءه بأنفاسه النارية، وهو بعينه الثعبان الذي يزين جبين الملك الأرضي والذي يعرف باسم الصل^(١) والذي اعتبر كرمز لأسمى ما وصلت إليه القوة. أما الأعداء الذي يقابلهم الإله أثناء رحلته فهي بطبيعة الحال ولكن "رع" يمزق الصواعق ويبعد الأمطار ويفتت البرد "وامتاز الثعبان" "أبوفيس" بأنه أشد أعداء الشمس قوة وخطراً ومن أجل ذلك اعتبر رمزاً لكل مكروه ودنيء^(٢) فالثعابين في الديانة المصرية كانت ترمز إلى القوة - وهذه القوة ما تسمى بالقوة النارية - وإلى كل مكروه دنيء.

ولو جمع الرمزان في ثعبان واحد لتبين ما يرمز إليه هذا النوع من الحيوانات في ديانة مصر القديمة وهو رمز الظلمة التي كان لها من القوة، والتي تقف أمام قوة النور. بجانب ذلك فإن هذه القوة لا تفعل إلا كل مكروه دنيء.

فالحية في قصة الخليفة الواردة في العهد القديم تشبه ما جاء في بعض أساطير العالم من حيث الدور الذي قامت به، ومن حيث الرمز إلى الشر وإلى الظلمة، فالشبه قائم، والدواعي متوافرة، حيث إن اليهود كما هو معروف اختلطوا بالأمم السامية في فترة السب البابلي، وكان لهذه الفترة تأثيرها الواضح عليهم. والأستاذ العقاد يبين أن العبرانيين تأثروا بالديانات القديمة في جعل الحية تقوم بالدور الذي

(١) صل الشيء صليلاً: أي صوت صوتاً ذا رنين، وقالوا: صل بيض الحديد: رن من مقارعة السيوف، والمسمار: أي صوت عند الدق. والإناء الفارغ: رن عند قرعه، والسقاء: أي ييس، واللحم صلولاً: أي تغير وتنفق. والماء ونحوه: أجن. والصل: الحية من أخبت الحيات، وقالوا هو صل أصلال إذا كان داهية خبيثاً، "المعجم الوسيط" ج ١ ص ٥٢١.

(٢) أدولف أرماني: ديانة مصر القديمة ص ٢١ ترجمة د/ عبد المنعم أبو بكر، د/ محمد شكري.

قامت به في قصة الخليفة، ولكن هذا التأثير من نوع آخر وهو أن اليهود اعتقدوا أن الحية صاحبة الغواية تأثراً بالأقدمين الذين كانوا يوحدون بين الضرر الحسي وبين الخطيئة الأخلاقية فيقول:

"ولم يكن الشيطان هو الذي أغوى حواء بالأكل من الشجرة المحرمة، بل كانت الحية هي صاحبة الغواية هنا، جريا على سنن الأقدمين الذين كانوا يوحدون بين الضرر الحسي وبين الخطيئة الأخلاقية، وقبل أن تصبح الحية مجرد رمز إلى الشيطان نلاحظ فيه المشابهة بين نفث السم ونفث الشر على أسلوب المجاز"^(١).

ويقول "فقد كان الضرر والشر بمعنى واحد في العقائد البدائية، وكان الروح الضار كالحیوان الضار في مقاييس الأخلاق، أو مقاييس النعمة والبلاء، وكان من الجائز أن تستقل الحية بالضرر دون أن يلقتها الشيطان غواية آدم، فهي حيوان ضار يؤذي ويخيف وكفى بذلك وصفاً للشرير في العقائد البدائية"^(٢).

ويتبين ذلك من أن العبرانيين تأثروا بالديانات القديمة في جعل الحية صاحبة الغواية، وذلك من ناحية أنهم كانوا يوحدون بين الضرر الحس والخطيئة الأخلاقية.

وإذا فلا مفر من القول بالتأثير سواء من هذا الجانب أو تلك، وإذا كان الأمر كذلك فالقصة التي وردت في الكتاب المقدس عن الخليفة ليست وحياً من عند الله بقدر ما هي قصة تأثر فيها كاتبها بالأساطير والديانات القديمة.

أما القول الثاني: وهو أن وراء الحية قوة شيطانية بمعنى أن الشيطان نفث في الحية كل ما يريد أن يفعله مع آدم وحواء. فهو برغم أنه يندرج تحت ما قلناه سابقاً من تأثر القصة من ناحية جعل الحية رمزاً إلى الظلمة والشر بالديانات القديمة ومع هذا فإننا أيضاً نجد فكرة دخول الشيطان في الحية في الأساطير القديمة.

يقول الأستاذ/ شوقي عبد الحكيم: أما عن فكرة توحد حواء بالحية التي تتوحد بدورها بالشيطان فتتبدى بكثرة في أغلب أساطير الخلق السامية، وتذكر هذه

(١) إبليس ص ٧٨.

(٢) المصدر السابق ص ٩٢.

الأساطير أن الحية إذ ذاك لم تكن على شكلها الآن، بمعنى أن مسحاً قد حدث لها عقب توحيدها بالشیطان إبليس حين وسوس لحواء - من فم الحية - بالأكل من الشجرة الممنوعة أو المحرمة^(١).

والكتاب المقدس يبين لنا أن لعنة أصابت الحية^(٢) بعد أن أغوت حواء، ولعل هذه اللعنة هي المرادة بهذا المسخ وسنذكرها فيما بعد.

ثم تنتقل إلى فقرة أخرى في القصة وهي: استخدام الحية للمرأة لكي تغويها بالأكل من الشجرة المحرمة، والمرأة بدورها تغري الرجل للأكل من الشجرة المنهى عنها.

هذا المعنى نجد شبيهاً له في الديانات الأخرى، "فالعلاقة بين المرأة والشیطان تتواتر بكثرة شديدة خاصة في نصوص وأساطير الخلق الأولى عند عديد من ملل ونحل الشعوب والقبائل السامية العربية"^(٣).

فالقصة التي وردت في سفر التكوين لم تسلم من النقد من جميع الوجوه ومن جميع أطرافها وزواياها ومع ذلك فإننا لا نشك بأنه كانت هناك قصة حقيقية للخلقة أنزلت على موسى من عند الله ولكن هذه القصة الحقيقية اختلطت في أذهان اليهود بالقصص الأخرى لدى الديانات القديمة فكتبوا القصة الجديدة - التي هي الآن في الكتاب المقدس - وخلطوا فيها بين قصص الخلقة في الأساطير التي سمعوها وقصة الخلقة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام.

ما حدث لأدم وحواء بعد السقوط في التصور المسيحي

إن الحية حين أغوت حواء بالأكل من الشجرة وعدتها بأنها إن أكلت منها هي وزوجها قائلة: (الله عالم أنه يوم تأكلان منه - أي من ثمر الشجرة تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر)^(٤).

(١) الأستاذ شوقي عبد الحكيم: مدخل لدراسة الفلكلور والأساطير العربية ص ١٣٣.

(٢) تكوين ٣: ١٤.

(٣) المصدر السابق ص ١٣٥.

(٤) تكوين ٣: ٥.

فما أن أكل آدم وحواء من الشجرة إلا وحدثت المفاجأة لهما (فانفتحت أعينهما وعلمتا أنهما عريانان فخاطا أوراق التين وصنعا لأنفسهما مآزر) ^(١) جاء في أحد كتب الدين المسيحي (أن معنى انفتحت أعينهما أي أعين قلوبهما فأدركا معصيتهما وعرفا لأول مرة أنهما عريانان) ^(٢) وهنا يحق لنا أن نسأل مع العلامة "الباجي": كيف يحسن أن يقال "فأكلا فانفتحت أعينهما وعلمتا أنهما عريانان"؟ أفكانا أعميين قبل الأكل؟ أو منطبعي الأعين؟ مع قوله قبل هذا: "ورأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون وأنها شهية للنظر" ^(٣) فأين هذا من ذاك؟ أم كانا جاهلين بأنهما عريانان مع تمام علم آدم - كما تقدم - (وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها) ^(٤) فأين هذا الجهل التام مع العلم التام؟

فإن قيل: لعل المراد انفتاح أعين البصيرة لا أعين البصر؟ قلنا: هذا تأويل مخالف للظاهر مع أنه لا يصح؛ لأن العاصي لا يناسبه أن يترتب على معصيته انفتاح بصيرته، بل المناسب أن تعمى بصيرته ^(٥).

ويمكن إجمال ما أحدثته المعصية في آدم وحواء - حسب التصور المسيحي - فيما يلي:

١ - الخجل: وهو الذي نشأ عن الشعور بالإثم والانحطاط ^(٦).

لقد جاء تهما الخطية بالخجل والخزي والعار - كما يقولون - إذ أدركا أول كل شيء أنهما عريانان ولعل هذا هو الدافع الذي يجعله يرتكب الخطية في الظلام.

يقول يوحنا (وهذه هي الدينونة إن النور قد جاء إلى العالم وأحب الناس الظلمة وأكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة لأن كل من يعمل السيئات يبغض النور

(١) تكوين ٣: ٧.

(٢) الدين المسيحي للمرحلة الثانوية ص ٣١ سنة ١٩٦٦.

(٣) تكوين ٣: ٦.

(٤) تكوين ٢: ١٩.

(٥) "على التوراة" ص ٣٣.

(٦) علم اللاهوت النظامي ص ٦٢٤.

ولا يأتي إلى النور لئلا توبخ أعماله)^(١) وكلمة الخطية على الدوام مقارنة وملاصقة للعار والخزي إذ أنها تهدر في الإنسان كل ما هو آدمي وإلهي إذ تقتل فيه المروءة والشرف والكرامة والنبيل والإنسانية وتسفل به إلى الحيوانية القذرة ألم تعر آدم وتكشف نوح^{(٢) (٣)}.

ونحن نقول: ولكن آدم لم يرتكب الخطيئة في الظلام نعم إن آدم وحواء اختبأ بعد الخطيئة ولكنهما أكلتا من الشجرة وهي في وسط الجنة.

٢ - الخوف: يصورون ذلك بقولهم وإذا سمع آدم وحواء صوت الرب الإله ماشياً في وسط الجنة عند هبوب ريح النهار فزعا وخافا. وهذا ما تصنعه الخطيئة بمرتكبها إذ تظهره في مظهر الضعيف الأعزل الذي تمسك به حبال آثامه وشروبه فلا يستطيع الهروب من عدل الله مهما حاول إلى ذلك سبيلاً^(٤) وهذا المعنى مأخوذ مما جاء في سفر التكوين (وسمعا صوت الرب الإله ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار فاخبتا آدم وحواء من وجه الرب في وسط شجر الجنة)^(٥).

٣ - العداوة: فما أحدثته المعصية في آدم وحواء - كما يقولون - هول سخط الله أو الشعور بالذنب الذي يوجب العقاب ولذلك حاولا الاختفاء من حضرته تعالى^(٦).

ثم إن الخطيئة أحدثت العداوة بين الإنسان آدم والمرأة حواء - حسب التصور المسيحي - ويتبين ذلك حينما حاول أن يلقي التبعية على حواء بالأكل من الشجرة، قال الله لآدم هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك بعدم الأكل منها فكان جواب آدم المرأة التي جعلتها معي هي التي أعطتني فأكلت. وكذلك أيضاً أحدثت الخطيئة العداوة بين الإنسان والحية ويتبين ذلك حينما سأل الله المرأة لماذا أكلت من الشجرة

(١) يوحنا ٣: ١٩ ، ٢٠.

(٢) تكوين ٩: ٢١.

(٣) القس / إلياس مقار: رجال الكتاب المقدس ١ ص ١٣ ، (القضايا المسيحية الكبرى) ص ٣٧٦.

(٤) المصدر السابق ١ ص ١٤ ، ص ٣٧٦.

(٥) تكوين ٣: ٨.

(٦) علم اللاهوت النظامي ص ٦٢٤.

التي أوصيتكما بعدم الأكل منها فكان جواب المرأة أن الحية هي التي غررت بي فأكلت منها.

يقول القس إلياس مقار: "والخطية سر كل نزاع وخصام وعداوة في الأرض إذ لا سلام قال إلهي للأشرار وإذا سقط أبوانا الأولان ضعفت المحبة بينهما فلم تكن في جمالها الأول كما نشأت بينهما وبين الحية عداوة قاسية وأكثر من ذلك قتلت محبتهم الله، أما أن محبتهم لم تكن كالأول فذلك يبدو من محاولة آدم إلقاء التبعية على زوجته دون أن يهتم بحمايتها أو تحمل ذنبها كما كان ينتظر منه كمحب مخلص غيور، ولا ننسى أيضاً أنه عندما ذكرها أمام الله لم يقل "زوجتي" و"حواء" بل قال المرأة التي أعطتني" مما يدل على أن محبته لها لم تعد في قوتها الأولى، أما العداوة للحية فقد أضحت عداوة دائمة مستمرة أبدية، ومن المستطاع ملاحظتها إذا ذكرنا العداوة القائمة بين الجسد والروح في الإنسان الواحد وبين المؤمن وغير المؤمن على طول الأجيال، أما العداوة لله فتبدو في البعد عنه وعدم الشوق إليه وفعل كل ما هو آثم وشرير وغير مرضي أمام عينيه"^(١).

العقوبات التي حكم الله بها نتيجة السقوط في الخطيئة

وقبل أن نذكر العقوبات التي حكم الله بها نتيجة السقوط في الخطيئة - كما يصورها المسيحيون - نسأل متى علم الرب بالسقوط؟ وكيف؟ فإن الظاهر من نصوص العهد القديم أن الله عرف عن طريق الصدفة يقول سفر التكوين (وسمعا صوت الرب الإله ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار فاقتبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجرة الجنة فنأدى الرب الإله آدم وقال له: أين أنت؟ فقال سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأنني عريان فاقتبأت فقال من أعلمك أنك عريان هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها فقال آدم المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت)^(٢).

(١) رجال الكتاب المقدس ١ ص ١٤ - ١٥، قضايا المسيحية الكبرى ص ٣٧٧.

(٢) تكوين ٣: ٨ - ١٢.

وفى هذه الفقرات عدة إشكالات نذكرها فيما يلي :-

كيف يحسن أن يقال (وسمعا صوت الرب..) مع أن الرب سبحانه وتعالى منزّه عن الصوت ماشيا، وهم إن جوزوا تجسده في عيسى - عليه السلام - عند ظهوره - على معتقدهم إلا أنهم يسلمون أنه في الجنة لم يتجسد.

وأيضاً فإن آدم أتم علماً من أن يتوهم أنه يمكنه أن يختفي من الرب سبحانه في شجر الفردوس، وهذان السؤالان واردان بعينهما على قوله بعد هذا "فقال سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فأختبأت".

وكيف يحسن أن يقال: فنادى الرب الإله آدم وقال له أين أنت؟ مع أن الله تعالى لا يخفى عليه آدم ولا مكانه.

وكيف يحسن أن يقال: فقال له من عرفك أنك عريان "أكان آدم محتاجاً في معرفة نفسه أنه عريان إلى من يعرفه ذلك؟ ما على هذا في الجهالة مزيد. ولا يتوهم في حق آدم مثل هذا بل ولا في جهل آحادنا نحن.

وكيف يحسن أن يقال إن آدم اعتذر عن معاتبة الله إياه في أكل الشجرة المنهى عن أكلها في قوله "هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك بأن لا تأكل منها" بقوله "إن المرأة التي جعلتها معي هي التي أعطتني من الشجرة فأكلت". وكيف يليق بآدم أن يعتذر عن معصية الله بأن المرأة أعطته فأكل^(١).

وبعد هذه المناقشة نستكمل بقية الحديث عن العقوبات التي حكم الله بها نتيجة السقوط في المعصية في التصور المسيحي، حيث يقول المسيحيون إن الله حين علم الله بسقوط آدم وحواء في الخطيئة حكم عليهما وعلى الحية بعقوبات ذكرت في الإصحاح الثالث من سفر التكوين. فحين سأل الرب الإله المرأة قائلاً (ما هذا الذي فعلت فقالت المرأة الحية غرتني فأكلت)^(٢) وهنا صدرت العقوبات من الله وهي على حسب ترتيب الكتاب المقدس كما يلي:

(١) الباجي: على التوراة ص ٣٣.

(٢) تكوين ٣: ١٣.

أولاً: عقوبة الحية:

"قال الرب الإله للحية لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية. على بطنك تسعين وتراباً تأكلين كل أيام حياتك. وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها. هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه"^(١).

حكم الله على الحية أولاً باللعنة

ولعن لعنة: نقيض بارك بركة^(٢).

واللعنة وقعت على الحية - كما يقولون - بسبب خطيئة آدم، وكذلك أيضاً وقعت على الأرض بسبب هذه الخطيئة قال الله لآدم (ملعونة الأرض بسببك)^(٣) ولعنة الله للحية والأرض تعني التصريح بحكمه عليهما^(٤).

ونحن نقول: أليس ملفتاً للنظر أن يحكم الله على الحية وعلى الأرض باللعنة بسبب خطيئة وقعت من مخلوق مكلف غيرهما؟ مع العلم بأنهما ليسا لهما ناقة ولا جمل في هذه الخطيئة.

نعم إن الشيطان - على معتقديكم - استخدم الحية، ولكن هل الحية مكلفة بأن ترد عن نفسها الشيطان؟ وهل لديها ما ترد به كيد الشيطان؟.

إن للشيطان قوة لا تستطيع الحية أن تقف أمام قوته. أليس من الظلم أن يحكم الله - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - على الحية باللعنة وهي حيوان لا يستطيع أن يرد كيد الشيطان؟

وما ذنب الأرض باللعنة إذا كان آدم أخطأ وأكل من الشجرة؟ هل الأرض مكلفة بأن تذكر آدم بأن لا يأكل من الشجرة؟ ليست الأرض مكلفة بذلك، وإذا كان كذلك فإنه من الظلم لها - تعالى الله عن ذلك - أن يحكم عليها باللعنة بدون أن يقع منها ما يستحق هذه اللعنة.

(١) تكوين ٣: ١٤، ١٥.

(٢) قاموس الكتاب المقدس ص ٨١٨.

(٣) تكوين ٣: ١٧.

(٤) قاموس الكتاب المقدس ص ٨١٨.

والعقوبة الثانية للحية: "على بطنك تسعين" معنى ذلك أن الحية كانت قبل السقوط بمظهر آخر غير هذا المظهر الذي نراها به الآن.

يقول كلايد تارنر (أما كيف كان شكل الحية ومظهرها وميزاتها الخاصة قبل السقوط فهو على الأرجح أمر غامض، يصورها البعض مخلوقاً جميلاً يسير منتصباً لا زاحفاً على الأرض، والكتاب المقدس يقول إنها كانت أدهى الحيوانات وأمكرها)^(١) ويقول القس/ بشاي سعيد بشاي: وحية التجربة كانت في المظهر كحية عادية، ولكنها تفوق وحوش البرية في المكر والدهاء، وقد جعلت طريق زحفها على الأرض ذكرى لا نخطاها وعلامة على دينونتها^(٢).

ومجمل القول فيه أن الحية كانت قبل العقوبة التي وقعت عليها بشكل آخر سواء أكان هذا الشكل قريباً من مظهرها الذي نراها به الآن، أم أنها كانت مخلوقاً جميلاً يختلف عن مظهرها الآن.

ونحن نقول: إنه لا دلالة في كتبهم على أن الحية كان لها مظهر مختلف عما هي عليه الآن. فمن أين جاءوا بذلك؟ وما دليلهم عليه؟

إن أقوالهم تدل على أن مظهرها قبل السقوط أمر غامض وكل ما قيل في هذا هو مجرد تصورات.

وما دمنّا لا نستطيع معرفة مظهرها قبل السقوط، فإننا لا نستطيع أن نجزم ونحكم بأن مظهرها الذي نراها به الآن مخالف لما كانت عليه. ولا نستطيع أيضاً أن نجزم بأن سعيها على بطنها عقوبة أو لا.

العقوبة الثالثة للحية: "وترباً تأكلين كل أيام حياتك"

يفهم من ذلك أن "الحية كانت تتغذى بغذاء يتغذى به غيرها من ضروب الحيوان وأنها غدت الآن تسف التراب وأن التراب وهو خليط من مواد غير عضوية يصلح أن يتخذ غذاء للحيوان يتمثله الجسم الحيواني.

(١) كلايد تارنر: هذه عقائدنا ص ٥٤.

(٢) قاموس الكتاب المقدس ص ٣٣٣.

ولقد قال إشعياء إن الحيات سوف تأكل التراب تواضعاً وتعففاً في وقت يظلل السلام فيه الأرض وتتغير طبائع الحيوانات وخصائص أسنانها ومعدنها (الذئب والحمل يرعيان معاً، والأسد يأكل التبن كالبقرة، أما الحية فالتراب طعامها. لا يؤذون ولا يهلكون في كل جبل قدسى قال الرب) ^(١)، ^(٢).

ففرق بين الفقرتين: فالتراب في الفقرة الأولى عقوبة من الله للحية، ولكن في الفقرة الثانية الحية تأكل التراب بكل وداعة لا تؤذي ولا تهلك.

وعلى أية حال فإن أساتذة علم الحيوان يؤكدون أن هذه الفصيلة من الحيوانات "تتغذى على الطيور والضفادع والثدييات" ^(٣).

العقوبة الرابعة للحية: "وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه" ^(٤).

بمعنى أن الله جعل العداوة قائمة بين الإنسان وبين الحية (ومن هذه الفقرة رأى كثير من العلماء والمفسرين - المسيحيين - في هذا النص وعداً بمجئ ذاك الذي استطاع وحده أن يسحق سحقاً نهائياً رأس الحية، ويسوع نسل المرأة هو الذي سحق الرأس المسموم رأس - الحية الذي سمم البشرية كلها) ^(٥) وهذا يعني أنه ليس وراء الحية قوة شيطانية، بينما الحية هي صاحبة الغواية؛ إذ لو كان وراء الحية قوة شيطانية لكان الخطاب بالوعيد بالسحق يقع أساساً على الشيطان لا الحية. وهذا مردود بما سبق أن ذكرنا.

أما أن هذه الفقرة تحمل وعداً بمجئ يسوع المخلص فإن هذا القول فيه مغالاة، لأن النص واضح في أن العقوبة التي وقعت على الحية هي العداوة بين نسل المرأة ونسل الحية. أما لماذا خص نسل المرأة بالذات؟ لأن الحية هي التي أغوت المرأة أولاً،

(١) إشعياء ٦٥ : ٢٥.

(٢) عصام الدين حفني ناصف: اليهودية في العقيدة والتاريخ ص ١٦٠، ١٦١..

(٣) د/ أحمد حماد الحسيني، د/ عطا الله خلف الدويني وغيرهما: علم الحيوان العام ص ٨٢٣ ط الأنجلو المصرية.

(٤) تكوين ٣ : ٥.

(٥) د/ القس/ حنا جرجس الخضري: تاريخ الفكر المسيحي المجلد الأول ص ٢٧.

فمن باب المقابلة تأتي العقوبة بين نسل المرأة ونسل الحية، وإلا فالجميع من نسل المرأة.

ثانياً: عقوبة آدم وحواء:

أ - عقوبة حواء:

"قال الله لحواء تكثيراً أكثر أتعاب حبلك. بالوجع تلدين أولاداً. وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك"^(١) فالعقوبة لحواء تلخص في أن الله سيجعل لها في الولادة التعب الكثير، ويجعلها تجد المشقة في الاشتياق إلى رجلها الذي يسود عليها.

ويعقب الأستاذ/ عصام الدين حفني على هذا قائلاً: (وأما أوجاع الحمل والولادة فهي من معقبات المدنية والترف، ويزداد شعور الناس بها على قدر ازدياد حظهم من رفاهية العيش ورفاهة الشعور على حين لا يشعر بها المتوحشون إلا هوناً منها، ويلاحظ مثل هذا التباين بين الحيوانات الوحشية والمستأنسة.

أما سيادة الذكر على الأنثى فهي القانون الساري في عالم الحيوان باستثناء أنواع قليلة مثل النحل"^(٢).

ب: عقوبة آدم:

وقال الله لآدم (لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً لا تأكل منها ملعونة الأرض بسببك. بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك. وشوكاً وحسكاً تنبت لك وتأكل عشب الحقل. بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها. لأنك تراب وإلى تراب تعود)^(٣).

يقولون لعن الله الأرض بسبب آدم، وكان من جراء هذه اللعنة أن الإنسان لا يأكل منها إلا بالتعب والمشقة، وأيضاً فإن الأرض أصبحت تنبت "شوكاً وحسكاً" ولا يراد بهاتين اللفظتين أنواع خاصة من النبات بل كل نبات فيه شوك وحسك يؤذي الإنسان ويعيق عملهم"^(٤).

(١) تكوين ٣: ١٦.

(٢) عصام الدين حفني ناصف: اليهودية في العقيدة والتاريخ ص ١٦٢.

(٣) تكوين ٣: ١٧ - ١٩.

(٤) قاموس الكتاب المقدس ص ٥٢٩.

وأوعده بأنه لا يجد راحة بل يتعب من أجل الحياة، وقال له وهكذا تكون حالك حتى تعود إلى التراب الذي خلقت منه، وهذا يعني أنه حكم عليه بالموت.

أما أن الشوك^(١) والحسك^(٢) وغيرهما من النباتات التي تؤذي الإنسان لم تخلق إلا بعد أن لعنت الأرض بسبب معصية آدم فإن هذا القول غير مسلم، إذ أنه يتناقض مع ما جاء في كتبكم التي تذكر أن الله كان قد خلق كل النباتات والحيوانات في اليوم الثالث من أيام الخليقة الستة، بينما خلق الإنسان في اليوم السادس من أيام الخليقة. ففي اليوم الثالث قال الله (لتنبت الأرض عشباً وبقلاً يبزر بزرّاً وشجراً ذا ثمر يعمل ثمرّاً كجنسه بزره فيه على الأرض. وكان كذلك. فأخرجت الأرض عشباً وبقلاً يبزر بزرّاً كجنسه وشجراً يعمل ثمرّاً بزره فيه كجنسه)^(٣).

فلقد خلق الله كل ما تنبته الأرض في هذا اليوم، فأنبتت الأرض الأعشاب والأشجار والبقول، ومعلوم أن من الأعشاب من هو شوكة ومن هو حسك، أي نباتات شوكية ومرة، والشوك والمر يؤذي الإنسان في حياته، لأن اللفظتين رمز إلى كل ما يؤذي الإنسان كما جاء في سفر الخروج عن بني إسرائيل وما يأكلونه ليلة الفصح (ويأكلون اللحم تلك الليلة مشوياً بالنار مع فطير على أعشاب مرة يأكلونه)^(٤) وهذه الأعشاب خلقت في اليوم الثالث بينما الإنسان خلق في اليوم السادس يضاف إلى ذلك أن الشوك والحسك - كما سبق - يرمزان إلى كل نبات فيه شوك وحسك، ونحن نقول: إن من النباتات التي خلقت في اليوم الثالث القمح والشعير، ومعلوم أنه في ثمرة نبات القمح والشعير إبرة شوكية، وهذه الإبرة الشوكية تمتد إلى الثمرة فتحفظها، بمعنى أنها خلقت معها أول خلقها، لا بعد ذلك، وإلا لما أثمرت الشجرة من أول أمرها.

(١) الشوك: ما يخرج من الشجر أو النبات دقيقاً صلباً يحدد الرأس كالإبر. المعجم الوسيط ج ١ ص ٥٠٠.

(٢) الحسك: نبات له ثمرة خشنة تتعلق بأصواف الغنم وأوبار الإبل. المعجم الوسيط ج ١ ص ١٧٣.

(٣) تكوين ١: ١١ - ٣.

(٤) خروج ١٢: ٨.

نقطة أخرى وهى: أن النص الوارد فى كتبهم عن خلق النباتات يذكر أن الله خلق فى اليوم الثالث كل شجر ذا ثمر، ومعلوم أن الحسك والشوك نباتان لهما ثمر فهما مخلوقان قبل الإنسان لا بعده. هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى فإن الله خلق الحيوانات أيضاً قبل خلق الإنسان ومعلوم أن من هذه الحيوانات من يتغذى على الشوك والحسك مثل الإبل فإذا لم تكن قد خلقت فأى غذاء كان يتغذى عليه الإبل قبل أن يخلق الله الشوك والحسك بعد معصية آدم؟

حـ - العقوبات المشتركة بين آدم وحواء

أولاً: أن الله حكم عليهما بالموت:

(لأن الله قال لآدم يوم تأكل منها موتاً تموتاً) والوصية هنا لآدم وحواء بدليل ما ورد من حوار بين الحية وحواء والموت: ضد الحياة.

يقول د/ سيد عويس: ويعرف الموت أحياناً بأنه "طلوع الروح" أو هو "طلوع سر الحياة" أو هو "الانتقال إلى حياة أخرى" كما نجد من يصف الموت بأنه "حق" أو أنه "نهاية كل إنسان" أو "أنه راحة من تعب الحياة" أو "أنه هازم للذات مفرق الجماعات" ولكن إذا حاولنا تعريف مفهوم الموت تعريفاً علمياً فإننا نواجه صعوبة كبيرة^(١).

ثم يبين أنه حاول الاستعانة ببعض القواميس المتخصصة فلم يجد بها لهذا المفهوم تعريفاً. ثم يقول "ومع هذا فقد يوجد بعض التعاريف العلمية لمفهوم الموت فقد يقال إن الموت هو التوقف الدائم للوظائف الحيوية فى أجسام الحيوانات والنباتات، وهو "ظاهرة التوقف عن الحياة" أو هو "ظاهرة توقف أو انقطاع الحياة" وفي قول آخر هو "ظاهرة التوقف النهائي فى الحياة" وكل هذه التعاريف تمثل وجهة نظر الطب الشرعي. وتوقف الحياة فى ضوء هذه التعاريف نوعان:

الأول: نوع وظيفي وهو خاص بتوقف القلب والتنفس الدائم وهو ما يعبر عنه بموت الفرد.

(١) د/ سيد عويس: الخلود فى التراث الثقافى المصرى ص ٨٧.

الثاني: تبدأ بعد ذلك عندما تبدأ الأنسجة في التوقف عن العمل ويتم ذلك بعد حوالي ساعتين وهو ما يعبر عنه بموت الأنسجة^(١) وإذا أخذنا بهذه التعاريف أو بأحدها، وهي في الواقع كلها متشابهة فإننا نواجه صعوبة أكثر، ذلك لأننا في هذه الحالة نواجه تعاريف مفهوم الحياة. وتعريف الحياة ليس بالأمر الهين لأننا نعرف جميعاً ما هو الإحساس بالحياة ومن ثم نعجز عن وصف هذا الإحساس في ضوء شيء آخر^(٢).

وعموماً فإن تعريف الحياة يتوقف على نظرة الإنسان نحو جوهر الحياة، فإذا كان ينظر إلى الحياة نظرة مادية فإنه يحاول تعريف الحياة تعريفاً مادياً وعلى أساسه يعرف الموت، وكذلك أيضاً من ينظر إلى جوهر الحياة على أنها روحية فهو يعرف الحياة على أساس هذه النظرة وبالتالي كذلك يعرف الموت.

وربما تخضع تعاريف الحياة لنوع التخصص الذي يتخصص فيه الفرد فتختلف نظرة الكيميائي عن نظرة الطبيب وما إلى ذلك.

ومن هنا وجدنا تعريف الموت يختلف من فرد لآخر ومن فيلجوف لآخر.

يقول د/ سيد عويس: ولكن يلاحظ أن المعنى العلمي لمفهوم الموت أو المعنى العلمي لمفهوم الحياة سواء حاول شرح ذلك الطبيب الشرعي أو المتخصص في علم البيولوجيا أو المتخصص في علم الطبيعة يبدو أنهما في نظر الرجل البدائي معنيين غامضين. فتفسير الموت لأسباب طبيعية مثلاً تفسير غير مقبول عنده وإذا بدا له أن يتأمل الموت أو يفكر فيه فإنه يفشل حتماً في اعتباره ظاهرة طبيعية. وعنده إذا مات إنسان ما دون ما سبب ظاهر كالجراح مثلاً فإنه يعتبره ضحية من ضحايا السحرة والأرواح الشريرة التي تتعاون معهم، ويعزي سبب موت أي - إنسان في بعض بلاد أفريقيا إلى سحر أحد سحرة القبائل المعادية أو إلى فعل أحد الجيران الحاقدين، ويكتشف المذنب أياً كان عادة عن طريق الاستعانة بأحد الكهنة أو عن طريق تعذيب أحدهم إلى أن يعترف^(٣).

(١) يحيى شريف، محمد عبد العزيز البهنساوي: مبادئ الطب الشرعي والسموم، مكتبة القاهرة الحديثة ص ٣ نقلاً عن المصدر السابق.

(٢) د/ سيد عويس: الخلود في التراث الثقافي المصري ص ١٨.

(٣) المصدر السابق ٢٢.

والمعنى الديني للموت: هو خروج الروح من الجسم ويسببه يصبح الجسم هامداً لا يحس ولا يشعر ولا يتحرك. فهل الموت لدى المسيحيين مختلف عما سبق؟ هذا ما سنتحدث عنه فيما يلي:-

والموت في نظر المسيحية إحدى عواقب الخطية لذلك سنشرح تعريف الموت لديهم على أساس التقسيم الذي يذكرونه.

يقول كلايد تارنر: للخطية عواقب عاجلة وأخرى آجلة عواقب روحية وأخرى جسدية. كانت عاقبة آدم وحواء عاجلة فقد أصبحت عرضة للحزن والموت^(١).

ويقول: ولكن العاقبة المرعبة للخطية الإنسان يمكن جمعها في كلمة واحدة "الموت". فمنذ اليوم الذي عصى به الإنسان الله أصبح مخلوقاً ميتاً، إن جسده لم يمت يوم أخطأ بالذات ولكنه أصبح عرضة للمرض والوهن التي تنتهي إلى الموت، إلا أن الإنسان قد مات روحياً منذ اليوم الذي أخطأ فيه ضد الله، إن الموت لا يعني توقف الحياة ولكنه يعني الانفصال أو الانحلال^(٢) ويقول الأب/ متى المسكين: منذ أن سقط آدم والموت هو عدو الإنسان الكبير ويرغم أن للإنسان أعداء كثيرين بسبب الخطية ولكن الموت كان أشدها سطوة وبأساً على نفسية الإنسان^(٣).

ويقول جرهاردوس فوس: حسبما ورد في سفر التكوين نعرف أن وصيته هي (وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت) وعلى أساس هذا التحذير ساد الاعتقاد في جميع الأجيال بأن الموت هو عقوبة الخطية وأن العالم كله قد أخضع للموت بسبب الخطية^(٤).

يقول إبراهيم لوقا: إن الإنسان الأول سقط في عثرة العصيان ويسقطه هذا أصبح واقعاً تحت حكم الموت الذي أنذره به الله تعالى عندما وضعه في جنة عدن وقضى به عليه^(٥) معنى ذلك أن آدم لو لم يخطئ لما حكم عليه بالموت.

(١) كلايد تارنر: هذه عقائدنا ص ٧٦.

(٢) المصدر السابق ص ٥٧ - ٥٨.

(٣) الأب متى المسكين: القيامة والصعود ص ٤٩.

(٤) علم اللاهوت الكتابي ص ٦٤.

(٥) إبراهيم لوقا: المسيحية في الإسلام ص ١٥٨.

جاء في "علم اللاهوت النظام" في الجواب على السؤال القائل: هل كان آدم قابلاً للموت لو لم يخطئ؟ لا ريب في أن الجواب الصحيح عليه هو سلبي بدليل نص الكتاب المقدس على أن الموت أجرة الخطية وتهديد الله لآدم بقوله (لأنك في يوم تأكل منها موتاً تموت) لما فيه من الدلالة الصريحة على أنه إن كان لا يأكل - لا يموت، ثم قوله له: لأنك تراب وإلى تراب تعود، لما فيه من الدلالة البينة على أن الرجوع إلى التراب هو من باب القصاص، وأيضاً قول بولس (إن الموت دخل بالخطية)^(١) "وإن في آدم يموت الجميع" أي الموت الجسدي^(٢).

فاتضح من الكتاب المقدس أن الموت هو عقاب الخطية وأنه لولا معصية أبونا الأولين لما حكم به علينا^(٣).

وأما قول الآباء في: هل كان جسد آدم أصلاً مؤهلاً للبقاء أم لا؟ فالإجابة عليه كما يلي:

ذهب كثير من الآباء إلى أن آدم وضع في الفردوس الأرضي لكي يصرف مدة امتحانه فيه فإن وجد طائعاً ينقل إلى الفردوس السماوي المرموز إليه بالأرضى.

وذهب لوثيروس^(٤): إلى أن أبونا الأولين لو لم يخطأ لأذن الله لهما بالأكل من شجر الحياة على الدوام، وأن من شأن ثمر تلك الشجرة حفظ جسديهما في الشبيهة الدائمة^(٥).

وذهب آخرون إلى أن آدم لو ثبت في كماله لأصاب جسده وأجساد ذريته تغيير كالتغيير الذي علمهم إياه بولس أن يطرأ على الذين يبقون في الحياة إلى وقت مجيئ

(١) رومية ٥ : ١٢.

(٢) ١ كورنثوس ١٥ : ٢٢.

(٣) علم اللاهوت النظامي ص ٦٠٧ ، ٦٠٨.

(٤) هو مرتينوس لوثر، ولد في بلدة أسيلين من مقاطعة ثورنغية في جرمانيا سنة ١٤٨٣ م درس علم اللاهوت، وعين معلماً له في جامعة ورتمبرج، ولما ابتدع البابا (لاون) العاشر أوراق - الغفرانات لم يرق هذا العمل في عيني لوثر فأخذ يندد بفساده بتنديدا قاسياً، وظل لوثر في منازلة البابا ومحاجته نحو ٢٨ سنة بعد أن خلع ثوب الرهبة وتزوج من راهبة تدعى كترين بوريه، وفي آخر حياته مرض بالفالج وتوفي في ١٨ فبراير ١٥٤٦ م (القمص ميخائيل مينا: علم اللاهوت القسم الخاص ص ٢٤ ، ٢٥).

(٥) أي الشباب الدائم.

المسيح الثاني فإنهم لا يموتون بل يتغيرون أي أن الفاسد يلبس عدم فساد، المائت يلزم عدم فساد، المائت يلزم عدم موت. فليزِم من ذلك: أولاً: أن آدم لو لم يخطئ لم يمِت. ثانياً: أنه لو عني بولس بقوله (لبسنا صورة الترابي) أي أجسادنا الحاضرة تشبه جسد آدم كما كون أصلاً لتتج أن جسد آدم كان كأجسادنا تحتاج إلى التغير ليؤهل للخلود^(١).

وعموم القول فإن الرأي الغالب والسائد بين الآباء هو الرأي الأول. ويبين جرهاردوس فوس أنه برغم أن الاعتقاد بأن الموت هو عقوبة الخطية هو الاعتقاد السائد بين الآباء في جميع الأجيال إلا أن هناك كتاباً معاصرين يحاولون إعادة النظر في هذا المعتقد، فهناك بعض الآراء التي تنادي بأن الإنسان خلق منذ البداية خاضعاً لناموس الموت. من هذه الآراء:

أولاً: أن شجرة الحياة تصور لنا في قصة التكوين على أن الإنسان لم يكن قد أكل من ثمارها - سواء قبل الامتحان أم بعده - أي أنه لم يكن قد نال من الحياة ومن ثم فيسرى عليه ناموس الموت.

ثانياً: في سفر التكوين ٣: ١٩ نقرأ أن رجوع الإنسان إلى التراب أمر طبيعي "حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها لأنك تراب وإلى تراب تعود".

ثالثاً: أن سفر التكوين ٢: ١٧ يثبت لنا أن تهديد الله للإنسان لم يكن مداره أن الخطية ستجلب الموت بل إن الخطية سوف تسبب الموت المبكر الفوري "يوم تأكل منها موتاً تموتاً"^(٢).

ويقول عن هذه الآراء: إن كل هذه الآراء تستند إلى تفسير علمي غير دقيق فالفكر الأول يخفق في التمييز بين الحياة التي نالها الإنسان عن طريق الخلق وبين الحياة التي لا تتعرض للفقدان والتي كان مقدرًا للإنسان أن يصل إليها عن طريق الامتحان، والحياة الثانية نجدها ممثلة في شجرة الحياة. وكون الإنسان لم يتناول من ثمارها لا يعني انتفاء هذه الحياة الدائمة بالنسبة له.

(١) علم اللاهوت النظامي ص ٦٠٨.

(٢) علم اللاهوت الكتابي ص ٦٤ بتصرف شديد.

أما الرأي الثاني فلنصل إلى إثباته يلزمنا أن نفصله عن القرينة. إن الكلمات (لأنك تراب وإلى تراب تعود) وردت ضمن منطوق لعنة فلو كانت تشير إلى ناموس طبيعي يسري على الإنسان منذ البداية فأى عقاب أو لعنة فيها، كما أنها لا يمكن أن تعني اللعنة كانت في الموت المبكر الفوري، فالكلمات التي تسبقها تنفي هذا الرأي، فهي تشير إلى عملية تعب متواصل ينتهي بالموت^(١).

فالاعتقاد السائد بين المسيحيين أن أجرة الخطية الموت وعلى أساس ذلك فالموت في المسيحية يعني: الانفصال عن الله حيث إن الخطية أفضت إلى الموت وإلى الطرد من الجنة، فإن كانت الحياة تعني الشركة مع الله فبحسب قاعدة (بضدها تعرف الأشياء) فإن الموت يمكن أن يفسر على أنه انفصال عن الله، وهذه الإشارة نجدها - كما يقولون - في:

"فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها"^(٢) فإن الطرد من الجنة أو الطرد من محضر الله معناه الطرد إلى الموت فأساس الموت هو في كون الإنسان قد طرد من محضر الله"^(٣).

فالموت لا يعني توقف الحياة ولكنه يعني - لدى المسيحيين - الانفصال والانحلال^(٤).

يقول د/ راغب عبد النور: وسقط الإنسان وطرده من الجنة وانفصل عن الله والانفصال عن الله هو انفصال عن الحياة وعن النور فعانى الموت ولفه الظلام بأكفانه^(٥).

والموت في نظر المسيحية المترتب على مخالفة آدم لوصية الله وعصيانه لأمره يتضمن الموت الأدبي (الموت الجسدي، الموت الروحي)، الموت الأبدي.. ❖ أما الموت الأدبي: فهو معناه العجز عن السلوك بالقداسة والكمال.

(١) المرجع السابق ص ٦٥ بتصرف شديد.

(٢) تكوين ٣: ٢٣.

(٣) المرجع السابق ص ٦٩.

(٤) كلايد تارنر: هذه عقائدنا ص ٥٨.

(٥) د/ راغب عبد النور: شجرة الحياة ص ٩.

فقد قال بولس عن الخطية قبل إيمانه بالمسيح إنها خدعته وقتلته^(١) وإنها عاشت فمات هو^(٢) كما قال للمؤمنين عن حالتهم قبل الإيمان "وأنتم إن كنتم أمواتا بالذنوب والخطايا"^(٣).^(٤)

وآدم حين سقط في الخطيئة - كما يقولون - أصبح ميتاً بمعنى أنه أصبح عاجزاً عن السلوك السوي والقداسة والكمال، لأن الخطيئة تميمت النفس وتخدعها وتقتلها، وبعد أن كان على صورة الله في المعرفة والقداسة والكمال ماتت المعرفة والقداسة ومات أيضاً كماله الأدبي. فالموت الأدبي: كل عام يشمل جميع الموت الجسدي والروحي، وينتهي الموت الجسدي والروحي إلى الموت الأبدي.

• أما الموت الجسدي: فيراد به موت الجسد وكل ما يسبقه^(٥) (فيرجع التراب إلى الأرض كما كان وترجع الروح إلى الله الذي اعطاها)^(٦).

"إن موت الجسد - كما يقولون - هو جزء من عقاب الخطية فلو لم تكن الخطية لما كان الموت الجسدي، لقد دبر الله تدبيراً عجيباً به كان يمكن لآدم وحواء أن ينجوا من الموت لو لم يخطأ. لقد وضع في الجنة شجرة الحياة التي كان يمكن أن يأكلا من ثمرها ويعيشا إلى الأبد وإنما لو أخذنا هذه الكلمات بصورة رمزية أو حرفية فالحقيقة هي هي، لقد دبر الله طريقة بها كان بإمكانها أن يخلصا من الموت.

يقول الكتاب المقدس إن آدم وحواء قد طردا من الجنة ليس لأنهما أخطأ ولكن لكي لا يأكلا من شجرة الحياة^(٧) ومنذ ذلك اليوم والموت نحيم على العالم، كل

(١) رومية ٧ : ١١.

(٢) رومية ٧ : ٩.

(٣) أفسس ٢ : ١.

(٤) عوض سمعان : طريق الخلاص ص ١٤.

(٥) د/ أندرو وطسون : شرح أصول الإيمان ص ٩٦.

(٦) جامعة ١٢ : ٧.

(٧) تكوين ٣ : ٢٢ - ٢٤.

من عاش على الأرض مات ولم يشذ عن هذه القاعدة غير أخنوخ^(١) وإيليا^(٢) لقد أصبحت الأرض مقبرة واسعة وفي بعض الحالات يكون الموت هو النتيجة المباشرة للخطية بعينها أو لعدة خطايا، ولكن الموت بوجه عام هو النتيجة غير المباشرة للخطية في الجنس البشري^(٣).

❖ ويراد بالموت الروحي: فقدان البر الأصلي وابتعاد الله عن الإنسان بسبب الخطيئة^(٤). يقول كلايد تارنر: ليس المعنى الجوهري للموت هو الانقراض بل الانفصال مع ما يرافقه من دمار.

الموت الجسدي يعني انفصال الروح عن الجسد مما يسبب انحلال الجسم فيعود الجسد إلى التراب وترجع الروح إلى الله.

والموت الروحي هو انفصال النفس عن الله مما يسبب دمار النفس. إن الإنسان بحالته الطبيعية - فى نظرهم - ميت روحياً وبعيد عن الله، ويصف بولس حالة أهل

(١) راجع تكوين ٥ : ٢٤ يقول الأب متى المسكين: إن أول نصرة حازها الإنسان ضد الموت بصورة حاسمة ملموسة كانت على يد أخنوخ بشهادة الكتاب المقدس (وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه) تكوين ٥ : ٢٤ ولكن لم تكن هذه النصرة الباهرة لأخنوخ ضد الموت جزافاً فقد أثبت جدارة أمام الله كفاءة الله علانية إذ - يقول بولس في الرسالة إلى العبرانيين "بالإيمان نقل أخنوخ لكي لا يرى الموت ولم يوجد لأن الله نقله إذ قبل نقله شهد له بأنه قد أَرْضَى الله" عبرانيين ١١ : ٥ لأنه إن كان آدم بسبب عصيان الله وقع تحت سلطان الموت فأخنوخ بسبب إرضاء الله كان أول إنسان بعد آدم يهزم الموت ويطأه بقدميه ويرتفع إلى السماء حياً أ. هـ - (القيامة والصعود) ص ٥٠ ونحن نقول: إن هذا دليل على أن خطيئة آدم خاصة به وحده ولم يرث الخطيئة أبناؤه إذ لو ورثها أخنوخ لمات. ولأن الكتاب المقدس يبين أن سبب عدم الحكم على أخنوخ بالموت هو إرضاء الله عليه. فهذا يعنى أن إرضاء الله سبحانه وتعالى هو الطريق الصحيح للانتصار على الموت والخلاص منه - وليس كما يدعى المسيحيون من أن الخلاص عن طريق ابن الله المخلص.

(٢) راجع الملوك الأول إصحاح ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢١ "وإيليا أيضاً نَجَدَ غلبته على الموت بواسطة إرضاء الله إذ نجاه الله من إيزابل والأنبياء الكذبة. ورفع إلى السماء في موكب سماوي مهيب بمركبة نارية وخيول شاروبيمية أرسلت من السماء خصيصاً لنقل إيليا حياً بجسده كأكظم نصرة على الموت (راجع أيضاً القيامة والصعود ص ٥١). وبين نصرة أخنوخ على الموت بواسطة إرضاء الله ونصره شعب إسرائيل بأجمعه على الملوك المهلك بواسطة طاعة وصية الله توجد أمثلة عديدة لنصرات كثيرة ومتوالية فردية وشعبية على الموت سواء إزاء وحوش أو حوادث أو حروب، أو أمراض أو كوارث امتدت فيها جميعاً يد الله وانتشلت الإنسان من موت محقق مثل داود من فم الذئب والأسد ومن سيف جليات الجبار وإيليا من يد إيزابل وكذلك أيضاً نصرة الشيخ النبی على الموت ... إلى آخره ص ٥١ - ٥٢.

(٣) كلايد تارنر: هذه عقائدنا ص ٧٧ - ٧٨.

(٤) شرح أصول الإيمان ص ٩٧.

أفسس الروحية قبل إيمانهم (أموات بالذنوب والخطايا) "و بالطبيعة أبناء الغضب"^(١) لقد كانوا بعيدين عن الله (إذ هم مظلمو الفكر ومتجنبون عن الحياة الله بسبب الجهل الذي فيهم بسبب غلاظه قلوبهم)^(٢)، هذا هو الموت الروحي ينتهي أخيراً إلى الموت الأبدي والانفصال الأبدي عن الله، ودمار النفس الأبدي هذا إن لم يأت الإنسان إلى معرفة الله (معطياً نقمة للذين لا يعرفون بالله.. الذين سيعاقبون بهلاك أبدي من وجه الرب ومن مجد قوته)^(٣) ودمار النفس الأبدي هذا يدعى "الموت الثاني"^(٤). فالموت الروحي ينتهي بالإنسان إلى الموت الأبدي الذي هو العذاب الواقع على الإنسان جسداً وروحاً في جهنم إلى الأبد^(٥) فيمضي هؤلاء إلى عذاب أبدي والأبرار إلى حياة أبدية^(٦).

وقد ذكر الموت بصوره وأنواعه في مواضع عديدة في أسفار الكتاب المقدس وإصحاحاته فنجد ذكره في الفقرات المتعلقة بالموت الطبيعي (٦٣) مرة وبما يسمى بالموت الروحي (٢٩) مرة وبما يسمى بالموت الأدبي (٤٣) مرة ويموت المسيح (٥٦) مرة ويموت القديسين (٤٢) مرة ويموت الأشرار (٤٤) مرة وبالموت العقابي (٢٠) مرة وبالموت الجسدي (ست مرات) وبالموت للخطية أربع مرات فضلاً عن فقرات أخرى تتعلق بموضوع الميت (٢٤) مرة، أي أن الموت بأنواعه وصوره قد ذكر في الكتاب المقدس (٣٣١) مرة^(٧).

وهكذا فقد الإنسان الأول آدم - كما يقولون - حالة الكمال الأدبي الذي خلقه الله عليهما وأصبح خاضعاً لناموس الفساد وسلطان الخطية^(٨) فالخطيئة تهدم الحياة الروحية والاخلاقية والجسدية^(٩).

(١) أفسس ٢ : ١ - ٣.

(٢) أفسس ٤ : ١٨.

(٣) ٢ تسالونيكي ١ : ٨ ، ٩.

(٤) كلايد تارنر: هذه عقائدنا ص ٧٨ ، ٧٩.

(٥) شرح أصول الإيمان ص ٥٩٧ ، طريق الخلاص ص ١٥.

(٦) متى ٢٥ : ٤٦.

(٧) جمعية الكرايس البريطانية: مغنى الطلاب في مواضع الكتب الإلهية ص ٢٢٣ - ٢٢٥ نقلاً عن الخلود في التراث الثقافي المصري ص ١٥٨.

(٨) إبراهيم لوقا: المسيحية في الإسلام ص ١٥٨.

(٩) أحمد عبد الوهاب: حقيقة التبشير ص ٥١.

ويتبين مما سبق أن آدم قبل السقوط كان متمتعاً مع حواء بمزايا عديدة منها القداسة والقوة والطمأنينة والراحة فكانت نتائج معصيتهما فقد هذه المزايا بجانب العقوبات التي حكم الله عليها بها وأهمها موت النفس والجسد^(١).

يقول إلياس مقار: وأجرة الخطية هي موت وقد مات آدم وحواء في اللحظة التي سقطا فيها وانفصلا عن الله، لقد ماتا في الحال الموت الروحي والأدبي إذ لم تعد لهما الشركة الجميلة الحلوة المقدسة مع خالقهما المحب وأبيهما القدوس بل لم يعد لهما ذلك الإحساس الذي ألفاه ودرجا عليه، إحساس الحنين إليه والشوق إلى رؤياه بل لقد شعرا للمرة الأولى بأن غشية من الظلام استولت على عيونهما فلم يعودا يميزان للمرة الأولى بالفرق بين الحق والباطل والنور والظلام والجمال والقبح والخير والشر بل شعرا بما يشبه السم الزعاف القاتل يسري في بدنيهما فينحدر في كيانهما كل المعاني والحقائق ويقتلها في بطن وعذاب وقسوة وإلى جانب هذا كله شعرا بالموت المادي يأخذ سبيله إلى جسديهما بالضعف والوهن والتعب والمرض والاخلال وهكذا أدركا صدق القائل (لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت)^(٢).

ثانياً: طرد آدم وحواء من الجنة:

خلق الله الإنسان الأول آدم ووضعه في جنة عدن وكان على آدم مسئولية أن يعمل لحفظ هذه الجنة وهذا النعيم وذلك بأن لا يقرب من شجرة معرفة الخير والشر وبينما كان آدم - كما يقولون - على صورة الله في المعرفة والقداسة والبر يتنعم بالجنة وما فيها وإذ بالحية تتسلل إلى المرأة حواء وتستغلها وتغويها بالأكل من الشجرة المحرمة فأكلت حواء، وعن طريق حواء امتدت يد آدم إلى الشجرة فأكل منها فكانت نتيجة ذلك - بجانب ما سبق - أن قال الرب الإله هوذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً للخير والشر والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها فطرد الإنسان

(١) الدين المسيحي للمرحلة الثانوية سنة ١٩٦٦ ص ٣٢.

(٢) رجال الكتاب المقدس ج ١ ص ١٢، قضايا المسيحية الكبرى ص ٣٧٨، ٣٧٩.

وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم^(١) ولهيب سيف متقلب^(٢) لحراسة طريق شجرة الحياة^(٣).

فكان طرد الله لآدم وحواء من الجنة - كما يقولون - لكي لا تمتد أيديهما إلى شجرة الحياة فيأكلا منها وعن طريقها يحيا آدم وحواء إلى الأبد، أي بواسطة ثمر شجرة الحياة يحيا الإنسان إلى الأبد. وأخرجهما الله أيضاً من الجنة ليعملا ويكددا في الأرض (طرد آدم وحواء من الجنة فطردا بذلك من الحياة الوادعة الآمنة المستريحة^(٤)).

كيف يقال إن الله أخرجهما من الجنة لكي لا يأكلا من شجرة الحياة لكي تتم عقوبة الموت عليهما، مع أنهما وهما في الجنة لم يكونا يعرفان شجرة الحياة، فكان مصيرها الموت هناك أيضاً، حتى ولو لم يأكلا من شجرة المعرفة؟

وكيف يحسن أن يقال: (وقال الرب الإله هوذا الإنسان قد صار كواحد منا يعلم الخير والشر)، أيتوهم عاقل أن الإلهية تكتسب فضلاً عن أنها تكتسب بالأكل؟

(١) كروب، كروبيم (صيغة الجمع العبرية) أو كرويون (صيغ الجمع العربية) والكروبيم: ملائكة يرسلون من قبل الله أو يقيمون في حضرته تعالى أقامهم الله على أبواب جنة عدن عندما طرد آدم وحواء منها، ويقال عنهم إنهم ذوو جناحين أما أشباههم فكانت من ذهب وأوقفت على غطاء تابوت العهد وكلم الرب موسى وتضع كروبيم من ذهب صنعة خراطة تصنعهما على طرفي الغطاء (خروج ٢٥ : ١٨) وعمل في بيت قدس الأقداس كروبيم صناعة الصباغة وغشاهما بذهب، وأجنحة الكروبيين طولها عشرون ذراعاً الجناح الواحد خمسة أذرع يمس حائط البيت والجناح الآخر خمسة أذرع يمس جناح الكروب الآخر والجناح الآخر خمسة أذرع.... إلى آخره. وأجنحة هذين الكروبيين منبسطة عشرون ذراعاً وهما واقفان على أرجلها خمسة إلى داخل (أخبار الأيام الثاني ٣ : ١٠ - ١٣)، وكان جناحا الكروبيين يظلان التابوت.

وكان الكروبيم تحت عرش الله لما ظهر لحزقيال (ثم رفعت الكروبيم أجنحتها والبكرات معها ومجد إله إسرائيل عليها من فوق وصعد مجد الرب من على وسط المدينة ووقف على الجبل الذي على شرقي المدينة) حزقيال ١١ : ٢٢ - ٢٣ بالمقابلة مع (فإذا سارت الحيوانات سارت البكرات بجانبها وإذا ارتفعت الحيوانات عن الأرض ارتفعت البكرات) حزقيال ١ : ٩. أ. هـ قاموس الكتاب المقدس ص ٧٧٩.

(٢) ولهيب سيف متقلب : هو أداة التأديب والقصاص (الدين المسيحي للمرحلة الثانوية ص ٣٢).

(٣) تكوين ٣ : ٢٢ - ٢٤.

(٤) قضايا المسيحية الكبرى ص ٣٧٨.

وكيف يحسن أن يقال عقب ذلك (والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة ويأكل ويحيا إلى الأبد) فإن ظاهره أن الحياة والموت ليسا بيد الله وقدرته بل بسبب بعض المأكولات وأن الله خشى من حياته الأبدية بسبب أكل الشجرة فأخرجه من الفردوس، ولو كان أكل الشجرة الأولى موجبا لعلم الخير وأكل الثانية موجبا للحياة كما هو ظاهر اللفظ لكان آدم عقيب أكل الشجرة الأولى أكل من الشجرة الثانية ضرورة من غير تأخير، إذ قد علم الخير والشر فيعلم أن هذا خير فلا يمكنه الصبر عليه أصلاً.

كيف يحسن أن يقال "وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم..." عقيب قوله "فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض" فإن آدم في الأرض خارج الفردوس فكيف يمكنه الدخول إلى الفردوس بغير إذن الله حتى يحتاج إلى حفظ طريق الشجرة وهي داخل الفردوس؟ وأيضاً: فلو كان دخول الفردوس بغير إذن الله ممكناً لدخله الآن كل واحد منا أو بعضنا، ولكان المناسب له أن يقال: ليحفظ دار الفردوس التي هي دار النعيم لئلا يدخلها آدم العاصي بعد إخراجه منها سواء أكل من الشجرة أم لا^(١).

عقوبات الجنس البشري نتيجة لسقوط آدم في الخطيئة في المسيحية

إن الرأي السائد في الديانة المسيحية أن خطية آدم لم تضربه وحده بل امتدت إلى جميع نسله فشملتهم.

يقول علم اللاهوت النظامي في إجابة على سؤال: هل أضرت خطية آدم به فقط؟ الجواب: قد أجمع المسيحيون^(٢) على أن خطية آدم لم تضربه فقط بل بجميع نسله أيضاً، ولكنهم اختلفوا في كيفية علاقة آدم بنسله من هذا القبيل، وسبب اشتراكهم في نتائج معصيته، وفي ماهية الخطية التي ورثها نسله، وفي امتدادها.

(١) على التوراة ص ٣٤ - ٣٥.

(٢) قوله (أجمع المسيحيون) خلاف الواقع فهناك من المذاهب اللاهوتية التي ترفض عقيدة وراثة نسل آدم لخطيئته، وهم البيلاجيون.

أما التعليم الإنجيلي في ذلك فهو أن خطية الإنسان في الحال التي سقط فيها تقوم باشتراكه في جرم خطية آدم الأولى المحسوب عليه، ويفقد البر الأصلي، وفساد طبيعته كلها المسمى غالباً الخطية الأصلية، وبجميع الخطايا الفعلية الصادرة من ذلك. والبشر بسبب هذا الفساد الأصلي فسدوا فساداً تاماً في كل قوي النفس والجسد، وفي كل أجزائها، ومالوا عن الخير كل الميل، وعجزوا عن عمله وتبعوا الشر، ومن هذا الفساد تصدر كل الخطايا الفعلية. وأيضاً أنه إذ لم يقطع العهد مع آدم من أجل نفسه فقط بل من أجل نسله أيضاً فالجنس البشري جميعه المتناسل منه تناسلاً طبيعياً قد أخطأ منه وسقط معه بخطيته الأولى ولذلك نسبته إلى آدم هي علة هذه الحالة الردية، وأن هذا السقوط أوصل الجنس البشري إلى حال الخطية والشقاوة^(١).

فخطية البشر في الحال التي سقطوا فيها تقوم بإجرامهم - كما يقولون - في خطية آدم الأولى ويفقدان البر الأصلي وفساد طبيعتهم كلها المسمى غالباً بالخطية الأصلية وبجميع الخطايا الفعلية الصادرة من ذلك^(٢).

يقول حبيب جرجس: إن خطية آدم عمت جميع نسله وعادت بالويل والشقاء على سائر الجنس البشري وصار محكوماً عليهم أن يولدوا أئمة وعبيداً للخطية والموت وذلك لأن آدم لم يلدهم إلا وهو في حالة الإثم والمعصية والغضب فبناء عليه كان جميع الجنس المتناسل منه بالطبيعة أئمة ومخطئاً وواقعاً في المعصية عليهم كما حسب عليه^(٣).

ويقول إبراهيم لوقا: ولما كان الشوك لا يثمر تينا فقد صار جميع نسل هذا الإنسان الأول فاسداً كفساده واقعاً تحت حكم الموت^(٤).

ويقول كلايد تارنر: إن الإنسان بسقوطه لم يجلب الدمار على نفسه فحسب بل على ذريته أيضاً، وأيضاً بما أن آدم هو أبو الجنس البشري فتأثير خطيته قد تعداه إلى نسله لأنهم أصبحوا ورثة لطبيعة ساقطة. هذه الحقيقة ظاهرة بوضوح في العهدين

(١) علم اللاهوت النظامي ص ٦٤٨، تفسير أصول الإيمان ج ١ ص ٥٦، شرح أصول الإيمان ص ١١٥.

(٢) ج. أ. وليسون: تفسير أصول الإيمان ج ١ ص ٦١ ترجمة الشيخ/ فايز فضيل.

(٣) خلاصة الأصول الإيمانية في معتقدات الكنيسة القبطية الأرثوذكسية ص ٢٣ - ٢٧.

(٤) إبراهيم لوقا: المسيحية في الإسلام ص ١٥٨.

القديم والجديد فقد قال داود: هاأنذا بالإثم صورت وبالخطية حبلت بي أُمِّي^(١) لم يتهم داود أمه بالخطية ولكنه يعلن أنه قد ولد بطبيعة فاسدة. والعهد الجديد يبين هذه الحقيقة بوضوح أجلى يقول بولس (ومن أجل ذلك كأنما بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم وبالخطية الموت وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع)^(٢). ويقول "لأنه كما بمعصية الإنسان الواحد جعل الكثيرون خطاة"^{(٣)، (٤)}.

ويقول كلايد تارنر أيضاً: ومن جراء الخطية أصبح الإنسان فاسداً بطبيعته وبعد سنين عديدة قال يسوع (هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثماراً جيدة وأما الشجرة الرديئة فتصنع أثماراً ردية، ولا شجرة ردية أن تصنع أثماراً جيدة)^(٥) وهكذا فإذا كان رأس الجنس البشري فاسداً فإنه لا يستطيع أن يثمر إلا نسلأ فاسداً.

إن البراهين على صدق هذه الحقيقة غير قائمة في الأسفار المقدسة فحسب ولكن يمكن أن نبرهن على صحتها باختباراتها الخاصة^(٦).

وسوف نناقش ذلك كله فيما بعد، ولكننا مع هذا سنعلق تعليقاً موجزاً على هذه الادعاءات:

أما قوله "هذه الحقيقة - وراثه الخطيئة - واضحة وظاهرة في الكتاب المقدس فإن هذا القول ليس صائباً لأن الكتاب المقدس يوضح أنه لا يؤخذ الأبناء بجرائم الآباء" فمن ذلك قوله: "النفس التي تخطئ هي تموت والابن لا يحمل من إثم الأب، والأب لا يحمل من إثم الابن بر البار عليه يكون وشر الشرير عليه يكون"^(٧) ومثله أيضاً في سفر التثنية: (لا يقتل الآباء عن الأولاد ولا يقتل الأولاد عن الآباء كل إنسان

(١) مزمور ٥١ : ٥.

(٢) رومية ٥ : ١٢.

(٣) رومية ٥ : ١٩.

(٤) كلايد تارنر: هذه عقائدنا ص ٥٩.

(٥) متى ٧ : ١٧، ١٨.

(٦) نفسه، نفس الصفحة.

(٧) حزقيال ١٨ : ٢٠.

بخطيته يقتل)^(١) وكذلك ما جاء على لسان بولس "دينونة الله العادلة الذي سيجازي كل واحد حسب أعماله"^(٢) كل ذلك يثبت أن خطيئة الإنسان لا تتعدى نفسه ولا يقع إثم خطيئة الإنسان على غيره ولا يتحمل خطأه سواء"^(٣).

فهذه الفقرات توضح أن كل إنسان مسئول عن عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر ولا تزرو وزارة وزر أخرى ، وما استدل به (كلايد تارنر) من قول داود فإنه لا يعدو سوى مناجاة من عبد طائع لله ، ولا شك أن الإنسان العابد الذي يناجي ربه ويتضرع إليه دائماً وأبداً يطلب من الله الرحمة ولا يكون ذلك إلا بالإقرار بالضعف أمام المعاصي ولا أدل على ذلك مما جاء في بداية المزمور الذي جاء منه القول السابق (ارحمني يا الله حسب رحمتك حسب كثرة رأفتك... "^(٤).

أما الفقرات الأخرى التي استدلت بها من كتابات بولس ، فإن بولس هذا - كما قلنا سابقاً - ليس من تلاميذ المسيح ولا من تلاميذ تلاميذه ولكنه كان من أشد أعداء المسيحية وفجأة وبدون مقدمات أصبح المؤسس الحقيقي للمسيحية.

أما استدلاله على وراثته الخطيئة لنسل آدم بأن الجنس البشري متناسل من آدم المخطئ والشجرة الطيبة تنتج ثمرة طيبة والشجرة الرديئة تنتج ثمرة رديئة فإن هذه النظرية تحتاج إلى توضيح ذلك أننا نرى الرجل المؤمن الولي يولد له من يكون فاسقاً ، وكذلك الرجل الكافر الفاسق يولد له من يكون مؤمناً تقياً^(٥).

ومن ناحية الأشجار فرغم أن القضية في المعنويات ، وهي لا تخضع للوراثة كالحسيات فإننا نجد الشجرة الطيبة نعم تنتج ثماراً طيبة ولكننا نجد المذاق يختلف من ثمرة لأخرى فنرى واحدة أقل في الحلاوة وأخرى أكثر في الحلاوة وهذا فيه بعض

(١) تثنية ٢٤ : ١٦ .

(٢) رومية ٢ : ٦ .

(٣) د/ محمد وصفي : المسيح والتثليث ص ٣٦٩ .

(٤) مزمور ٥١ : ١ .

(٥) يشوع ٢٤ : ٢ - ١٤ وذلك عن آباء إبراهيم (قاموس الكتاب المقدس) ص ١١ .

الاختلاف. معنى ذلك أن قوله غير مسلم به لأنه يختلف من شخص لآخر ومن ثمرة لأخرى.

المذاهب اللاهوتية في الخطية^(١)

لقد قلنا في الفصل السابق أن هناك ثلاثة مذاهب لاهوتية اشتهرت في الكنيسة على الدوام وهي:

المذهب الأوغسطيني

المذهب البيلاجي

المذهب النصف البيلاجي

ونحن بصدد دراسة الخطية التي هي من أهم الأسباب التي نتجت عنها المذاهب الثلاثة، بل إنها أكثر قضية اختلفت حولها المذاهب الثلاثة نذكر بإيجاز آراء المذاهب الثلاثة في الخطية وما ينتج عنها.

وسنبداً بالمذهب الأوغسطيني لأن الكنيسة الغربية تؤمن به وكذلك الكنيسة الإنجيلية ولأن الكنائس الأخرى تعتقد أنه يتوافق مع تعاليم الإنجيل.

المذهب الأوغسطيني في الخطية:

ما قلناه سابقاً من وراثة نسل آدم لخطيئة هو عين المذهب الأوغسطيني. وأهم آراء هذا المذهب:

❖ أن الله خلق الإنسان أصلاً على صورته تعالى في المعرفة والبر والقداسة مختاراً خالداً وخوله سلطاناً على الخلائق ولذلك كان له قدرة على اختيار الخير والشر وإثبات طبيعته الأدبية.

❖ أن آدم إذ ترك حرية إرادته أخطأ إلى الله باختياره حين تجرب من إبليس فسقط من الحال التي خلق عليها.

(١) اعتمدنا في هذه الفقرة بالذات على كتاب (علم اللاهوت النظامي) حيث إنه الكتاب الأول في علم اللاهوت النظامي المسيحي، ولأن هذه الفقرة شرحت فيه شرحاً وافياً.

❖ أنه نشأ من معصيته فقد الصورة الإلهية وفساد طبيعته كلها حتى صار ميتاً في الروح غير مائل إلى الخير الروحي وعاجزاً عنه ومضاداً له ، وصار أيضاً قابلاً للموت الجسدي وعرضة لكل أسواء هذه الحياة وللموت الأبدي.

❖ أن الاتحاد النيابي بين آدم ونسله هو علة ما حل عليهم من نفس نتائج المعصية التي حلت عليه وأنهم يولدون أبناء الغضب (أى في حال الدينونة) خالين من صورة الله وفاسدين أدبياً.

❖ أن هذا الفساد الذاتي الموروث هو بالحقيقة من طبيعة الخطية غير أنه ليس من الخطايا الفعلية.

❖ أن فقد البر الأصلي وفساد الطبيعة اللذين نتجا من سقوط آدم هما عقاب لأنهما قصاص خطيته الأولى.

❖ أن التجديد أو الدعوة الفعالة هو عمل الروح القدس العجيب الذي تكون فيه النفس مفعولاً لا فاعلاً وهو متعلق بإرادة الله على الإطلاق فيلزم عن ذلك إن الخلاص هو من النعمة فقط^(١) وهو كما ترى لا يختلف عما قلناه سابقاً.

المذهب البيلاجي في الخطية:

وهو مذهب بيلاجوس ومن مبادئه: أن القدرة تحدد الالتزام وأن للإنسان قدرة كافية لعمل كل ما يكلف به الحق ، وأن الخطية إنما تقوم بالعمل الصالح وأن القداسة إنما تنشأ عن الأعمال الصالحة. ولذلك الخطية لا تنسب إلى أخلاق النفس وأميالها الراسخة بل إلى أعمالها فقط. وشريعة الله لا تحيط بالأخلاق الراسخة بل باختيار الإرادة وأعمالها فقط. والقاعدة التي يقوم عليها هذا النظام كله هي قولهم: إذا وجب على قدرتي. وعلى ذلك يمكن حصر هذا المذهب في مبدئين:

الأول: أن القدرة تحدد التكليف.

الثاني: أن الخطية لا تختص البتة بأخلاق النفس وصفاتها الباطنة، بل إنما تقوم بالأعمال الصالحة، وأن القداسة كذلك لا تختص بخصال النفس، بل إنما تقوم بالأعمال الصالحة.

والنتائج اللازمة عن المبدئين اللذين أمكن حصر المذهب البيلاجي فيهما مايلي :-

- ❖ نفى وجود بر أصلي في آدم وفي كل مخلوق بشري
 - ❖ نفى وجود خطية أصلية في البشر بل عدم إمكانية ولادة البشر في الخطية.
 - ❖ حصر الخطية في الأعمال الاختيارية أي لا خطية إلا ما نشأ عن الأعمال الاختيارية ومن ذلك نشأ المذهب البيلاجي في حرية الإرادة الذي ملخصه أن الحرية التامة تستلزم دائماً القدرة المطلقة في الإرادة على اختيار الخير والشر والعمل بحسب الاختيار وذلك في كل البشر على الإطلاق.
 - ❖ نفى مبدأ النيابة على الإطلاق سواء كانت في نسبتنا إلى آدم أم إلى المسيح.
 - ❖ إمكان الخلاص بدون الإنجيل وتجديد الروح القدس أي لكل إنسان قدرة على تخليص نفسه.
 - ❖ أن آدم خلق قابلاً للموت الجسدي ولذلك لم يكن موت الجسد عقاب الخطية^(١) وهذه الآراء يعتبرها المسيحيون (بدعة).
- وأهم ما في هذا المذهب من قول هو الاعتقاد بأن كل إنسان مسئول عن عمله وأن الإنسان لم يحمل من خطيئة آدم شيئاً وهو ما نوافق عليه. وعلى هذا المذهب ليس هناك ما يسمى بالخطية الأصلية.

المذهب النصف البيلاجي:

وهذا المذهب بعضه أخذ عن بيلاجيوس وبعضه عن أوغسطينوس، وهو يخالف البيلاجي برفض الاعتقاد أن خطيئة آدم أضرت نفسه فقط، وهو يعلم أن نتائج تلك الخطية اجتازت إلى كل البشر وأثرت في النفس والجسد كليهما، فجعلت الجسد تحت طائلة الموت والمرض والألم وأضعفت النفس حتى صارت مائلة إلى الشر وعاجزة

(١) المرجع السابق ص ٦٣٢ ، ٦٣٣.

بدون المعونة الإلهية عن تكميل شئ مما هو محسوب عند الله من الصلاح والخير، غير أن هذا الضعف في النفس والميل إلى الخطية فعلاً لا بحسبان عندهم من باب الخطية بل من البلية والتعطيل فقط، على أنهم يسلمون أن تلك الحال تؤدي لا محالة إلى ارتكاب الخطايا فعلاً. وهو يخالف الأوغسطيني في أنه يعلم:

❖ أن خطية آدم غير محسوبة على نسله ولم يصب الجنس بسبب سقوط آدم غير الضعف الأدبي وانحراف الصحة الروحية وذلك على قولهم ليس خطية.

❖ أن بداءة الخلاص هي من الإنسان أي هو يبتدئ أن يطلب الله ثم يأخذ الله في مساعدته.

❖ أن الإنسان يشارك الله في عمل التجديد والتقديس، فنصف العمل محسوب لله والنصف الآخر للإنسان^(١).



والرأي السائد في المسيحية هو الاعتقاد بأن خطية آدم أضرت بالجنس البشري وأن نتائج الخطية امتدت إلى نسل آدم وهو عين ما جاء في المذهب الأوغسطيني. ولقد نتج عن الاعتقاد بأن خطية آدم أضرت بنسله ثلاث قضايا رئيسية هي:

- ١ - تعليل حسابان خطية آدم على نسله.
- ٢ - فساد الطبيعة الموروثة من آدم أي (الخطية الأصلية).
- ٣ - عجز الإنسان الساقط عن كل خير روحي.

القضية الأولى: تعليل حسابان خطية آدم على نسله:

لقد اختلف المسيحيون في تعليل حسابان خطية آدم على نسله على مذاهب متعددة أشهرها:

الأول: أن خطية آدم ليست سبب إثم الجنس البشري مطلقاً وأنه ليس بين آدم والبشر نسبة طبيعية ولا جسدية ولا شرعية تسبب فيهم الخطية، ومن أهل هذا المذهب من نسب خطأ البشر إلى قصد أو ترتيب إلهي وهو أنه إن أخطأ آدم يخطئ جميع البشر بدون نسبة بينه وبينهم توجب ذلك، ومنهم من نسبها إلى اختيار الإنسان الحر فقالوا كما اختار آدم أن يخطئ كذلك يختار كل إنسان الخطية بدون

وجود نسبة طبيعية أو شرعية بينه وبين آدم^(١) وعن هذا المذهب جاء في علم اللاهوت النظامي "ولا يخفي أن هذا المذهب غير مطابق لتعليم الكتاب المقدس"^(٢) لأن الكتاب المقدس - كما يقولون - يعلمنا أن خطية آدم أضرت بجميع الجنس البشري حيث إن آدم هو رأس الجنس البشري ونائبهم الشرعي وبخطئه امتدت الخطيئة إلى نسله.

الثاني: مذهب أوريجانوس^(٣): وهو نسبة خطأ البشر الحاضر إلى عمل اختياري من كل إنسان في وجود سابق لا إلى معصية آدم الأولى، أي أن النفوس تولد في هذا العالم في حال الخطية لأنها وجدت سابقاً في كينونة أخرى وأخطأت فيه على الله، وهذا الرأي - كما جاء في علم اللاهوت النظامي - رأي وهمي لا أساس له في الكتاب المقدس الذي يعلمنا أن الله خلق الإنسان جسداً ونفساً ورأى ذلك أنه حسن - خلافاً لمضمون هذا المذهب أن آدم هو روح ساقط - وأنه خلق على صورته تعالى في المعرفة والبر والقداسة وهو سقط في تلك الحال في هذه الحياة لا في غيرها، وأنه بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم ودخل بالخطية الموت وأن الجميع أخطأوا بإنسان واحد، وكل ذلك يناقض هذا المذهب^(٤).

الثالث: مذهب الجوهر العام: وهذا المذهب يقوم على: "أن البشر اشتركوا في خطية آدم لأنهم كانوا فيه حقيقة وأرادوا وفعلوا كل ما أراد وفعل هو. وقد سمي هذا

(١) علم اللاهوت النظامي ص ٦٤٩.

(٢) نفس المرجع ص ٦٤٩.

(٣) أوريجانوس يحتل مكان الصدارة بين القادة الأولين للفكر المسيحي، ويعتبره البعض أعظم بطل مسيحي ظهر في القرون الأولى. بل نفس الذين اختلفوا معه وهاجموه وطعنوا في حياته وفي كتاباته لا ينكرون عليه مكانته كمفكر لم تثبت القرون المختلفة كثيرين مثله. ولد أوريجانوس لوينداس في حوالي سنة ١٨٥ م في مدينة الإسكندرية وكان بكر العائلة كبيرة العدد، وفي سن السابعة عشرة اجتاز هذا الشاب التقي الرقيق الإحساس في اختبار أليم قاس عندما بدأ "سفريوس" اضطهاده "العنيفة ضد المسيحيين سنة ٢٠٢ م والتي راح ضحيتها والده الرجل التقي لونيدياس. ولقد تعرض أوريجانوس لعذابات في أثناء الاضطهاد المريع الذي شنه الإمبراطور ديسيوس (١٤٩ - ٢٥١ م) والذي شمل الإمبراطورية كلها تقريباً وقد قيد بسلاسل ثقيلة في يديه ورجليه وعنقه وزج به في سجن مظلم وكوي بالحديد وكان هم القاضي أن يحتفظ به حياً ليطلق عذابه. كان لهذا الاضطهاد والعذابات التي أضعفت جسده تأثيرها العميق والكبير على صحته حتى بعد أن خرج من السجن فمات هذا المعلم المصري في صور ودفن فيها في سنة ٢٥٣ م. (راجع تاريخ الفكر المسيحي المجلد الأول ص ٥٣٩ - ٥٤٦، التربية الدينية المسيحية للمرحلة الثانوية ط ١٩٧٧ ح ٣ ص ٥١ - ٦١.

(٤) علم اللاهوت النظامي ص ٦٥٠.

المذهب بمذهب الجوهر العام لأنه مبني على الاعتقاد أن كل البشر جوهر واحد وأن كل فرد منهم هو جزء من ذلك الجوهر الجنس العام ومشترك مع جميع الأفراد في حياة واحدة. وبموجب هذا الرأي تكون خطية آدم خطيتنا نحن أيضًا لأننا ارتكبتها بالفعل وقد حسبت علينا باعتبار كونها خطيتنا لا باعتبار كونها خطيته فقط.

وقد استصوب هذا المذهب البعض من اللاهوتيين القدماء غير أن جمهور المحدثين رفضوه من وجهين:

الأول: من جهة عدم صحته في حد ذاته.

الثاني: من جهة عدم مناسبه لإيضاح النسبة بين آدم والبشر فيما يتعلق بحسبان الخطية الأصلية^(١).

الرابع: مذهب الحسبان بالواسطة: "وهذا المذهب يعلم: أن البشر خطاة لأنهم يرثون من آدم طبيعة فاسدة آثمة بسببها يحسبهم الله مذنبين ويعاملهم كذلك، أي أنهم خطاة ليس لأن جرم معصية آدم حسب عليهم ولا لأن بينهم وبين آدم نسبة شرعية مع أنهم لا ينكرون تلك النسبة بل لأنهم يولدون خطاة وأن الله يقاص كل إنسان على الخطية لأنه ولد خاطئًا واستحق القصاص لا لأن آدم كان نائبه وهو قد سقط بسقوطه"^(٢).

الخامس: ويسمى مذهب الحسبان رأسًا بدون واسطة: "وهو الأكثر قبولاً عند جمهور اللاهوتيين.

وحقيقة هذا المذهب: أن آدم هو رأس البشر الطبيعي ونائبهم الشرعي وأن البشر بسبب ذلك امتحنوا فيه ونتج لهم من سقوطه:

أولاً - ولادة كل فرد منهم في طبيعة فاسدة.

ثانياً - وتحت طائلة قصاص معصيته.

(١) المرجع السابق ص ٦٥٠.

(٢) المرجع السابق ص ٦٥٠.

فالأمر الأول نشأ عن رئاسته الطبيعية أي أنه فسد فنال زرعته بالولادة طبيعة فاسدة بموجب الناموس العام أن الشيء يلد نظيره بمعنى أن كل شجرة جيدة تصنع أثماراً جيدة وأما الشجرة الردية فتصنع أثماراً ردية^(١). وقد ناقشنا ذلك فيما سبق.

والأمر الثاني: نشأ عن رئاستهم الطبيعية التي بموجبها كان نائبهم الشرعي (بتعيين رسمي من الله) وحسب عليهم جرم معصيته لأنه نائبهم الشرعي.

وحاصل هذا المذهب: أن جرم خطية آدم الأولى وفقدان برة الأصلي وفساد طبيعته بسقوطه وصل إلى جميع المتناسلين منه لأنه رأسهم الطبيعي ونائبهم الشرعي وأن بين البشر وآدم نسبة طبيعية ونسبة شرعية وأنهم بواسطة الأولى أخذوا منه الطبيعة الفاسدة وبواسطة الثانية حسب عليهم جرم معصيته^(٢).

هذا المذهب هو الذي يؤمن به أكثر المسيحيين، ومضمونه أن خطية آدم أضرت به وبنسله حيث إنه كان نائبهم الشرعي والطبيعي.

ونحن نقول إن هذه النسبة لا تجعل الإنسان يتحمل خطيئته نعم إن الشيء يلد نظيره - أي في الاستعداد العام - ولكن ليس من اللازم أن يكون هذا النظير له مثل صفاته وأفعاله الأخلاقية والدينية من حيث الصلاح وعدمه طالما إننا بازاء مخلوق له حرية الفعل والترك.

القضية الثانية: فساد الطبيعة الموروثة من آدم:

الأمر الثاني الناشئ من نسبة البشر إلى آدم لدى المسيحيين هو الخطية الأصلية أو فساد الطبيعة الموروثة من آدم أو الحال التي تولد عليها النفس بقطع النظر عن حسابان جرم معصية آدم عليها. وهو يقوم بما يأتي:

- ١ - خلو النفس من البر الأصلي الذي كان لآدم قبل سقوطه.
- ٢ - وراثتها طبيعة فاسدة من الوالدين.

(١) متى ٧ : ١٧ .

(٢) علم اللاهوت النظامي ص ٦٥١ بتصرف شديد.

٣ - عجزها في الأمور الروحية وهو نتيجة ضرورية مما سبق.

وقد سبق قولهم إن حسابان الجرم نشأ من رئاسة آدم النياية الشرعية لأن الجرم لا يمكن أن ينقل كصفة ذاتية من شخص إلى آخر ولكن كنسبة خاصة إلى الشريعة يمكن أن يحسب من واحد إلى غيره.

وأما القضايا الثلاث الباقية التي ذكرت أعلاه فنشأت - كما يقولون - من رئاسته الطبيعية، والمراد بذلك أن آدم بعد سقوطه صار يلد أولادًا على شبهه كصورته، أي بدون بر، فاسدي الطبيعة، وعاجزين عن أن يكونوا صالحين، أو يفعلوا الصلاح من مجرد قوتهم وذلك بموجب الناموس العام الموضوع من الله أن الشيء يلد نظيره، وقد أجمع جمهور اللاهوتيين المسيحيين على أن هذه الأحوال الأربع (أي الثلاث المذكورة مع حسابان الجرم) المجتمعة في كل فرد من بني آدم قد جعلت قصاصًا عليهم بسبب معصية آدم.

وأما بعضهم فلم يروا لزومًا لاعتبار غير حسابان الجرم قصاصًا وقالوا: إن الثلاث الباقية نتائج طبيعية عين الله وقوعها بسبب سقوط آدم وأنها نشأت بواسطة الولادة الطبيعية^(١).

القضية الثالثة: عجز الإنسان الساقط عن كل خير روحي:

والأمر الثالث الناشئ من نسبة البشر إلى آدم وسقوطه هو عجز الإنسان الساقط عن عمل الصلاح الروحي أمام الله من تلقاء نفسه وبقوته الذاتية وذلك مدلول عليه ضرورة الموت الروحي.

والمذاهب المسيحية المشهورة في شأن قدرة الإنسان الساقط في الأمور الروحية هي :-

الأول: المذهب البيلاجي: وهو أن للخطاة قدرة كاملة على عمل ما يكلفهم الله به.

والثاني: المذهب النصف البيلاجي: (ويوافقه المذهب الأرمني) ^(١) وهو: - أن قوى الإنسان ضعفت بسبب سقوط الجنس لكنه لم يفقد كل قدرة على عمل الصلاح الروحي أمام الله. وأصحاب هذا المذهب يسلمون بلزوم النعمة الإلهية لمساعدة الإنسان في حياته الروحية وحفظه من الارتداد ولكنهم ينكرون وجوب تلك النعمة لتقديره على ابتداء الحياة الجديدة فيقولون إن كل إنسان قادر من تلقاء نفسه أن يتوب ويؤمن بالمسيح ويقصد الحياة الروحية لكنه يحتاج إلى مساعدة الله على إتمام ذلك والمواظبة عليه ^(٢).

الثالث: المذهب الأوغسطيني ويقولون عن هذا المذهب إنه المذهب الإنجيلي: - وهو: أن البشر عجزوا منذ السقوط كل العجز باعتبار قدرتهم الذاتية عن الرجوع إلى الله أو عن عمل الصالحات الحقيقية أمامه تعالى للفساد الذاتي الموروث ^(٣).

كما سبق تبين لنا: أن صورة الإنسان بعد السقوط - في الديانة المسيحية - تتجلى بوضوح من خلال العقوبات التي صاحبت سقوط الإنسان.

وعموم القول فإن الإنسان بعد السقوط - في الديانة المسيحية - فقد موهبة البر والقداسة بل والصلاح ولم يفقد آدم وحده هذه الكمالات بل امتدت إلى جميع نسله إلى بني البشر جميعاً فأصبحوا يولدون بلا بر وبلا صلاح بل بالخطية الأصلية المتعلقة بظهورهم.

(١) ينسب المذهب الأرمني إلى يعقوب أرمنيوس الذي كان أستاذاً لعلم اللاهوت في مدرسة ليدن الجامعة من سنة ١٦٠٢م إلى حين موته سنة ١٦٠٩م مع أنه كان راعياً لكنيسة هولندا الكلفينية. حامي أولاً سرّاً ثم جهراً عن النظام اللاهوتي الذي دعى من ثم فصاعداً باسمه وانتشر بغاية السرعة رغمًا عما اعترضه حالا من المقاومة من المعترين في الكنيسة، ثم بعد برهة قصيرة قدم الأرمنيون للرؤساء لأجل تحديد تعليمهم خمس عقائد تعبر عن إيمانهم بالتعيين السابق والنعمة فاشتد الجدل في شأن تلك العقائد بين الكلفينيين والأرمنيين، ولما عجزت كل الوسائط عن تسكين أهل البدع دعا ديوان الولاية العامة انعقاد سنودس عام في (دورت) من هولندا فالتأمت جلساته من سنة ١٦١٨م إلى سنة ١٦١٩م وحكم فيه بإجماع على التعليم الأرمني وأثبت إيمان الكنائس المصلحة العامة الكلفيني. وليس الآن من يعترف بقانون الإيمان الأرمني من الكنائس الإنجيلية الكبيرة سوى كنيسة الميثوديس في إنجلترا وأمريكا (راجع علم اللاهوت النظامي ص ١٤٠).

(٢) علم اللاهوت النظامي ص ٦٩١.

(٣) المرجع السابق ص ٦٩٢.

يقول القس إنسطاسي شفيق: (وعندما سقط الإنسان تعطلت نفسه فأمحت عنها صورة الله وانفسدت طبيعته وصار ميتاً في الخطية وتعطل جسده أيضاً وصار خاضعاً للموت بسبب السقوط وتعطل العالم أيضاً نظراً إلى الإنسان تعطيلاً عظيماً كما لو فقد النظام والترتيب ورجع إلى الحالة الخربة التي كان عليها قبل انتظامه)^(١).

ويقول د/ حنا جرجس الخضري: (ومن هذا التاريخ - تاريخ السقوط - وبعد ذلك "فسدت الأرض وامتألت ظلماً ورأى الله الأرض فإذا هي قد فسدت"^(٢). إن سقوط الإنسان الأول كان عبارة عن الحلقة الأولى لسلسلة طويلة ثقيلة قيدت البشر جميعاً وكانت تطوح بهم بلا رحمة إلى الهلاك الأبدي الذي هو انفصال الخالق عن المخلوق)^(٣).

ويقول دوم كولومبا مرميون: ولكن آدم أخطأ فأضاع على نفسه وعلى نسله هذه الهبة الإلهية - التي هي مشاركة الطبيعة الإلهية - التي جعلها الله لآدم وجعلت منه ابناً لله - فأصبحنا لذلك نولد خطاة عارين من هذه النعمة التي تجعل منا أبناء الله وصرنا إذ ذاك أبناء الغضب وأعداء الله^(٤).

ويقول بنيامين بنكرتن - "يزعم الناس بعض الأحيان أن الداء الوحيد الذي اعتراهم بالخطية هو العجز أو الضعف ولكن وجد فيهم داء آخر أشد وهو عدم الإرادة أو بالأحرى الرفض والعصيان"^(٥).

يعتقد المسيحيون أن الإنسان بزلته قد أضاع الكمالات التي كان الله قد وهبها إياها والتي قد دعاها الكتاب المقدس صورة الله، ويؤيد ذلك قول بولس (إن الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله)^(٦).

لقد سقط الإنسان تحت ثقل غضب الله إذ تعدى الناموس الإلهي^(٧).

(١) القس إنسطاسي شفيق: الفداء في إنجيل لوقا ص ٣٢.

(٢) تكوين ٦: ١١ - ١٢.

(٣) د/ القس / حنا جرجس الخضري: تاريخ الفكر المسيحي - المجلد الأول ص ٢٧.

(٤) دوم كولومبا مرميون: المسيح حياة النفس، ترجمة المطران نصر الله صغير ص ٣٣.

(٥) بنيامين بنكرتن: تفسير إنجيل متى ص ٣٠٦.

(٦) رومية ٣: ٢٣.

(٧) الخلاصة الشهية في أخص العقائد والتعاليم الأرثوذكسية ص ٥٢ - ٥٣.

وبتعدى وصية الله فقد الإنسان ما اكتسبه من الصورة الإلهية التي أخذها عندما خلق، بمخالفة وصية الله هوى الإنسان إلى حالة يرثى لها، فضغفت قوى عقله وغشيت الظلمة نوره وتدنست قداسة إرادته، وعقب راحته الاضطراب وانفتح إليه سبيل الأهواء التي تدأب على محاربة العقل فأضحى مسرحاً محزناً لتلك الحروب الداخلية وقد دفعت الأهواء البشر إلى شرور كثيرة وسببت هذه الشرور أمراضاً مختلفة يتعرض لها الإنسان فتضعف جسمه وتضنيه الكوارث والهموم ومن هنا نجم الموت الجسدي الذي هدد الله الإنسان به إذا خالف وصيته. غير أن هذا الموت الجسدي قد اقترن بموت آخر مرعب وهو الموت الروحي أعني فصل الإنسان عن الله لأن المعصية قطعت الرباط الذي به كان الإنسان متحدًا بالله وهو طاهر: نور العقل وقداسة الإرادة البريئة من كل دنس^(١).

فهم يرون أن آدم اختار المعصية والشر فدخل الانحلال والفساد إرادته وجرى عليه حكم الله بالموت^(٢) بمعنى أن هذا الإنسان عاجز بسبب الخطيئة عن كل خير روحي ومتصف بانحراف العواطف وعصيان الإرادة.

وهذا الإنسان لا يستطيع أن يقوم بأعمال البر والصلاح، لأن قدرته على عمل الصلاح وأعمال البر سلبت منه بخطيئة آدم.

ومقتضى هذا الاعتقاد أن الجنس البشري مكبل بقيود خطية آدم والتي بسببها عجز الإنسان عن كل خير روحي.

وهذه العقيدة تتعارض مع واقع تاريخ الجنس البشري من نصوص الكتاب المقدس حيث إنه من المعروف أن الله قد اختار بعض هؤلاء البشر الأثمين اختارهم رسلاً وأنبياء، اختارهم واصطفاهم ليلغوا رسالاته للناس ولهداية البشر، اختارهم وأيدهم بمعجزاته وآياته وكتبه ورسالاته، اختارهم لبرهم وصلاحهم ووعدهم جنات الفردوس والنعيم، اختار نوحًا رسولاً باراً، واختار إبراهيم له خليلاً، واختار لوطاً نبياً، واختار موسى كليماً، واختار إسماعيل وإسحاق ويعقوب الملقب

(١) المصدر السابق ص ٧٤.

(٢) سر التدبير الإلهي (التجسد) ص ٩٧.

بإسرائيل ، واختار داود المبارك جد عيسى الذي طالما تفاخر عيسى بأنه من سلالة واختار ابنه سليمان واختار غيرهم كثيرين كل هؤلاء اختارهم سبحانه رسلاً مكرمين وأنبياء مطهرين^(١) فهل هؤلاء الذين اختارهم الله لتبليغ رسالاته عاجزين عن كل خير روحي؟ الجواب في نظر المسيحية نعم وذلك بمقتضى اعتقادهم بفساد الطبيعة البشرية التي ورثت لنسل آدم.

ولكن جواب الكتاب المقدس يتعارض مع ما يعتقده المسيحيون :-

ففي رسالة بطرس الثانية (إن كان الله لم يشفق على ملائكة قد أخطأوا بل في سلاسل الظلام طرحهم في جهنم وسلمهم محروسين للقضاء. ولم يشفق على العالم القديم بل إنما حفظ نوحاً ثامناً كارزاً للبر إذ جلب طوفاناً على عالم الفجار)^(٢).

وفي الرسالة إلى العبرانيين (بالإيمان نوح لما أوحى إليه عن أمور لم تر بعد خاف فبنى فلماً لخلاص بيته فيه دان العالم وصار وارثاً للبر الذي حسب الإيمان)^(٣).

والله سبحانه وتعالى بارك نوحاً وبنه المؤمنين ففي سفر التكوين (وبارك الله نوحاً وبنه وقال لهم أثروا وأكثروا واملأوا الأرض)^(٤).

كل ذلك يدل على أن نوحاً كان رجلاً باراً مؤمناً بالله يعمل الصلاح بدليل أن الله نجاه ومن معه من المؤمنين ، وبدليل أن الله باركه.

وعن سيدنا إبراهيم يقول سفر التكوين (فآمن بالرب فحسبه له برّاً)^(٥).

وأيضاً "مبارك أبرام من الله العلي مالِك السموات والأرض)^(٦).

وفي قاموس الكتاب المقدس (وكان إيمان إبراهيم عظيماً إلى الحد الذي عنده كان مستعداً أن يقدم ابنه وحيداً إسحاق^(٧) ذبيحة للرب ولكن الرب منعه من ذلك وقد

(١) محمد مجدي مرجان: المسيح إنسان أم إله ص ١٥٦ ، ١٥٧.

(٢) ٢ - بطرس ٢ : ٤ ، ٥.

(٣) عبرانيين ١١ : ٧.

(٤) تكوين ٩ : ١.

(٥) تكوين ١٥ : ٦.

(٦) تكوين ١٤ : ١٩.

(٧) تكوين ٢٢ : ٢ - ١٢ ولقد اعتقد المسيحيون أن الذبيح هو إسحاق وستناقش ذلك في الفصل الرابع من هذا

كانت حياة إبراهيم مع الناس مظهراً لإيمانه بالله وقد ظهر هذا في كرمه (تكوين ١٣ : ٩ - ١٤ : ٢٣) وإضافته للغرباء (تكوين ١٨ : ٢ - ٨) وإخلاصه ووفائه وأمانته وحنوه ورقة عاطفته (تكوين ١٤ : ٣ - ٢٤ ، ١٨ : ٢٣ - ٣٢ - ٢٣ : ٢) وشجاعته (تكوين ١٤ : ١٤ - ١٦) ^(١) كل ذلك يدل على البر والصلاح لإبراهيم عليه السلام ولا يدل على وراثة العجز عن كل خير روحي.

ويقول إنجيل لوقا عن زكريا وامرأته (وكانا كلاهما بارين أمام الله سالكين في جميع وصايا الرب وأحكامه بلا لوم) ^(٢).

ويقول الإنجيل عنه (كما تكلم بضم أنبيائه القديسين الذين هم منذ الدهر) ^(٣). وعن دانيال يقول الكتاب المقدس :

"ففاق دانيال هذا على الوزراء والمرازية لأن فيه روحاً فاضلة وفكر الملك في أن يوليه على المملكة كلها. ثم إن الوزراء والمرازية كانوا يطلبون علة يحدونها على دانيال من جهة المملكة فلم يقدروا أن يجدوا علة ولا ذنباً لأنه كان أميناً ولم يوجد فيه خطأ ولا ذنب" ^(٤) وتكلم دانيال عن نفسه (إلهي أرسل ملاكه وسد أفواه الأسود فلم تضرنني لأنني وجدت بريئاً قدامه وقدامك أيضاً أيها الملك لم أفعل ذنباً) ^(٥).

وعن النبي داود جاء في الملوك الأول (ولم تكن كعبد داود - الخطاب ليرعام - الذي حفظ وصاياي والذي سار ورائي بكل قلبه ليفعل ما هو مستقيم فقط في عيني) ^(٦) وعن الملك حزقيا (وجه وجهه إلى الحائط وصلى إلى الرب قائلاً آه يا رب اذكر كيف سرت أمامك بالأمانة وبقلب سليم وفعلت الحسن في عينيك. وبكى حزقيا بكاء عظيماً ولم يخرج إشعياء إلى المدينة الوسطى حتى كان كلام الرب إليه قائلاً ارجع وقل لحزقيا رئيس شعبي هكذا قال الرب إله داود أبيك قد سمعت

(١) قاموس الكتاب المقدس ص ١١ - ١٢.

(٢) لوقا ١ : ٦.

(٣) لوقا ١ : ٧٠.

(٤) دانيال ٦ : ٤.

(٥) دانيال ٦ : ٢٢.

(٦) ملوك أول ١٤ : ٨.

صلاتك. قد رأيت دموعك. هاأنذا أشفيك في اليوم الثالث تصعد إلى بيت الرب. وأزيد على أيامك خمس عشرة سنة وأنقذك من يد ملك آشور^(١).

فالله استجاب لدعائه وشفاه بل وزاد له في عمره وذلك لانه كان باراً صالحاً يعمل الصلاح والخير بقلب سليم.

ويشهد الكتاب المقدس للنبي "أيوب" بأنه كان رجلاً صالحاً تقياً مستقيماً قال الله: عبدي أيوب لأنه ليس مثله في الأرض رجل كامل مستقيم يتقي الله ويخيد عن الشر^(٢).

ويقول أيوب عن نفسه (قلت أنا برئ بلا ذنب زكى أنا ولا إثم لي)^(٣).

وفي قاموس الكتاب المقدس عن أيوب (ويظهر من خلال المحاورات التي دارت بين أيوب وأصحابه أنه كان يشعر شعوراً قوياً باستقامته ومع ذلك فإنه لا يستطيع أن يدرك سر اليد التي جاءت عليه بقوة وبقسوة، ويزداد التنازع الداخلي القلبي كلما ازداد اليأس من حالته الخارجية الظاهرة ولكنه في كل هذه يبقى ثابتاً على عزمه راسخاً في اعتقاده أنه مهما يقع عليه من سوء ومهما يصيبه من شر فإنه سيبقى على ثقته بالله واتكاله عليه ثم يرى بريقاً من النور عندما يجول بخاطره أنه في وقت ما ووفقاً لمسرة الله ورضاه سيظهر بر أيوب وتعلم براءته)^(٤).

كل هؤلاء الأنبياء السابقين ثبت برهم وصلاتهم من خلال شواهد الكتاب المقدس والتي تصرح بأن خلاص هؤلاء كان باستقاماتهم وتقواهم وصلاتهم (وكان فيها هؤلاء الرجال الثلاثة نوح ودانيال وأيوب فإنهم إنما يخلصون أنفسهم ببرهم)^(٥).

فالجواب الصحيح للسؤال الذي طرحناه سابقاً:-

(١) ملوك ثان ٢٠ : ٢ - ٦ ، إشعياء ٣٨ : ٢ - ٦.

(٢) أيوب ١ : ٨ - ٩ ، ٢ : ٣.

(٣) أيوب ٣٣ : ٩.

(٤) قاموس الكتاب المقدس ص ١٤٨.

(٥) حزقيال ١٤ : ١٤.

أنه قد ثبت البر والصلاح والتقوى لأفراد من البشر أي من نسل آدم. ومادام قد ثبت ذلك فإن معناه أن الله قد وهب هؤلاء الأفراد ما يستطيعون به أن ينالوا رضاه عن طريق توجيه هذه المواهب إلى الله وبها يكون الصلاح والتقوى، وإذا جاز ذلك على أفراد فبالتالي يجوز على جميع الأفراد إذا سلكوا الطريق الصحيح إلى رضاه الله سبحانه وتعالى، وعلى ذلك فلا مجال للقول بأن الجنس البشري سلب منه كل خير روحي نتيجة لخطيئة آدم.

على أن الاعتقاد بأن الإنسان الساقط عاجز عن كل خير روحي عقيدة لا تناسب مع الأحداث والوقائع الدينية التي جاء ذكرها في الكتاب المقدس، ومضمون هذه الأحداث أن الله يفرق في المعاملة، بين المطيعين له والعاصين. فلو كان الجنس البشري الذي ورث الطبيعة الفاسدة من آدم سلب منه كل خير روحي - أو عاجز عن كل خير روحي - لما كان هناك المطيع والعاصي ولما كانت هناك تفرقة في المعاملة بين المطيع والعاصي لأن كل الأفراد - على أساس هذا الاعتقاد - سواسية في العجز عن طاعة الله لأن الطاعة تكون بالبر والخير، والبر والخير الروحي رفع عن الإنسان بسبب الطبيعة الفاسدة التي ورثها عن آدم.

من هذه الأحداث :-

الأول: قابيل وهايل:-

ونرى في هذه الواقعة أن الله فرق في المعاملة بين ولدي آدم هايل وقايل، قدم كل واحد منهم قربانا فقبل سبحانه القربان من أحدهما لصلاحه وتقواه ولم يتقبل من الآخر لعدم صلاحه وتقواه.

فكانت نتيجة ذلك أن مد قابيل يده إلى أخيه هايل وقتله، فكان جزاء هايل وقايل، قدم الله وعده سيدخله الجنة لصلاحه وتقواه وجزاء قابيل الخسران والبوار والجحيم.

والقصة كما وردت في سفر التكوين (وكان هايل راعياً للغنم وكان قاين عاملاً في الأرض. وحدث من بعد أيام أن قاين قدم من أثمار الأرض قربانا للرب. وقدم هايل أيضاً من أبكار غنمه ومن سمانها. فنظر الرب إلى هايل وقربانه. ولكن إلى قاين وقربانه لم ينظر. فاغتاظ قاين جداً وسقط وجهه. فقال الرب لقاين لماذا اغتظت ولماذا سقط وجهك. إن أحسنت أفلا رفع. وإن لم تحسن فعند الباب خطية رابضة

وإليك اشتياقها وأنت تسود عليها، وكلم قايين هايل أخاه. وحدث إذ كانا في الحقل أن قايين قام على هايل أخيه وقتله^(١).

فرق الله في المعاملة وفي الجزاء بين ولدي آدم في الدنيا والآخرة كل حسب عمله ولو كان الله لم يعف عن آدم - كما يقولون - أو كانت الخطية تتوارث كما يدعون لكان جزاء ولدي آدم وحواء واحداً.

ولما كان هناك مبرر للرضى عن هذا وللسخط عن ذاك ولا إدخال هذا في الجنة وذاك في السعير وإنما هي العدالة الإلهية لا تأخذ البرئ بجريمة الأثم وإنما تعطي لكل ذي حق حقه^(٢).

وأيضاً لو كانت الطبيعة الفاسدة تتوارث والتي عن طريقها يعجز الإنسان عن كل خير روحي لما استطاع هايل أن يرضي الله لأن رضاء الله بالخير، والإنسان الوارث الخطية والطبيعة الفاسدة عاجز عن هذا الخير، ولو كان الأمر كذلك لما كان هناك من حاجة إلى ثواب وعقاب لأن كل الجنس البشري ساقط في الخطية.

الثاني: الطوفان:

وهو يعني إغراق الكافرين الضالين ونجاة المؤمنين المهتدين. وفيه نجى الله نوحاً ومن آمن معه، وأهلك وأغرق الذين كفروا به ورسالته، وهو إجابة على السؤال القائل لماذا نجى الله نوحاً وأغرق قومه؟

إن الله نجى نوحاً ومن معه لأنهم قوم صالحون فرضى عنهم ونجاهم، وأغرق غيرهم لأنهم غير صالحين وهذا يدل على أن نجاة الفرد في الدنيا وكذا في الآخرة إنما تكون بإيمانه وصلاحه وبره، وأن عدم النجاة في غير ذلك، فلو كانت الخطية متوارثة لما استطاع الإنسان أن يقوم بالصلاح والبر ولما استطاع أن ينال نجاة الله في الدنيا والآخرة.

(١) تكوين ٤ : ٢ - ٨.

(٢) المسيح إنسان أم إله ص ١٦٧.

ولكن الواقع الذي حدث خلاف ذلك فهذا يدل على عدم توارث الخطية الأصلية. والقصة كما جاءت في سفر التكوين: "ورأي الله الأرض فإذا هي قد فسدت. إذ كان كل بشر قد أفسد طريقه على الأرض. فقال الله لنوح نهاية كل بشر قد أتت أمامي. لأن الأرض امتلأت ظلماً منهم. فها أنا مهلكهم مع الأرض. اصنع لنفسك فلکاً من خشب جفر. تجعل الفلك مساكن^(١).....

فها أنا آت بطوفان من الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء. كل ما في الأرض يموت. ولكن أقيم عهدي معك. فتدخل الفلك أنت وبنوك وامراتك ونساء بنيك معك^(٢)..... فدخل نوح وبنوه وامراته ونساء بنيه معه إلى الفلك من وجه مياه الطوفان^(٣).....

وكان الطوفان أربعين يوماً على الأرض. وتكاثر المياه ورفعت الفلك. فارتفع عن الأرض. وتعاظمت المياه وتكاثرت جداً على الأرض^(٤).... فمات كل ذي جسد كان يدب على الأرض. من الطيور والبهائم والوحوش وكل الزحافات التي كانت تزحف على الأرض وجميع الناس. كل ما في أنفه نسمة روح حياة من كل ما في اليابسة مات. فمحا الله كل قائم كان على وجه الأرض. الناس والبهائم والدبابات وطيور السماء. فانمحت من الأرض. وتبقى نوح والذين معه في الفلك فقط^(٥).

وغير ذلك من الأحداث الدالة على أن الله بفضله ينجي المؤمنين ويهلك الكافرين، وذلك مثل نجاة موسى ومن آمن معه وإغراق فرعون ومن معه، ونجاة لوط ومن آمن معه وإهلاك قومه الذين كفروا به، وغير ذلك من أحداث.

لماذا كل هذه العقوبات نتيجة للخطية

والمرء منا يتساءل: لماذا كل هذه العقوبات الكثيرة التي امتدت إلى العالم كله من حيوانات ونباتات بل وإلى بني البشر أجمعين؟ لماذا كل هذه اللعنات التي انصبت

(١) تكوين ٦ : ١٢ - ١٤.

(٢) تكوين ٦ : ١٧ - ١٨.

(٣) تكوين ٧ : ٧.

(٤) ١٧ : ٧ - ١٨.

(٥) تكوين ٧ - ٢١ - ٢٣.

على العالم كله مع أن الأمر كله لا يعد سوى ثمرة شجرة امتدت يد حواء إليها فأكلت وأعطت آدم فأكل؟

جاء "في علم اللاهوت النظامي": وقد اعترض البعض على ذلك بقولهم إن الإنسان لا يفسد كل الفساد بمعصية واحدة.

فنجيب أن هذا يصح بمعنى أن الإنسان لا يبلغ أعظم الشر بخطية واحدة، ولكن معصية واحدة توجب على مرتكبها الموت الروحي بإيجابها عليه غضب الله ولعنته وفقد الاتحاد به تعالى، كما أن ثقباً واحداً في القلب يمت الجسد أو وخزة واحدة في عين إنسان تعميها طول حياته، وأما البلايا الآخر المختلفة التي نشأت لآدم وحواء من معصيتهما فإنما هي تابعة لتلك^(١). ويقول عوض سمعان: كما أن الخاطئ - في نظر الله - ليس من يعمل خطايا كثيرة فقط بل ومن يعمل خطية واحدة أيضاً، فقد قال الكتاب: (لأن من حفظ كل الناموس وإنما عثر في واحدة فقد صار مجرمًا في الكل. لأن الذي قال: لا تزن قال أيضاً لا تقتل. فإن لم تزن لكن قتلت فقد صرت متعديا الناموس)^(٢). ولذلك لأجل خطية واحدة طرح بعض الملائكة من السماء^(٣)، ولأجل خطية واحدة طرح آدم وحواء من جنة عدن^(٤) ولأجل خطية واحدة حرم موسى من دخول أرض كنعان^(٥) ولأجل خطية واحدة مات حنانيا وسفيره في الحال^(٦) فضلاً عن ذلك فإن الخطية تحسب خطية حتى إذا كان المرء لا يعلم أنها خطية أولاً يشعر بها عند عملها لأن الجهل بالقانون لا يبرئ المعتدي عليه ولأن عدم الشعور بالخطية سهو، والسهو عن وصايا الله خطية، ولذلك قال الكتاب: "ولا تقل قدام الملك إنها سهو"^(٧) مما تقدم يتضح^(٨) لنا أنه إذا عاش الإنسان دون أي خطية

(١) علم اللاهوت النظامي ص ٦٢٤.

(٢) يعقوب ٢: ١٠، ١١.

(٣) ٢ بطرس ٢: ٤.

(٤) تكوين ٣: ٢٤.

(٥) تثنية ٣٢: ٥.

(٦) أعمال الرسل ٥: ١ - ١١.

(٧) جامعة ٥: ٦.

(٨) الكلام لازال للقس / عوض سمعان.

إيجابية ولكن لم يعمل كل الصلاح الذي يستطيع القيام به لكن أخطأ خطية واحدة عن طريق الجهل أو السهو يكون خاطئاً كذلك^(١).

معنى هذا أنهم يعتقدون أن الخطية الواحدة تؤدي إلى الهلاك الأبدي.

ولنا أن نقول: إنه إذا كانت الخطية الواحدة توجب على الإنسان الفساد فإنه لا يخلو إنسان من ارتكاب خطأ يصح أن يطلق عليه معصية أو عصيان حتى المسيح نفسه وإليك الأدلة:-

مثلاً: المسيح حين جاءه قوم من الكتبة والفريسيين قائلين يا معلم نريد أن نرى منك آية فأجاب وقال لهم جيل شرير فاسق يطلب آية^(٢). وقالها أكثر من مرة. ويظهر من هذا أنه كان معتاداً على السب والشتم لأنهم سألوه بكل احترام وخاطبوه بلفظ يا معلم ولكنه ما لبث أن سمع سؤالهم فنزل فيهم بقوارع الكلمات^(٣) ومع ذلك فلم يفسد المسيح، علماً بأن السب معصية يقول المسيح (من قال لأخيه يا أحمق فقد استوجب نار جهنم^(٤)).

وأيضاً: إن الله أوصى بإكرام الآباء والأمهات على لسان المسيح فقال: "أكرم أباك وأمك وأحب قريبك كنفسك"^(٥) وبرغم ذلك فإنه خالف أمر الله هذا؛ إذ لم يكرم أمه ولم يلتفت إليها بل بقيت واقفة وزاد على ذلك إذ قال في جواب المخبر من هي أمي وإخوتي؟ يقول متى (وفيما هو يكلم الجموع إذا أمه وإخوته قد وقفوا خارجاً طالبين أن يكلموه. فقال له واحد هو ذا أمك وإخوتك واقفون خارجاً طالبين أن يكلموك. فأجاب وقال للقاتل له. من هي أمي ومن هم إخوتي)^(٦).

(١) عوض سمعان: طريق الخلاص ص ١٠، ١١.

(٢) متى ١٢: ٣٩-١٦: ٤.

(٣) جلال الدين شمس أحمددي: البرهان الصحيح في إبطال ألوهية المسيح ص ٥٠.

(٤) متى ٥: ٢٢.

(٥) متى ١٩: ١٩.

(٦) متى ١٢: ٤٦-٤٨.

ولما قالت له أمه ليست لهم خمر فقال لها مالي ولك يا امرأة يقول يوحنا (وفي اليوم الثالث كان عرسٌ في قانا الجليل وكانت أم يسوع هناك. ودعي أيضاً يسوع وتلاميذه إلى العرس. ولما فرغت الخمر قالت أم يسوع له ليس لهم خمر. قال لها يسوع مالي ولك يا امرأة) ^(١) أهذا يكون احترام للأم؟ وهل يجوز زجرها بهذه الصورة؟ هل يليق بشأن الصالح أن ينادي أمه بلفظ امرأة؟ ^(٢).

وهكذا نرى أن المسيح أخطأ إذ خالف أمر الله بإكرام الأمهات ^(٣).

فالمسيح وقع منه بعض الأخطاء التي يطلق عليها مخالفة ومع ذلك لم يفسد السيد المسيح - عليه السلام.

على أن بولس مؤسس المسيحية الحالية وأكبر دعايتها قد ارتكب من المعاصي والخطايا والتي بحسب مضمونها تساوي أضعاف معصية آدم التي لا تعدو سوى تناول ثمرة واحدة من شجرة محرمة، فلو قورنت معاصي وخطايا بولس بمعصية آدم لظهر الفرق الواضح والبون الشاسع بينهما. يقول سفر الأعمال عن بولس (أما شاول فكان يسطو على الكنيسة وهو يدخل البيوت ويجر رجالاً ونساء ويسلمهم إلى السجن) ^(٤) (أما شاول فكان لم يزل ينفث تهدداً وقتلاً على تلاميذ الرب) ^(٥) فهي ليست واحدة بل سطو على الكنيسة وسطو على بيوت التلاميذ بل وتسليمهم هم وأبنائهم ونساؤهم إلى السجن. وتساءل لماذا؟ لأنهم يؤمنون بالله وبرسالة المسيح.

ولم يقتصر الأمر على السجن بل تعداه إلى سفك الدماء وقتل التلاميذ وأبنائهم.

إن هذا الخطايا أفظع بكثير من خطيئة آدم. فإن المسيح قال لتلاميذه:

"قد سمعتم أنه قيل للقديس لا تقتل. ومن قتل يكون مستوجب الحكم. وأما أنا فأقول لكم إن كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم. ومن قال

(١) يوحنا ٢ : ١ - ٤.

(٢) البرهان الصحيح في إبطال ألوهية المسيح ص ٥٠.

(٣) نحن نجل السيد المسيح ونوقره ونؤمن بأن مثل هذه الأمور لا تقع منه.

(٤) أعمال ٨ : ٣.

(٥) أعمال ٩ : ١.

لأخيه رقا^(١) يكون مستوجب المجمع. ومن قال يا أحمق يكون يستوجب نار جهنم^(٢).

❖ والخطية الواحدة عامة تستوجب الفساد الكلي في نظر المسيحية وذلك لأن الخطية عندهم موجهة إلى الله ذاته وأن المخطئ بخطئه قد عاند الله.

يقول د/ عزت زكي (الخطيئة في ذاتها هي ثورة وتمرد على الله)^(٣).

ويقول باركلي (إن أساس الخطية هو وضع الذات مكان الله فالخطية هي أن يعبد الإنسان نفسه بدلاً من عبادة الله)^(٤).

ويقول حبيب سعيد (لم تكن الخطية في نظر كتاب الأسفار المقدسة المسيحية حماقة أو دمامة، ولم تكن داء أو جهلاً بل هي عصيان وإرادة شريرة جامحة وليست موجهة إلى تقليد من التقاليد الاجتماعية المرعية ولا إلى نظام أدبي عاطل عن العنصر الشخصي بل إلى الله الحي ذاته)^(٥).

ويقول عوض سمعان (إن الاعتقاد السائد بين معظم الناس هو أن من يفعل الخطية يسئ إلى نفسه أو إلى غيره من الناس فحسب لكن الحقيقة الواقعة هو أنه يسئ بها إلى الله قبل كل شيء آخر، لأن الله هو الذي نهى عنها لتعارضها مع طبيعته ومع الكمال الذي يريد أن يراه في خلائقه العاقلة. فقد قال الكتاب عن الله أنه لا يطيق الإثم^(٦) وأن عينيه أظهر من أن تنظر الشر^(٧) ولذلك فإن من يفعل الخطية علم أم لم

(١) رقا: كلمة آرامية معناها "فارغ" أى "خاو" أو "تافه"، وهو تعبير يفيد معنى الازدراء (قاموس الكتاب المقدس ص ٤٠٨).

(٢) متى ٥ : ٢١ ، ٢٢.

(٣) د/ عزت زكي : الأخلاقيات في محيط الفكر الديني ص ١٢٧.

(٤) باركلي : (تفسير العهد الجديد) رسالة رومية ص ٤٢.

(٥) حبيب سعيد : أديان العالم ص ٢٨٠.

(٦) إشعياء ١ : ٣.

(٧) حقوق ١ : ١٣.

يعلم - يرفض شريعة الله^(١) وبنقض عهده^(٢) ويتمرد على شخصه^(٣) ويسلبه حقوقه^(٤) ويفسد أمامه^(٥) ويحتقر اسمه^(٦) وينجسه أيضاً^(٧).

ويقول دوم كولومبا مرميون (إن الشخص الخاطئ بعمله ينكر على الله حكمته وحقه في سن الشرائع، ويتجاهل قداسته، ويأبى أن يؤدي له ما يجب له من عبادة إنه لا يعترف بقدرته، ولا بحق الطاعة له على من وهبهم الحياة. إنه ينكر عليه صلاحه وسموه على كل ما ليس هو، وينحدر به إلى ما دون الخلائق، وكأنه يقول بعمل لا يفهمه لا أعرفك ولا أخدمك. فالخطية إنكار في الواقع لكمالات الله وغمط لحقوقه)^(٨).

وعلى ذلك فإن آدم - في نظرهم - حين أخطأ واختار المعصية حرته عاكت حرية الله ومشيتته، ارتكب الخطية فدخل الفساد إرادته وطبيعته^(٩) والإنسان الساقط متصف بانحراف العواطف وعصيان الإرادة ولا يجوز للمخلوق أن يعمل بحسب إرادته مطلقاً^(١٠).

إننا نعرف أنه لا توجد إرادة معاندة في الكون لإرادة الله، وأن ما يقع من الإنسان من خطيئة أو معصية إنما هو في حد ذاته تقصير من الإنسان، بدليل أن الله سبحانه وتعالى شرع العلاج للخطايا والمعاصي وهي التوبة، فلو كانت الخطيئة معاندة لإرادة الله لكان من الأولى أن يهلك الله من يعانده لا أن يجعل له باب التوبة مفتوحاً أمامه

(١) إرميا ٦ : ٩.

(٢) يشوع ٧ : ١١.

(٣) هوشع ١٣ : ١٦.

(٤) ملاخي ٣ : ١٨،

(٥) نحميا ١ : ٧.

(٦) ملاخي ١ : ٦، حزقيال ٣٦ : ٢٠.

(٧) عوض سمعان : طريق الخلاص ص ١٢.

(٨) المسيح حياة النفس ص ٢٠٥.

(٩) أسبير وجور : سر التدبير الإلهي (التجسد) ص ١٥٠.

(١٠) بنيامين بنكرتن : تفسير إنجيل متى ص ٨١.

على مصراعيه والتوبة تلك هي التي تعيد إلى الإنسان وضعه الطبيعي تجاه الله سبحانه وتعالى.



❖ ومن ناحية أخرى قال بعضهم (إن خطية آدم تستوجب الفساد الكلى لأنها تشبه خطيئة إبليس).

جاء في علم اللاهوت النظامي (فالحالة التي سقط إليها آدم بمعصيته كحالة الملائكة الساقطين في سوء المنقلب العظيم)^(١).

فهم يرون أن حالة الإنسان الساقط آدم وما آل إليه نتيجة للمعصية كحالة الملائكة الذين سقطوا في المعصية وأصبحوا شياطين.

وبالموازنة الدقيقة والنظرة الفاحصة يتبين لنا مدى الاختلاف الواسع بينهما.

فقصة سقوط الشياطين تختلف كل الاختلاف عن قصة آدم عليه السلام من جميع النواحي والزوايا:-

أولاً: أن طبيعة الملائكة الساقطين روحية بحته بمعنى أن عصيانهم يستدعي ما آل إليه حالهم من أنهم أصبحوا أرواحاً شريرة، بينما كانت طبيعة آدم طبيعة جسدية وروحية، والإنسان إذا مال إلى أحدهما بتطرف أصبح مخطئاً، والإنسان يجد المشقة في أن يوفق بين مطالب كل طبيعة منهما وعلى ذلك فإن خطأه يستدعي الرأفة ورحمة الله معه.

ثانياً: أن معصية هؤلاء الملائكة الساقطين إنما هي التكبر والتعالي على الله والسعي نحو التأله بقدرته الذاتية، بينما كانت معصية آدم لا تتعدى سوى تناول ثمرة من شجرة نهى الله عنها.

وفرق كبير بين الذي ينحو بمعصيته نحو الألوهية، وبين معصية لا تتعدى الخطأ الذي هو بالنسبة لمعصية الشيطان أقل بكثير.

(١) علم اللاهوت النظامي ص ٦٢٤.

ثالثاً: أن معصية آدم كانت بإغراء من الحية أو الشيطان، فكان آدم منساقاً إلى المعصية لا بالحرية الكاملة التي تعشق المعصية، ولكن بالإغراء والوسوسة من الشيطان عن طريق المرأة، بينما معصية الشيطان كانت بالحرية الكاملة لا بمعاكسة أحد له، وفرق بين خطأ صاحبه له الحرية كل الحرية دون أية مشاكسة من أحد وبين خطأ توافرت له دواعي الخطأ من طبيعة جسدية تحاول التغلب على الطبيعة الروحية التي في الإنسان ومن إغراء ووسوسة من الشيطان ومن طبيعة المرأة التي هي أكثر قبولاً لإغراء الشيطان ووسوسته.

رابعاً: أن الحالة التي انتهى إليها الشيطان بسقوطه - أن أصبح رئيساً للأرواح الشريرة في العالم فليس هناك من معصية إلا وهو قد تسبب فيها، ولقد تحولت فيه قوات الخير إلى قوات للشر ليس له فكر سوى عمل الشر وسوق الإنسان إليه، لم يفكر لحظة في أن يعلل لله سبحانه وتعالى سبب خطأه ويرجوه مغفرته، فكانت نتيجة خطيئته الطرد من رحمة الله دون رجعة، بينما كانت الحالة التي انتهى إليها الإنسان أنه أحس بخطئه وحاول أنه يعتذر إلى الله - سبحانه بأن المرأة هي التي أغرتة.

نعم إن الإنسان طرد من الجنة ولكنه يحاول أن يعود إليها بالتوبة والعمل الصالح بدليل أن يوجد من فصيلة الإنسان من هو بار يحاول إرضاء الله ولكننا لا نجد مثل هذا لدى الملائكة الساقطين.

فلا مجال للمقارنة بينهما من جميع الوجوه.



ما الطريق إلى الخلاص من خطيئة آدم لدى المسيحيين

لقد كانت خطيئة آدم - كما يقولون - سبباً في العقوبات واللعنات التي أصابت الإنسان والحيوان والنبات لأنها كان تأخذ - في نظر المسيحية - صورة الخطيئة ضد كمالات الله وطبيعته وناموسه ونظامه الأدبي، وأنها كانت بمثابة الثورة والتمرد والمعادلة لله سبحانه وتعالى.

لقد بعد الإنسان عن الله - في نظرهم - بسبب هذه الخطيئة وأصبح متصفاً بالطبيعة الساقطة التي لا تستطيع القيام بأي نوع من أنواع الخير والبر، وأصبح

الإنسان في حالة الشقاوة والتعاسة إذ أن السعادة والهناء في القرب من الله والشقاوة والتعاسة في البعد عنه ، ولكن هل يبقى الإنسان على هذه الحالة من الخسران والبوار أم أنه يستطيع أن يشق طريقه إلى غفران هذه الخطيئة فينال رضى الله ورحمته؟ وكيف يمكن أن يشق الطريق إلى الله مرة أخرى بعد السقوط؟ هل يستطيع القرب من الله بعمل الصالحات وطلب المغفرة والرحمة؟ أم أن هناك طريقاً آخر.

لقد ذكر القس / إلياس مقار عدة طرق للخلاص من الخطيئة وذكر فيها الطرق الخاطئة في نظره - ثم ذكر بعد ذلك الطريق الصحيح.

والطرق الذي ذكرها للخلاص من الخطيئة هي :-

أولاً: طريق الخلاص الظني:

"إن أول طريق خاطئ يمكن أن يكون هو الطريق التصوري أو الظني الذي يبينه الناس على مجرد تصوراتهم أو ظنونهم دون سند من وحي أو كتاب، إذ يتصورون أن الله يمكن أن يغفر الخطية بمجرد الإغضاء عنها ونسيانها، ويقولون إنه إذا صح أن الإنسان يغفر بمجرد التسامح والنسيان فهل يكون الله أقل من الإنسان في ذلك؟ مع العلم بأن الله هو الذي يطالب الإنسان بأن يغفر لغيره بالصفح والترك والتسامح والنسيان ولكن القياس هنا مع الفارق البعيد، إذ أن الخطية من إنسان إلى إنسان آخر هي في الواقع جزء داخل من خطية هذا الإنسان تجاه الله إذ هي جزء من التشويش أو الإخلال ضد الناموس الأدبي الذي يمثل طبيعة الله الظاهرة، ومهما غفر الإنسان لأخيه الإنسان دون أن ينال الغفران الإلهي الشامل تجاه الله فمن العبث أن يقال أن موقفه صحيح تجاه الله"^(١).

والواقع أن هذا فيه مغالطة شديدة ؛ هم يقولون إن الله يطالب الإنسان بالعفو عن أخيه الإنسان، ثم يقولون بعد هذا، الله لا يغفر هذه الخطيئة معنى ذلك أن الإنسان

(١) قضايا المسيحية الكبرى ص ٣٨٩.

الذى يعفو عن أخيه الإنسان، ويتسامح معه، ويغفر له خطيئته، هو مطيع لله فى أمره بالعفو والصفح والتسامح، وفى نفس الوقت هو عاص له، لأنه عفا عن خطيئته، وغفر زلة، هى موجهة لله أصلاً، لأنها جزء من الخطيئة الأصلية.

فهل يا ترى: هل الإنسان مطيع لله فى العفو والصفح والتسامح، أم أنه عاص له.

على هذا المنطق العجيب هو مطيع وعاص فى نفس الوقت!!

ثم يقول: فإذا كان الغفران من إنسان إلى إنسان آخر كافياً لما كان ثمة حاجة إلى طلب غفران الله بالنسبة للخطايا مع الآخرين، بل لما كانت هناك حاجة لأن يشعر الإنسان عندما يخطئ إلى أخيه الإنسان بأن الجرم فى الأمر إزاء الله فى هذه الخطيئة يبتلع ويطوي الجرم إزاء البشر، حتى إن داود عندما صاح تائباً عن خطيئته الكبرى لم يقل إنه أخطأ إليّ بتشيع أو أوربا أو المملكة بل قال (إليك وحدك أخطأت والشر فدام عينيك صنعت)^(١). وهذا كله ينتهي بنا مرة أخرى إلى تأكيد ما سبقت الإشارة إليه أن الخطيئة تجاه الله هى الخطيئة ضد كمالات الله وطبيعته وناموسه ونظامه الأدبي، وأن هذه لا يكون فيها الغفران بمجرد التجاوز أو الإعفاء أو الإغضاء عن الصفات الطبيعية والأدبية فى الله كالعدالة والحق والقداسة والجمال^(٢).

ويقول (قد يقال: أليس من حق الله وسلطانه وهو صاحب السلطان الأدق والأعلى أن يعفو بكلمة عمن يريد أو يشاء؟ وهل يكون الله أقل من الملوك والرؤساء الذين يستطيعون بكلمة أن يعفوا عن المجرمين والمحكوم عليهم بأقصى العقوبات، ومرة أخرى نذكر هنا أن القياس مع الفارق لأن عفو الملوك الأرضيين أو الرؤساء إذا صح أنه نبيل وعظيم ومجيد، إلا أنه مع ذلك على حساب العدالة فى إطلاقها وكمالها ومجدها، وأنه إذا صح أن البشر لأنهم ناقصون يعفون أو يتساهلون بدافع من نقصهم أو ضعفهم عن العدالة المطلقة فإن الله لا يمكن أن يعفو أو يتساهل قيد

(١) مزمور ٥١: ٤.

(٢) المصدر السابق ص ٣٩٠.

شعرة عن العدالة المطلقة ، وأن القول إن الله قادر على العفو بمجرد كلمة وأن أحداً لا يمكن أن يجرده أو يطلب إليه أن يتنازل عن السلطان ، إن هذا القول يفهم القدرة الإلهية فهما خاطئاً ؛ لأن الله مع قدرته اللانهائية تورّد أشياء نقول بكل احترام وإجلال لا يقدر عليها ، فمثلاً يمكن أن نقول إن الله لا يقدر أن يخطئ ولا بقدر بحال ما أن يفعل شيئاً ضد طبيعته وكمالاته ، ومن ثم يمكن أن نقول بملء اليقين : إن الله لا يمكن أن يغفر الخطية بمجرد كلمة إلهية تصدر منه ، لأنه لا يقدر أن يكون غير عادل أو غير قدوس أو غير حق ، فإذا استحال على سبيل المثال أن يقف الحجر الساقط في الفضاء لأن ناموس الجاذبية يجذبه إلى الأرض ، وهذا الناموس لا بد أن يعمل عمله استحال كذلك في معنى أعمق وأكمل أن يكون هناك الغفران لأية معصية أو خطية تصطدم مع ناموس الله الأدبي وطبيعته وكمالاته ونظامه العام ما لم تجد عقوبتها كاملة ، ومن ثم فإن المسيحية ترفض رفضاً باتاً تصور أن الله يعفو لمجرد العفو من غير جزاء كامل تحتمه العدالة الإلهية المطلقة^(١).

ومضمون طريق الخلاص السابق كما صورّه القس إلياس مقار : أن الله لا يقدر أن يغفر خطيئة الإنسان لمجرد التسامح والعفو ، لأن هذا يتعارض مع عدالته الذي جعل لكل خطأ عقابه ، والعقاب لا يرفعه الرجوع إلى الله.

وإذا كان الإنسان يقدر أن يغفر خطيئة الإنسان فإن الله لا يقدر أن يفعل ذلك ، لأن خطأ إنسان ضد أخيه الإنسان جزء من الخطية ضد الله ، ولأنه لو كان غفران الإنسان لأخيه الإنسان كافياً لما كانت هناك حاجة بطلب الغفران من الله ، بل لما كانت هناك حاجة لشعور الإنسان بالذنب والمعصية إزاء الله عندما يخطئ إلى أخيه الإنسان. وكذلك أيضاً إذا كان الملوك والسلطين يستطيعون العفو عمن تحت أيديهم فإن الله لا يستطيع ذلك لأنه على حساب العدالة الإلهية.

وهذا القول غير صحيح ، إذ أن نسبة عدم القدرة لله في العفو لمجرد العفو سواء أكان عن طريق التوبة من الإنسان أم لا خطأ كل الخطأ ، لأنه كيف يصح إثبات صفة

للشعر، ولا يصح نسبتها إلى الله وهي جائزة عليه سبحانه وتعالى، إذ يجوز أن يعفو عن العاصين بعفوه ورحمته.

على أن نسبة عدم القدرة إلى الله - في أمر هو جائز عليه - معناه أن الله عاجز عن عفو المسيئين، وإذا كان الله عاجزاً - تعالى الله عن ذلك - فلا يصح أن يطلق عليه أنه إله.

على أن نسبة عدم القدرة إلى الله تتعارض مع ورد في كتابهم المقدس: ففي سفر الخروج (أنا ظهرت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب بأني الإله القادر على كل شيء) ^(١) "ظهر الرب لإبراهيم وقال له أنا الله القدير. سر أمامي وكن كاملاً" ^(٢) والله سبحانه وتعالى واجب له القدرة خاصة القدرة على العفو عن المسيئين، يمد يد العون والرحمة والمغفرة لمن يطلبها (إن يد إلها على كل طالبه للخير) ^(٣) والله سبحانه وتعالى كثير التفضل والإحسان بنص الكتاب المقدس:-

"الرب إله رحيم ورؤف بطئ الغضب وكثير الإحسان والوفاء" ^(٤).

"احمدوا الرب لأنه صالح لأن إلى الأبد رحمته احمداوا إله الآلهة لأن إلى الأبد رحمته. احمداوا رب الأرباب لأن إلى الأبد رحمته" ^(٥).

والله سبحانه وتعالى بجانب أنه متصف بالعفو والرحمة فإن رحمته لا تتعارض مع عدالته التي جاء ذكرها في الكتاب المقدس.

ففي سفر إرميا (إني أنا الرب الصانع رحمة وقضاء وعدلاً في الأرض لأنني بهذا أسريقول الرب) ^(٦).

(أنا الرب محب للعدل) ^(٧).

وفي سفر التثنية (لا تهابوا وجه إنسان لأن القضاء لله) ^(٨).

(١) خروج ٦ : ٣.

(٢) تكوين ١٧ : ١.

(٣) عزرا ٨ : ٢٣.

(٤) خروج ٣٤ : ٦.

(٥) مزمور ١٣٦ : ١ - ٣.

(٦) إرميا ٩ : ٢٤.

(٧) إشعياء ٦١ : ٨.

(٨) تثنية ١ : ١٧.

وفي المزمور (ثبت للقضاء كرسيه وهو يقضي للمسكونة بالعدل)^(١).

فالله سبحانه وتعالى يوصف بالعدل والرحمة.

(وهم يجردون الله تعالى من صفة الرحمة لحساب صفة العدل، مع أن العدل يستلزم أيضاً غفران الخطايا لأن الله خلق الإنسان وهو يعلم أنه معرض للخطأ، ومن هنا يكون من العدل أن يقبل توبة التائب)^(٢).

وتصوير العدل كعقبة في طريق المغفرة تصوير خاطئ، وما قيمة التوبة إذن إن كان العدل يمنع الرحمة والمغفرة؟.

يقول صاحب تفسير المنار (ما رأينا أحداً من العقلاء ولا من علماء الشرائع والقوانين يقول: إن عفو الإنسان عمن يذنب إليه أو عفو السيد عن عبده الذي يعصيه ينافي العدل والكمال، بل يعدون العفو من أعظم الفضائل).

ونرى المؤمنين بالله من الأمم المختلفة يصفونه بالعفو ويقولون: إنه أهل للمغفرة فدعوى الصليبيين أن العفو والمغفرة مما ينافي العدل مردودة غير مسلمة)^(٣).

على أننا لو نظرنا إلى عقيدة الخلاص المسيحية - التي يعتبرونها هي الطريق الصحيح للخلاص - لوجدناها تركز في النهاية على مبدأ المغفرة بما يحتويه من تعارض مع العدل في نظرهم.

ذلك أن الفداء الخلاصي ليس بديلاً للمغفرة، ولكنه مجرد وسيلة، وهو بديل عن التوبة لا عن المغفرة، وكأنهم يقولون يغفر لا بالتوبة ولكن بالفداء. فلا بد أن ينتهوا إلى مبدأ المغفرة وعندئذ يأتي ما يعترضون به من حيث العدل الإلهي.

على أنه يلزم من طريق الخلاص المسيحي - وهو صلب المسيح من أجل الخطيئة - شيء أعظم وهو انتفاء كل من العدل والرحمة في صلب المسيح، لأنه عذبه من حيث هو بشر وهو لا يستحق العذاب، لأنه لم يذنب قط، فتعذيبه بالصلب - على ما زعموا - لا يصدر من عادل ولا من رحيم بالأحرى، فكيف يعقل أن يكون

(١) مزمور ٩: ٧، ٨.

(٢) مشكلات العقيدة النصرانية ص ٩٣.

(٣) تفسير المنار ج ٦ ص ٢٣.

الخالق غير عادل ولا رحيم؟ أو أن يكون عادلاً رحيمًا فيخلق خلقاً يوقعه في ورطة الوقوع في انتفاء إحدى هاتين الصفتين فيحاول الجمع بينهما فيفقداهما معاً^(١).

فدعوى عدم الجمع بين العدل والرحمة غير مسلم بها.

ثانيًا: طريق الخلاص البشري:

وهذا الطريق يقوم على المجهود أو البذل البشري، وهذا الطريق كما تؤكد المسيحية لا يقل خطأ عن الطريق الأول. وهو على أنواع:-

يقول القس إلياس مقار: ١ - فهناك طريق الإذلال الجسدي الذي حاول به كثيرون في العصور المختلفة من التاريخ التقرب إلى الله عن طريق حرمان الجسد أو تعذيبه أو إيذائه أو فرض عقوبات مختلفة عليه. ولكن هذا الطريق خاطئ ومضلل لأكثر من سبب:

أولاً: أن المحكوم عليه بالإعدام لا يغير من الحكم عليه أي تصرف يتصرفه إزاء جسده، والجنس البشري الساقط والمحكوم عليه بالموت نتيجة الخطية لا يغير من الحكم عليه أو يبدل فيه أي تصرف يقوم به الإنسان إزاء جسده.

ثانيًا: أن الجسد في حد ذاته ليس شرًا وأن الخطية قبل وبعد كل شيء هي لوثة في الفكر والنفس والروح، وأن آدم وحواء لم يخرجوا من الجنة لمجرد اقتطاف ثمرة أكلها الجسد، بل لأنهما تعديا الوصية وخانا العهد وخرجا على الحدود الموضوعة لهما، فحصر الأمر كله في الجسد وإيقاع العقوبة به هو فهم ساذج للخطية والسقوط.

ثالثًا: لأن تعذيب الجسد فيه فهم خاطئ عن العدالة عند الله، إذ أن الله يهتم بأجسادنا ويسر لها سبيل الحياة والقوة والصحة ولا يمكن أن يسر برؤية تعذيبها وحرمانها، بل أكثر من ذلك أن الإمعان في هذا التعذيب والحرمان هو خروج عن الرغبة أو القصد الإلهي في استخدام أجسادنا الاستخدام الصحيح الحق السليم. وعليه فإن البحث عن الخلاص عن طريق الإذلال الجسدي طريق خاطئ مضلل^(٢).

(١) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(٢) القس إلياس مقار (قضايا المسيحية الكبرى ص ٣٩١ - ٣٩٢).

ونحن نقول: إن ما تعتقدونه من صلب المسيح وتعذيب جسده على الصليب هو من هذا القبيل، الذى تقول عنه إنه طريق خاطئ ومضلل.

فأنتم تعتقدون أن السبيل إلى الخلاص هو صلب ابن الله وتعذيبه على الصليب، وتعتبرونه إحدى الخطوات المهمة فى عملية الخلاص فكيف تنكر تعذيب الجسد وتعتبره طريقاً غير صحيح للخلاص هنا، وتعتبره هو الطريق الوحيد للخلاص هناك!!

٢ - وهناك طريق آخر عند الناس: هو طريق الطقوس والفرائض التي يتوارثها الناس من جيل إلى جيل ومن عصر إلى عصر، ومن الواضح أن هذه الطقوس والفرائض لا يمكن أن تكون سبيلاً للخلاص من الخطية، لأنها في حقيقتها ليست إلا رموزاً أو مظاهر أو إشارات إلى الحقائق والأسرار التي ترمز إليها وتدل عليها وتفصح عنها، والخطية لا يمكن أن تستأصل أو يقضي عليها بمجرد الرموز والإشارات أو المظاهر^(١).

٣ - الخلاص عن طريق الأعمال: وهناك طريق ثالث يمكن أن يدعى عن طريق الأعمال الذي يتوهم فريق من الناس أنها تخلصهم وتدينهم من الله في اليوم الأخير، وهذا الطريق - كما يقول القس الياس مقار - لا نعتقد أن هناك طريقاً مضللاً وخداعاً كما يضل ويخدع طريق الأعمال، ولعل أقرب شبه له هو صدقة الزانية وإذا صح أن هذه الصدقة يقبلها الناس فإنها مكروهة في نظر الله، وبما أن الجنس البشري ساقط وخاطئ أمام الله، فكل عمل يأتي عن الساقط أو الخاطئ لا يمكن أن يصحح وضعه أو يغير مركزه.

ثم قال: هذه هي الطرق المرفوضة عند الله للخلاص.

ولقد سبق القول بأن يعقوب يقول بأن الخلاص بالأعمال، بينما كان بولس يعتقد أن الخلاص بالنعمة ولقد بينا هناك أن من يعمل أعمالاً صالحة يدعى عظيماً.

ففي إنجيل متى (أما من عمل وعلم فهذا يدعى عظيماً في ملكوت السموات)^(٢).

(١) المصدر السابق ص ٣٩٤.

(٢) متى ٥ : ١٩.

ثالثاً: طريق الخلاص الإلهي:

إن الإنسان - في نظر المسيحية - لا يستطيع أن يقوم من تلقاء نفسه ما به يستطيع أن يكفر عن الخطية؛ إذ أن الطريق الصحيح إلى غفران الخطية - عندهم - هو الكفارة، وهذه الكفارة - لا يستطيع الإنسان أن يفعلها لأنها مرهونة بأوصاف إلهية لا تتوافر في الإنسان (فالخطية تستحق الدينونة ولا يصح مغفرة الخطية إلا بواسطة تزيل تلك الدينونة وتحمل عن الخاطي جرمه، وذلك لا يتم بمجرد توبة الخاطي وإصلاحه لأنه ولو صار صالحاً لا يزيل ذلك عنه دينونة الخطايا التي ارتكبها، ولو غفر الله له خطاياه بدون كفارة لم يبق عنده إكرام لشريعته تعالى بل يحسبها طبعاً بلا كرامة وحينئذ لا يعتبر قداسة الله ولا يميز سمو حكمه الأدبي ولا يعرف حقيقة رحمته ولا يمجده في كمال صفاته، ولذلك لا بد من الكفارة لرفع دينونة الخطية وإظهار صفات الله بأكمل بيان)^(١).

"فالإنسان لانتقال الطبيعة الخاطئة إليه بالوراثة وتسلطها على كيانه تبعاً لذلك لا يستطيع بمجهوده الذاتي أن يتحرر منها أو يرتقي فوقها، ولذلك نرى أنه إذا تعهد يوماً بالإقلاع عن الخطية وبذل كل ما لديه من جهد في سبيل تنفيذ تعهده هذا، كثيراً ما يغلب على أمره، فإن لم يفعل الخطية في الظاهر فقد يفكر فيها ويشتهيها في الباطن، ومن ثم يعود من حيث أتى لذلك فمثل الإنسان في مقاومة الخطية كممثل الماء الذي لا يستطيع من تلقاء ذاته أن يرتفع إلى مستوى أعلى من المستوى الذي هبط منه في أول الأمر، والنبى الذي أدرك عجز البشر عن التحرر من الخطية من تلقاء أنفسهم بسبب ولاذتهم بها صاح قائلاً^(٢) "هل يغير الكوشي"^(٣) جلده أو النمر رقطه. فأنتم أيضاً تقدر أن تصنعوا خيراً أيها المتعلمون الشر"^(٤).

ولما كان الإنسان لا يستطيع أن يقوم بالكفارة والفداء فإن الله وحده هو الذي يستطيع أن يفدى البشر من الخطية ويكفرها عنهم.

(١) علم اللاهوت النظامي ص ٨١٣.

(٢) عوض سمعان: طريق الخلاص ص ١٣ - ١٤.

(٣) إلكوشي الزنجي والحبشي.

(٤) إرميا ١٣ : ٢٣.

يقول عوض سمعان: (لا يستطيع فدائنا إلا الله)^(١).

والطريق إلى فداء الله للبشر - فى نظر المسيحية - هو تجسد ابن الله وظهوره فى صورة إنسان لكي يكفر عنهم هذه الخطية ويخلصهم من أوزارها.

يقول دوم كولومبا مرميون (إن الخطية أفسدت على الله النهج الذي وضعه ليتبنى آدم وتسلمت إلى نسل رأس الجنس البشري وأقفلت في وجهه أبواب السماء، وكان يقتضي لفتح هذه الأبواب تعويض عن الإهانة وتكفير تام مطلق يمحو الخطية، ولما لم يكن باستطاعة الإنسان وهو خليفة بسيطة أن يقوم بهذا التكفير صار الكلمة جسداً وأصبح الله إنساناً وأخذ على عاتقه هذه المهمة)^(٢).

"وبما أنه ليس من المعقول أن يخلق الله شخصاً نظيره لأن المخلوق يكون محدثاً والمحدث لا يكون مثل الأزلى، إذ ليس هناك كائن غير الله يستطيع القيام بفدائنا والتكفير"^(٣).

وهكذا صار معلوماً بيقين أقوى وأشد أنه لن ينقذ الإنسان من سلطان الموت إلا إذا أنقذ من سلطان الخطية، لهذا نزل ابن الله من السماء وأخذ جسداً بلا خطية وعاش بلا خطية وتحرر جسداً منه إلى الأبد^(٤).

فإن العدل في مجال الفداء المسيحى هو استحقاق البشر للموت بسبب الخطية، ولكي يعالج الله مشكلة الإنسان الساقط - كما يقولون - أرسل ابنه الوحيد يسوع المسيح متجسداً من العذراء، لكي يأخذ على نفسه في الجسد حكم الموت الذي نستحقه جميعاً، وفي نفس الوقت يتلاشى بموته على الصليب قوة الموت الذي تتسلط على طبيعتنا، وبذلك فإنه يخلصنا من خطايانا بقوة بره وطاعته الكاملة للأب. ومحبتة الكاملة، وفي نفس الوقت يخلقنا خلقاً جديداً في نفس جسده القاهرة للموت بقوة الحياة لأنه هو القيامة (الحياة)^(٥).

(١) طريق الخلاص ص ١٩.

(٢) المسيح حياة النفس ص ١٩٣.

(٣) طريق الخلاص ص ١٩.

(٤) الأب متى المسكين: القيامة والصعود ص ٥٣.

(٥) باسيليوس: سر الفداء ص ١٥.

فالطريق إلى الخلاص المسيحي من الخطية: تجسد ابن الله ثم موته على الصليب وقيامته من بين الأحياء وذلك لكي يبدد سلطان الموت الذي حكم الله به على البشر نتيجة السقوط.

وفي نفس الوقت هذه القيامة تهب للإنسان الحياة الأبدية.

يقول القس إلياس مقار:-

ولعل هذا الطريق يتميز على الأقل بالحقيقتين الأساسيتين التاليتين:-

الحقيقة الأولى:-

١ - أن خلاص الإنسان من الله وبترتيبه وهذا أمر بديهي طبيعي لأنه لا يمكن أن يصنع هذا الخلاص ويرتبه سوى الله وحده إذ من يستطيع أن يجمع بين العدالة الكاملة والرحمة الكاملة وبين القداسة الكاملة والمحبة الكاملة سوى شخص الله وحده، ومن يستطيع أن يصنع نظاماً لخلاص الإنسان الساقط ورفعه من وهدة الشر والخطية إلا الله وحده، ذلك فإن أي خلاص يتصوره الإنسان ويتكره خياله لابد أن يكون ناقصاً كنتقص هذا الإنسان، عاجزاً كعجز خياله، فإذا أضيف إلى هذا أن ذات طبيعة الله وصفاته في مقارنتها مع طبيعة الإنسان وصفاته تحتم صدور الخلاص من الله، إذ أن الخلاص والإنقاذ يأتي في العادة من الأكبر إلى الأصغر ومن الأقوى إلى الضعيف ومن القادر على كل شيء إلى العاجز عن كل شيء. كل هذا يجعلنا نجزم ونذكر أن ترتيب الخلاص من الألف إلى الياء ومن البداية إلى النهاية ومن الجملة إلى التفصيل يرجع أولاً وأخيراً إلى شخص الله وحكمته وجوده وحنانه وجهه وقدرته^(١).

الحقيقة الثانية:-

ويقول عن الحقيقة الثانية: "إن خلاص الإنسان يقوم أساساً على الفداء، إذ أن الخلاص ليس مجرد فلسفة، بل هو الحقيقة العملية لا محيص منها لرفع الخطية كدين وكفساد عن الجنس البشري، وأية نظرية لا تقوم على تصحيح هذين الوضعين تعتبر نظرية باطلة غير سديدة أو سليمة"^(٢).

(١) قضايا المسيحية الكبرى ص ٣٩٥.

(٢) المصدر السابق ص ٣٩٦.

ثم يقول "إذا كان من المسلم - في نظرهم - أن آدم سقط، وأن السقوط لم يلحقه وحده بل لحق الجنس البشري بأكمله، إذ كان آدم نائبه ومثله في الامتحان الإلهي، وكان وصول الخطية إلى البشر آتياً إليهم على خلاف الملائكة الذين سقطوا، فإن سقوطهم كان فردياً عن النيابة والوراثة، إذ لم يكن أحد من أبناء آدم هناك يشترك مع الأبوين اشتراكاً حراً مستقلاً فعلياً في التعدي والسقوط، كانت العقوبة أيضاً أو الدين يتحتم بالطريق المقابل أن يتحملها نائب البشري ومثله.

ومن هنا برزت فكرة المخلص الذي يخلص العالم، وكان من المتعين أن يعبر هذا المخلص عن قدرة الله ومحبه الكاملة في إنقاذ الجنس البشري، ومثل هذا التعبير الكامل لا يمكن أن يصدر عن شخص آخر سوى الله ذاته^(١). وهذه هي الحقيقة الأولى في المخلص.

ثم يقول عن الحقيقة الثانية في المخلص: إنه لكي تتم وتصح نيابته عن الجنس البشري لابد أن يندمج في هذا الجنس ويصبح واحداً منه، إذ أن الغريب عن الجنس لا يمكن أن ينوب عنه نيابة كاملة. ومن البدهة أنه لكي يفدي هذا النائب غيره من الخطية لابد أن يكون هو كاملاً مبرأ من الخطية إذ فاقد الشيء لا يعطيه. ومن ثم كان من الضروري أن يتجسد المسيح ويأتي إلى العالم، والمسيح وحده بهذا المعنى هو الذي يستطيع أن ينوب عن البشر ليصبح كما أطلق الكتاب^(٢) عليه آدم الثاني^(٣).

ويقول عن الحقيقة الثالثة في المخلص: (إنه لابد أن يدفع الثمن كاملاً لرفع الخطية وإلا كان الأمر مجرد تمثيلية بعيدة عن الحقيقة والواقع، ومن ثم: لم يكن صلب المسيح مجرد دفاع عن مبدأ يؤثر الناس الموت على تركه واستشهاده من أجل عقيدة يتمسك بها أصحابها، وإلا لما افترق موت المسيح عن موت الشهداء وأصحاب المبادئ والمثل، ولكن موت المسيح كان كفارة وفداء عن العقوبة التي وقعت على الجنس البشري كله بسقوط وخطية نائبه الأول.

(١) المصدر السابق ص ٣٩٦، ٣٩٧.

(٢) المصدر السابق ص ٣٩٧.

(٣) ١ - كورنثوس ١٥ : ٤٥ (هذا مكتوب أيضاً صار آدم الإنسان الأول نفساً حية وآدم الأخير روحياً محيياً).

فالصليب هو رافع العقوبة والدين وشاف ومطهر من اللوثة والطبيعة الفاسدة^(١).
لذلك يقول يوحنا (ودم يسوع المسيح ابنه يطهرنا من كل خطية)^(٢).
ونحن نقول هنا: ألم يكن مقتضى العدالة - وتحقق معها الرحمة أيضا - أن
يصلب آدم نفسه وتنتهى المشكلة؟.

ما دخل ابن إله - جدلا - فى الموضوع؟.
آية عدالة هذه؟.

وأين العقاب الذى تقتضيه؟ وعلى من وقع؟.

وأى تزمتم هذا فى ضرورة إيقاع العقاب على المجرم يؤدى فى النهاية إلى إفلاته
من أى عقاب، ليقع العقاب على غيره ضمن مسرحية ليس للإنسان فيها أى دور؟
إلا دور القناع يلبسه الممثل المختفى وراءه، أليس جسد المسيح هو ذلك القناع؟
المهم أن الخلاص المسيحي يقوم على المخلص الذى يستطيع أن يقوم بعملية
الفداء والكفارة وهذا المخلص هو المسيح ابن الله، ولكي تتم عملية الفداء - فى
نظرهم - كان لابد أن يتجسد المسيح أى يلبس جسدا ويظهر بصورة البشر ثم يموت
مصلوبا.

ولم يذكر/ القس الياس مقار الحقيقة الرابعة التي يجب أن تكون فى المخلص
والتي هي من أسس المسيحية ومن أسس عقيدة الخلاص لدى المسيحية وهي: قيامه
المسيح من الأموات معلنا انتصاره على الموت. إذ لو توقفت عملية الفداء عند موت
المسيح على الصليب لم يكن مخلصا كما يقول - كلايد تارنر:-

(إن مسيحا ميتا لا يمكن أن يكون مخلصا فقيامه المسيح أكدت أن الله قد قبل عمله
الكفارى على الصليب)^(٣).

(١) المصدر السابق ص ٣٩٨.

(٢) يوحنا ١ : ٧.

(٣) كلايد تارنر: هذه عقائدنا ص ٩٢.

يقول بولس: "الذي أسلم من أجل خطايانا وأقيم لأجل تبريرنا"^(١).

ويقول (إن لم يكن المسيح قد قام فباطل إيمانكم أنتم بعد في خطاياكم)^(٢).

ويقول د/ فهميم عزيز: إن قيامة المسيح كانت ركناً أساسياً في هذا العمل العظيم^(٣).

وعلى ذلك فإن دراستنا للخلاص تقوم على ما يأتي :-

١ - دعوى تجسد المسيح.

٢ - دعوى صلب المسيح.

٣ - دعوى قيامة المسيح.

وهو موضوع الدراسة في الباب الثاني إن شاء الله.



(١) رومية ٤ : ٢٥.

(٢) ١ - كورنثوس ١٥ : ١٧.

(٣) المدخل إلى العهد الجديد ص ٨٩.

الفصل الرابع

عمر الله للإنسان
بعد السقوط بالخلّاص

obeikandi.com

تمهيد

يعتقد المسيحيون أن الإنسان عندما وصل إلى حالة العجز بسبب الخطية كان على الله أن يدبر له طريق الخلاص، وهذا التدبير وقع منه سبحانه على صورة عهد. "فقصة آدم لم تنته بالطرد أو الموت أو الهلاك، وهيهات لها أن تكون كذلك وقد سبقت نعمة الله فأعدت له الخلاص المجاني الكامل العظيم"^(١). وأخذ هذا الإعداد صورة العهد:-

جاء في "علم اللاهوت النظامي": يتضح من الكتاب المقدس أن عمل الفداء وضع على صورة عهد، يتضح ذلك من التعبير عنه دائماً بالألفاظ العبرانية واليونانية المستعملة في كلتا اللغتين للإشارة إلى العهد، ومن تضمن عمل الفداء أركان العهد ولوازمه^(٢).



تعريف العهد:

وكلمة العهد كما يقول ابن منظور: "كل ما عوهد الله عليه، وكل ما بين العباد من المواثيق. والعهد: الوصية، يقال عهد إلىّ في كذا، أي أوصاني، ومنه حديث عليّ كرم الله وجهه:

عهد إلى النبي الأمي، "أي أوصى، ومنه قوله عز وجل ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ﴾ [سورة يس آية ٦٠] يعني الوصية والأمر.

والعهد: التقدم إلى المرء في الشئ. والعهد: الذي يكتب للولادة، وهو مشتق منه، والجمع عهود، وقد عهد إليه عهداً^(٣).

(١) القس إلياس مقار: رجال الكتاب المقدس ص ١٦.

(٢) علم اللاهوت النظامي ص ٧٥٤.

(٣) لسان العرب ص ٣١٤ ط دار المعارف.

وفي المعجم الوسيط (عهد فلان إلى فلان - عهدا: ألقى إليه العهد وأوصاه بحفظه. ويقال: عهد إليه بالأمر، وفيه: أوصاه به.

وعهد الشيء: عرفه، يقال: الأمر كما عهدت، أي كما عرفت

وعهد فلانا: أي تردد إليه يجدد العهد به

وعهد فلانا بمكان كذا: لقيه فيه. فهو عهد

والعهد: العلم. يقال: هو قريب العهد بكذا: قريب العلم به، وعهدي بك

مساعد الضعفاء: إني أعلم ذلك

والعهد: الوصية ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ [سورة الأنعام آية ١٥٢] أي وصاياہ وتكاليفه.

والعهد: الميثاق الذي يكتب للولاة، واليمين التي تستوثق بها ممن عاهدك.

تقول: عليّ عهد الله لأفعلن كذا، والزمان: يقال كان ذلك على عهد فلان^(١)

هذا هو العهد ومعانيه في كتب اللغة وهي معاني عامة تشمل أموراً كلية، ويختلف معنى العهد تبعاً لاستعماله واستخدامه.

أما معنى العهد في الاصطلاح المسيحي: فهو يعني الميثاق الذي عقده الله مع الإنسان على صورة مشروع خلاصي يحققه تعالى على مراحل^(٢).

ولقد ذكرت كلمة (العهد) في الكتاب المقدس ما يقرب من إحدى وسبعين ومائة مرة^(٣) بمعان شتى، ولكن المعنى الذي ذكرناه سابقاً هو المقصود بكلمة العهد في علم اللاهوت، وهو المقصود بعهد الله للإنسان بالخلاص.

يقول د/ أندرو وسطون: إن للفظ (عهد) معاني شتى في الكتاب المقدس. منها:

أولاً: أنها تعبر عن النواميس الطبيعية كتتابع الليل والنهار كما في سفر إرميا حيث قيل (هكذا قال الرب. إن نقضتم عهدي مع النهار وعهدي مع الليل)^(٤).

(١) المعجم الوسيط ج ٢ ص ٦٣٣ ، ٦٣٤ .

(٢) الأب / ديلي: تاريخ شعب العهد القديم، ترجمة: الأب جرجس مارديني ص ٥٧ ، الأب بولس الياس اليسوعي: على خطي المسيح ص ٢٤ .

(٣) راجع فهرس الكتاب المقدس ص ٤٢٣ ، ٤٢٤ .

(٤) إرميا ٣٣: ٢٠ .

ثانيًا: أنها تعبر عن وعد مطلق أي غير معلق على شرط ، كما في سفر التكوين (أقيم ميثاقي - أي عهدي - معكم) ^(١).

ثالثًا: أنها تعبر عن ترتيب مخصوص في معاملة الله للبشر كما في الرسالة إلى العبرانيين.

"ولكنه الآن قد حصل على خدمة أفضل بمقدار ما هو وسيط أيضًا لعهد أعظم قد تثبت على مواعيد أفضل. فإنه لو كان ذلك الأول بلا عيب لما طلب موضع لثان. لأنه يقول لهم لائتمًا هوذا أيام تأتي يقول الرب حين أكمل مع بيت إسرائيل ومع بيت يهوذا عهدًا جديدًا. لا كالعهد الذي عملته مع آبائهم يوم أمسكت بيدهم لأخرجهم من أرض مصر لأنهم لم يثبتوا في عهدي وأنا أهملتهم يقول الرب" ^(٢).

رابعًا: أنها تعبر عن وعد الله المرتبط بشرط وهذا هو المعنى المستعمل - عندهم - في علم اللاهوت ^(٣).

وأطلق النصارى على الأسفار الخمسة وكتب الأنبياء العهد القديم ^(٤) على أساس أنها تتضمن نبوءات عن العهد الذي عقده الله مع بنى إسرائيل من أجل الخلاص. وأطلق عليه لفظ (القديم) تمييزًا له عن العهد الجديد الذي يتحقق فيه النبوءات السابقة، والذي يتضمن - كما يعتقدون - عهدًا جديدًا بالإنسان مبرأ من الخطيئة الموروثة.

ويقولون لقد تم هذا الخلاص بدم المسيح. يقول بولس (ليس أننا كفاة من أنفسنا أن نفتكر شيئًا كأنه من أنفسنا بل كفايتنا من الله الذى جعلنا كفاة لأن نكون خدام عهد جديد ^(٥) "على قدر ذلك قد صار يسوع ضامنًا لعهد أفضل" ^(٦)).

(١) تكوين ٩ : ١١.

(٢) عبرانيين ٨ : ٦ - ٩.

(٣) أندرو واطسون: شرح أصول الإيمان. أتمه وراجعته د/ القس / إبراهيم سعيد ص ٩٣ ، ٩٤.

(٤) إطلاق العهد القديم على الأسفار الخمسة وكتب الأنبياء هو السائد بين اللاهوتيين (قاموس الكتاب

المقدس ص ٦٤٤.

(٥) ٢ كورنثوس ٣ : ٥ ، ٦.

(٦) عبرانيين ٧ : ٢٢.

فالعهد القديم هو بذرة العهد الجديد، والعهد الجديد هو ثمرة العهد القديم، وفيه تمت نبوته سيما النبوات المتعلقة بشخص المسيح، والعهد الجديد كامن في العهد القديم، والعهد القديم متفتح وظاهر في العهد الجديد^(١).

جاء في (علم اللاهوت النظامي): واعلم أن التمييز المشهور بين العهد القديم والعهد الجديد إنما يشير إلى نظامين (وهما الموسوى والمسيحي) لعهد واحد، وهو ما يسمى عهد النعمة تمييزاً له عن عهد الأعمال، لأنه بعد نقض عهد الأعمال بسقوط آدم، أقام الله عهداً آخر مع البشر وهو عهد النعمة بشرط الإيمان الذي هو شرط الخلاص في النظام الموسوى والمسيحي^(٢).

أقسام العهد

وهذا القول يجزئنا إلى بيان أقسام العهد - كما يصوره اللاهوت المسيحي - فهناك ما يسمى بعهد الأعمال أو عهد الحياة.

وما يسمى بعهد النعمة

أما عهد الأعمال: فهو العهد الذي قطعه الله مع آدم. وسمى هذا العهد بعهد الأعمال لأن الأعمال هي الشرط الذي علق عليه^(٣) أو لأنه متعلق بأعمال واجب على آدم حفظها^(٤) ويدللون على ذلك بما جاء في سفر التكوين (وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها)^(٥).

ويسمى هذا العهد بعهد الحياة، لأن وعد العهد الذي أقامه الله مع آدم أو الجزاء الذي وعده به على شرط طاعته هو الحياة، ويستفاد ذلك من تهديد الله له بقوله "لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت"^(٦).

(١) الدين المسيحي للمرحلة الثانوية سنة ١٩٦٦ ص ١٠٣.

(٢) علم اللاهوت النظامي ص ٦١٢.

(٣) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٤) شرح أصول الإيمان ص ٩٥.

(٥) تكوين ٢: ١٥.

(٦) علم اللاهوت النظامي ص ٦١٢.

وذلك بمعنى أن الله لما خلق الإنسان على صورته فى المعرفة والبر والقداسة عاهده عهد الحياة (ويسمى غالباً عهد الأعمال) على شرط الطاعة الكاملة، ونهاه عن الأكل من شجرة معرفة الخير والشر لئلا يموت. وذلك يتضمن :-

١ - إقامة الله عهداً مع آدم.

٢ - الوعد المضاف إلى ذلك العهد وهو الحياة.

٣ - الشرط وهو الطاعة الكاملة.

٤ - قصاص المعصية وهو الموت^(١).

وليس هناك من قول صريح فى الكتاب المقدس يدل على أن الله عقد عهداً مع آدم.

ولقد أثار علماء اللاهوت سؤالاً حول هذا المعنى وأجابوا عليه، يقول السؤال : هل جاء القول بإقامة الله عهداً مع آدم صريحاً فى كتاب الله؟ الجواب :-

كلا بل هو أخص وأصرح جملة تعبر عما جاء فيه صريحاً من أن الله وعد آدم عهداً مقيداً بشرط ورتب على العصيان قصاصاً معلوماً.

ولما ورد النص فيه أن الإنسان ينال الحياة الأبدية على إحدى طريقتين فقط :

إحداهما تقوم على الطاعة الكاملة، والأخرى بالإيمان، وسميت الثانية بالعهد وكانت فى الجوهر شيئاً واحداً سميتا باسم واحد وهو العهد^(٢).

وعموماً فليس هناك من مانع لدينا أن نسمى ما وقع بين الله وآدم عهداً ولكن فى حدود الدائرة التى ناقشنا بها سابقاً الوعد بالحياة المترتبة على هذا العهد، والموت نتيجة للمعصية.

وإضافة الأعمال - بالجمع - إلى العهد فيه بعض التجاوز ذلك لأن ما كلف به آدم هو عمل واحد لا أعمال، وهو عدم الأكل من الشجرة المحرمة.

(١) نفس المرجع ونفس الصفحة.

(٢) نفس المرجع ونفس الصفحة.

ويعتقدون أن هذا العهد خاص بآدم عليه السلام الذى كان نائباً عن الجنس البشرى معللين ذلك (بأنه إذا كان آدم قد ناب فى عهد الأعمال عن نسله فيمكن الحكم الجازم بأن ذلك العهد قد زال، لأن الاعتقاد أن البشر باقون تحت ذلك العهد هو بمثابة الاعتقاد أنهم لا يزالون تحت الامتحان، وأن الجنس لم يسقط بسقوط آدم، ولكن البشر كلهم ساقطون ومحاطون بنتائج ضرورية وقصافية من معصية آدم، وأنهم قد امتحنوا فيه لا أن كل إنسان يحتمل الامتحان بنفسه)^(١).

أما العهد الثانى فهو ما يسمى بعهد النعمة:-

وهو العهد الذى عقده الله الآب مع المؤمنين، وهو واسطة لإتمام ما قصد إتمامه فى عهد الفداء، أى أن الغاية العظمى فى عهد الفداء تتم على الكيفية المعينة فى عهد النعمة^(٢) أى أنه عهد عقده الله من أجل خلاص الإنسان من خطيئة آدم.

ويسمى بعهد النعمة "لأنه يظهر محبة الله للخطاة، إذ أن نعمة الله تخلصهم من الخطيئة بدون أن يستحقوا ذلك، ولذلك يسمى الإنجيل (بشارة نعمة الله)^(٣) وهو بخلاف عهد الأعمال الذى هو متعلق بالأعمال، أما عهد النعمة فهو يخلص الإنسان بدون عمل^(٤).

وهذا العهد - كما يتصورون - عقد مع البشر حالاً بعد سقوط آدم ونقضه لعهد الأعمال، وهو فى كل الأزمنة من عصر آدم إلى نهاية العالم، غير أن هيئته الخارجية تختلف مع مرور الدهور.

ففى زمان موسى أجرى على هيئة النظام الموسوى، ومنذ مجئ المسيح أجرى على هيئة النظام الإنجيلى، ولا يخفى أن مرور القرون منذ السقوط قطع عهود مختلفة مع الآباء وغيرهم من الأمة اليهودية، على أن هذه العهود بجملتها ضمن عهد النعمة، وهى إعلانات مكررة للعهد الأصيل الأساسى الدائم بين الله وشعبه^(٥).

(١) المرجع السابق ص ٦١٦ ، ٦١٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٧٥٧ .

(٣) قاموس الكتاب المقدس ص ٩٧٣ .

(٤) شرح أصول الإيمان ص ٩٥ .

(٥) علم اللاهوت النظامى ص ٧٥٨ .

العصور المختلفة لعهد النعمة

كما سبق يتبين لنا أن عهد النعمة هو في كل الأزمنة من عصر آدم، وهذا أدعى إلى معرفة العصور المختلفة لعهد النعمة أو مراحل هذا العهد، وهي عصور في حد ذاتها تاريخية أو مرحلية، كل مرحلة تسلم للأخرى.

العصر الأول:- ويسمى العصر الآدمي لأنه ينسب إلى آدم.

ومدة هذا العصر من آدم إلى إبراهيم عليهما السلام.

يقول علماء اللاهوت عن هذا العصر (وليس لنا من أنباء هذه المدة إلا القليل حتى لا نقدر أن نجزم إلى أي حد أعلن الحق، أو ما هي الوسائط التي استعملت لحفظه، فكل ما نعرفه عن أخبار تلك المدة هو أن الله قد وعد أهلها الوعد الأصلي بنسل المرأة^(١)، ورسم لها العبادة بواسطة الذبائح، ونستدل على أن المقصود بالذبائح تعليم كيفية الخلاص بثلاثة أمور:-

١ - كونها مطابقة وموافقة لمطلوب الضمير البشري؛ لأن حكم الضمير يؤدي إلى الاعتقاد أن الخاطئ يحتاج إلى الكفارة، والأرجح أن الله علم الإنسان أن تلك الكفارة يجب أن تكون بسفك دم.

٢ - سرور الله بها، ووضعها إياها فريضة دينية، وتضمنه إياها الفرائض الدينية التي أمر بها بعد ذلك.

٣ - توقع خلاص البشر بواسطة ذبيحة المسيح، ولذلك يحق لنا أن نحسب الذبائح القديمة رسمت قبل شريعة موسى للإشارة إلى طريق الخلاص المسيحي، وأنها فرضت لتعليم كيفية الخلاص^(٢).

فالوعد في هذا العصر هو القول (وأضع عداوة بينك وبين المرأة..... إلى آخره) فلقد رأى كثيرون من العلماء والمفسرين اللاهوتيين المسيحيين في هذا النص وعدا بمجيء ذاك الذي استطاع وحده أن يسحق سحقاً نهائياً رأس الحية وهو المسيح^(٣).

(١) يشيرون بذلك إلى ما ورد في سفر التكوين من وعد الله لآدم وحواء بأن نسل المرأة سيسحق رأس الحية. تكوين ٣: ١٥.

(٢) المرجع السابق ص ٧٦٦.

(٣) تاريخ الفكر المسيحي المجلد الأول ص ٢٧.

من هذا القول يتبين أولاً - كما يقول القس إلياس مقار:-

أن الله أعلن خلاص آدم قبل إعلان عقابه، وهذا واضح مما نقرأ فى سفر التكوين إذ قال الله للحيه قبل أن يحكم على آدم "وأضع عداوة بينك وبين المرأة نسلك وبين نسلها. هو يسحق رأسك وأنت تستحقين عقبه"^(١) أو فى لغة أخرى أن آدم سمع حكم الخلاص قبل أن يسمع حكم الموت، وهذا أكبر دليل على عمق رغبة الله فى خلاص البشر، وهو دليل على أن الله يسر بالرحمة والرافة ولا يسر بموت الخاطيء^(٢).

يقول ثانيًا: إن الله أعلن خلاص آدم بالدم.

لقد حاول آدم وحواء تغطية الخطية تغطية مشوهة حمقاء "إذ خاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر"^(٣) وهما أول من يعلم أنها لا يمكن أن تبقى أو تستر. أما الله فقد ستر عريهما وخزيهما بذبيحة (وصنع الرب الإله لآدم وامرأته أقمصه من جلد وألبسهما)^(٤) إذ "بدون سفك دم لا تحصل مغفرة"^(٥) وهنا ندرك^(٦) أمرين أساسيين أصيلين فى الخلاص.

أنه وقبل كل شيء من صنع الله، وأنه بالدم، الدم وحده^(٧).

وقبل أن نترك هذا الموضوع لنا بعض المناقشات التى يستوجبها البحث العلمى:

بالنسبة للأمر الأول:- وهو أن الله أعلن الخلاص قبل العقاب، وأن آدم سمع الحكم بالخلاص قبل سماعه للحكم بالموت. هذا القول فيه بعض الشكوك ذلك لأنه معلوم أن الله حين وضع آدم فى الجنة قال له (وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا

(١) تكوين ٣ : ١٥ .

(٢) القس إلياس مقار : رجال الكتاب المقدس ص ١٦ .

(٣) تكوين ٣ : ٧ .

(٤) تكوين ٣ : ٢١ .

(٥) عبرانيين ٩ : ٢٢ .

(٦) الكلام لازال للقس إلياس مقار .

(٧) رجال الكتاب المقدس ص ١٧ .

تأكل منها لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت) فهذا بالضرورة عقوبة الأكل من الشجرة، الله قد أعلنه قبل أن يخطئ آدم، وهذا القول أيضاً فى حد ذاته عقوبة، وإعلان عن عقوبة (الموت) لو أكل آدم وحواء من هذه الشجرة.

ثم إن عقوبة وقعت على آدم وحواء بعد الخطأ مباشرة لأنهما حين امتدت أيديهما إلى الشجرة وأكلا انفتحت أعينهما وعلمتا أنهما عريانان، وهذا فى حد ذاته أيضاً إعلان للعقوبة بالطريقة العملية بعد أن قال الله لهما وعرفهما قبل الخطأ بالعقوبة التى تقع فما أن أخطأ آدم وحواء إلا وقد وقعت عليهما تلك العقوبة.

ثم إن الفقرة التى استشهد بها - القس السابق - على أنها إعلان للخلاص قبل إعلان للعقوبة إنما هى ضمن العقوبات التى عاقب الله بها الحية - كما تدعون - فليس هناك من فاصل بين العقوبة وإعلان الخلاص. وهذا نص الكتاب المقدس فى ذلك :

فقال الرب الإله للحية لأنك فعلت هذا ملعونه أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية. على بطنك تسعين وتراباً تأكلين كل أيام حياتك. وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها. هو يسحق رأسك وأنت تستحقين عقبه. وقال للمرأة تكثيراً أكثر أتعاب جيلك^(١) ويظهر من النص أنها من فقرات العقوبة لا أنها إعلان منفرد للخلاص.

أما بالنسبة للأمر الثانى :- وهو أن الله أعلن خلاص آدم بالدم والاستدلال على ذلك بما جاء فى الكتاب المقدس من أن الله "صنع لآدم وحواء أقمصاً من جلد وألبسهما" بمعنى أن الله صنع لهما جلدًا وأن هذا الجلد عن طريق دم.

فنحن نقول لا دليل فى هذه الفقرة على أن الخلاص بالدم: لأن الفقرة تقول "وصنع الرب" وصنع الله لا يخضع لمقاييسنا البشرية من ناحية أن الجلد لا بد وأن يكون عن طريق ذبح، لأنه من الممكن أن يكون قد صنع الله لهما جلدًا أى خلق لهما جلدًا

خاصاً بهما من أجل ستر عورتيهما، ولا يدل بالضرورة على أن الله قد ذبح حيواناً وصنع من جلد الحيوان أقمصاً لآدم وحواء.

ثم إننا لو سلمنا أن هذه الفقرة تدل على أن الخلاص إنما يكون بالدم فهو دليل إدانة، بمعنى أنه إذا كان الله قد صنع لآدم وحواء أقمصاً من جلد من أجل ستر سواتهما وخلصهما من الورطة التي أحاطت بهما، فهذا دليل على أن آدم قد خلصه الله من الخطيئة ولا داعى لأن يُلعن هو وأبناؤه، ولا داعى لأن يرثوا الخطيئة. ثم إنه لا بد وأن يثمر الجلد الذى صنعه الله من دم ثمرته، حتى يتبين أثره ويظهر للبشر نتيجة حتى يطمئن البشر ويتأكدوا من طريق الخلاص. ولا يمكن اعتبار ستر العورة خلاصاً لآدم وحواء من الخطيئة لأن لو كان خلاصاً لهما لما كان هناك داعى لتعدى الخطيئة إلى غيرهما ولكنها لما لم تكن خلاصاً لهما - كما يقولون - فقد ورثها نسلهما.

ثم إننا لو اعتبرنا أنه كان تعليمًا لآدم وللشعر من بعده لطريقة الخلاص - لا خلاصاً لأن آدم لم يذبح دم.

فإننا نقول إن غير آدم من البشر قد ذبح قربان لله وكفر عن خطيئة آدم، وإذا كانت هناك كفارة لهذه الخطيئة فلا داعى للقول بوراثتها، فلقد ذبح هابيل القربان لله (وقدم هابيل أيضاً من أبكار غنمه ومن سمانها)^(١).

وكذلك أيضاً ذبح نوح القربان الكثيرة لله (وبنى نوح مذبحاً للرب. وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة وأصعد محرقات على المذبح. فتنسم الرب رائحة الرضا. وقال الرب فى قلبه لا أعود ألعن الأرض أيضاً من أجل الإنسان لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حدثته. ولا أعود أيضاً أميت كل حي كما فعلت. مدة كل أيام الأرض زرع وحصاد وبرد وحر وصيف وشتاء ونهار وليل^(٢)).

يظهر من هذا أن هابيل قدم من أبكار غنمه، وأن نوحاً قدم من جميع الحيوانات والطيور الطاهرة، وكان نتيجة لعمل نوح أن رد الله الحكم الذى أصدره على آدم

(١) تكوين ٤ : ٤.

(٢) تكوين ٨ : ٢٠ - ٢٢.

وحواء ونسلهما وهو الموت فقال الله لنوح (لا أعود أميت كل حي كما فعلت) فهذا يدل على أن الحكم بالموت الذى أصدره الله على آدم إنما كفر نوح^(١) عنه. وعليه فلا داعى للقول بأن نسل آدم قد ورث الخطيئة وعلقت به حتى جاء المسيح وكفر عنها.

ثم إن القول (بدون سفك دم لا تحصل مغفرة) الذى استشهد به القس إلياس مقار قول عام لا يقتصر على دم المسيح، أى أن أى سفك دم يحصل به المغفرة. وعليه فمن الظلم أن يذبح إنسان للمغفرة وهناك طريق آخر طيعى - ذبح الحيوان - يمكن أن يحصل الإنسان منه على هذه المغفرة، فما الداعى لأن يصلب إنسان بدون وجه حق وهناك ما يمكن الاستعاضة به عنه وليس فيه اجترأ وظلم لأحد؟ فإنه إذا كان بأى سفك دم تحصل مغفرة فإن أقرب طريق هو ذبح الحيوان الذى هو قربان لا الإنسان الذى خلق من أجل أن يكون خليفة لله فى الأرض لا أن يذبح ليكون قربانا.

العصر الثانى :- وهو يمتد من إبراهيم إلى موسى عليهما السلام

وهذه الحقبة - كما يدعون - لها أهميتها فى تاريخ الشعب المختار: إذ هى أساس تاريخه وهى ساعة منشأ وتكوينه، تلوح فيه تباشير العهد مع الله. ولها أهميتها فى التمهيد للمسيح من ناحية الوعد بالذرية الكثيرة وبامتلاك الأرض، وبهما يكتمل الوعد الثالث (ويتبارك فى نسلك جميع أمم الأرض من أجل أنك سمعت لقولى)^(٢) وقد رأت الكنيسة فى هذا الوعد الوعد بالمسيح ذاته ولذا وضع الفنانون فى القرون الوسطى إبراهيم فى جذع شجرة "يسى"^(٣).

(١) وذلك على طريقتكم أنه من الممكن أن يتحمل إنسان وزر إنسان آخر ويكفر عنه.

(٢) تكوين ٢٢ : ١٨.

(٣) الأب / ديلي : تاريخ شعب العهد القديم ص ١١٠. ويسى : اسم عبرى ربما كان معناه "رجل" وهو ابن عوبيد وأبو داود وابن ابن راعوث وبوعز (راعوث ٤ : ١٧ - ٢٢، متى ١ : ٥) وأبو ثمانية بنين منهم داود (١ صموئيل ١٦ : ١٠، ١٧ : ١٢) أو سبعة بنين لهم نسل (أخبار الأيام الأول ٢ : ١٥) وكان له بتان من زوجة غير أم داود (أخبار الأيام الأول ٢ : ١٦) وفى كنيسة المهد فى بيت لحم حائط من الفسيفساء يرجع تاريخه إلى القرن الثانى عشر رسمت عليه شجرة يسى وفروعها (قاموس الكتاب المقدس ص ١٠٦٤ - ١٠٦٥) وشجرة يسى إشارة إلى نسب المسيح وأنه من نسل يسى والد (داود) فالمسيح من نسل داود.

فالعهد بإبراهيم - منبت الشعب المختار وجد المسيح - خطا الله به خطوة جديدة فى سبيل العهد فلاح لهم العهد - كما يقولون - على صورة وعد سيتحقق فى شعب ويقتضى من هذا الشعب الإيمان الذى هو جواب الإنسان لدعوة الله^(١).

ويظهر فى هذا العصر أن الله وعد إبراهيم بالبركة فى نسله وبالإخلاص لكل شعوب الأرض من نسله (وقال الرب لإبرام^(٢) اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أريك. فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك. وتكون بركة وأبارك مباركك ولا عنك ألعنه. وتبارك فيك جميع الأمم^(٣)). يقول باركلى (وعد الله إبراهيم وعداً عظيماً أن يجعل منه أمة عظيمة وأن كل أمم الأرض تتبارك به).

والحقيقة أن الأرض كلها أعطيت له ميراثاً ولقد أعطى الوعد لإبراهيم بسبب إيمانه وثقته فى الرب لا بسبب أفضاله التى جمعها من أعماله الصالحة ولا بسبب أى مجهود بذله^(٤) ويقول فيكتور هيكو: منح الله لإبراهيم وعده الأول بخلاصه لكل شعوب الأرض كما منحه عهداً بأن يكون أميناً معه إلى الأبد^(٥).

قطع الله العهد مع إبراهيم فى حفله رسمية، فأخذ إبراهيم - كما يصورون - عجلة وعنزا وشطريهما شطرين، ووضع كل شطر قبالة صاحبه، تاركاً بينهما ممراً، ولما صارت الشمس إلى المغرب وقع سبات عليه، فساوره رعب شديد، واكتنفه ظلمة دامسة بينهما مشعل نار يسير بين تلك القطع، مشعل النار هذا هو الله يقطع عهداً مع إبراهيم^(٦).

وإليك نص العهد الذى عقده الله مع إبراهيم كما جاء فى سفر التكوين :-
صار كلام الرب إلى أبرام فى الرؤيا قائلاً: لا تخف يا أبرام أنا ترس لك أجرك كثير جداً. فقال أبرام أيها السيد الرب ماذا تعطينى وأنا ماضٍ عقيماً ومالك بيتى هو

(١) تاريخ شعب العهد القديم ص ١٠٢.

(٢) أحد أسماء إبراهيم عليه السلام ومعناه "الأب الرفيع" أو "الأب المتكرم" قاموس الكتاب المقدس ص ٩.

(٣) تكوين ١٢ : ١ - ٣.

(٤) تفسير العهد الجديد (رسالة رومية) ص ٨٢.

(٥) فيكتور هيكو: تاريخ الخلاص ص ١٥ ترجمة روفائيل صبحى.

(٦) تاريخ شعب العهد القديم ص ١٠٢.

أليعازر الدمشقي، وقال أبرام أيضاً إنك لم تعطني نسلاً وهو ذا ابن بيتي وارث لي. فإذا كلام الرب إليه قائلاً لا يرثك هذا بل الذي يخرج من أحشائك هو يرثك. ثم أخرجه إلى خارج وقال انظر إلى السماء وعُد النجوم إن استطعت أن تعدّها. وقال له هكذا يكون نسلك. فأمن بالرب فحسبه له برّاً وقال له أنا الرب الذي أخرجك من أورالكلدانيين^(١) ليعطيك هذه الأرض لترثها. فقال أيها السيد الرب بماذا أعلم أنني أرثها. فقال له خذ لي عجلة ثلاثية وعزّه ثلاثية وكبشاً ثلاثياً ويمامة وحمامة. فأخذ هذه كلها وشقّها من الوسط وجعل شق كل واحد مقابل صاحبه، وأما الطير فلم يشقه. فنزلت الجوارح على الجثث وكان أبرام يزجرها، ولما صارت الشمس إلى المغيب وقع على أبرام سبات. وإذا رعبة مظلمة واقعة عليه. فقال لأبرام اعلم يقينا أن نسلك سيكون غريباً في أرض ليست لهم ويستعبدون لهم فيذلّونهم أربع مئة سنة. ثم الأمة التي يستعبدون لها أنا أدّينها، وبعد ذلك يخرجون بأملك جزيلة، وأما أنت فتمضي إلى آبائك بسلام وتدفن بشيعة صالحة. وفي الجيل الرابع يرجعون إلى ههنا لأن ذنب الأموريين ليس إلى الآن كاملاً. ثم غابت الشمس فصارت العتمة وإذا تنور دخان ومصباح نار يجوز بين تلك القطع.

في ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقاً قائلاً لنسلك أعطى هذه الأرض من مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات^(٢).

ويلاحظ أن العهد قد تم كما ظهر بين شقى الذبيحة، لأنه كانت العادة أن يدخل الخصمان، أحدهما عند رأس الذبيحة، والثاني عند ذيلها، ويلتقيان معا وسط الذبيحة، وعلى دمها السائل. وهناك يتم العهد. ولهذا سمي إجراء التعاهد (قطع العهد) لأنه يتم على ذبيحة مقطوعة، وفي هذا يقول آساف (اجمعوا إلى اتقيائي القاطعين عهدي على ذبيحته^(٣)).

(١) أورالكلدانيين: هي مسقط رأس إبراهيم الذي ولد ونشأ فيها ولكنه خرج منها إطاعة لدعوة الرب. ومكان "أور" الآن خرائب تدعى "المغبر" في منتصف المسافة بين بغداد والخليج الفارسي وعلى مسافة عشرة أميال شرقي مجرى نهر الفرات في الزمن الحاضر (قاموس الكتاب المقدس ص ١٢٨).

(٢) سفر التكوين الإصحاح الخامس عشر.

(٣) مزمور ٥٠ : ٥.

(٤) القس صموئيل جيبب: الخلاص في مفهومه الكتابي والتطبيقي ص ٣٣.

ويرد فى مكان آخر من الكتاب أن الله ثبت العهد فوضع الختان علامة له^(١) وقد مارس إبراهيم الختان كعلامة للعهد مع الرب^(٢).

"وقال الله لإبراهيم وأما أنت فتحفظ عهدى أنت ونسلك من بعدك فى أجيالهم. هذا هو عهدى الذى تحفظونه بينى وبينكم وبين نسلك من بعدك يخن منكم كل ذكر. فتختنون فى لحم غرلتكم فيكون علامة عهد بينى وبينكم. ابن ثمانية أيام يخن منكم كل ذكر فى أجيالكم.

وليد البيت والمبتاع بفضة من كل ابن غريب ليس من نسلك. يخن ختاناً وليد بيتك والمبتاع بفضتك فيكون عهدى فى لحمكم عهداً أبدياً، وأما الذكر الأغلف الذى لا يخن فى لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها. إنه قد نكث عهدى^(٣).

تم العهد بين الله وإبراهيم عندما أطاع إبراهيم الله وآمن بقوله :-

١ - فى الخروج من أورالكداينين مع أسرته إلى المكان الذى دعاه الله إليه (تكوين ١٥ : ٧).

٢ - فى تصديقه وعد الله بأن شخصاً من أحشائه يرثه (تكوين ١٥ : ٤) ^(٤).

آمن إبراهيم بالإله الواحد مالك السماء والأرض وإلهما (تكوين ١٤ : ٢٢) ٢٤ : ٣ وديان الأمم وكل الأرض (تكوين ١٥ : ١٤ ، ١٨ : ٢٥) والذى كل قوات الطبيعة طوع أمره ولا يستحيل عليه شئ (تكوين ١٨ : ١٤ ، ١٩ : ٢٤ ، ٢٠ : ١٧ ، ١٨) وهو الإله العلى المرتفع (تكوين ١٤ : ٢٢) وهو سرمدى أبدي (تكوين ٢١ : ٣٣) ولم يكن الله لإبراهيم الإله الواحد فحسب بل كانت لإبراهيم علاقة شخصية وشركة روحية قوية (تكوين ٢٤ : ١٤) ولذلك نال إبراهيم لقب " خليل الله " ^(٥).

(١) تاريخ شعب العهد القديم ص ١٠٢.

(٢) قاموس الكتاب المقدس ص ١١.

(٣) تكوين ١٧ : ٩ - ١٤.

(٤) الخلاص فى مفهومه الكتابى والتطبيقات ص ٣٣.

(٥) قاموس الكتاب المقدس ص ١١. ولقد ذكر لقب " خليل الله " فى الكتاب المقدس ثلاث مرات فى (أخبار الأيام الثانى ٢٠ : ٧ (ألسنت أنت إلهنا الذى طردت سكان هذه الأرض من أمام شعبك إسرائيل وأعطيها لنسل إبراهيم خليلك إلى الأبد) وفى سفر إشعياء ٤١ : ٨ (وأما أنت يا إسرائيل عبدى يا يعقوب الذى اخترته نسل إبراهيم خليلى) وفى رسالة يعقوب ٢ : ٢٣ (وتم الكتاب القائل قامن إبراهيم بالله فحسب له براً ودعى خليل الله).

"وكان إيمان إبراهيم بالله مبعث الإيمان بالله فى الشعب المختار وبذلك تجاوزت دعوته شخصه فكان رأس شعوب كثيرة حملت وديعة الإيمان بالله الواحد وتناقلتها جيلاً بعد جيل حتى المسيح الذى كشف لنا عما يتضمن من كنوز وغنى... وقد سمع إبراهيم الله يقول له يوماً "أصير نسلك كتراب الأرض حتى إذا استطاع أحد أن يعد تراب الأرض فنسلك أيضاً يعد"^(١) هذا الكلام هو الآن وعد ليس إلا"^(٢).

ولم يكتف الله من إبراهيم بهذا الإيمان والسخاء الذى رافقه - كما يصورون - بل أراد أن يسمو به إلى الذروة حيث يفتح الإيمان بالله حبا وحيث تفوق الثقة بالله كل فطنه بشرية. وقد سرد لنا الكتاب مراحل هذا الارتقاء إلى الذروة :-

المرحلة الأولى: إسماعيل.

ومرت السنون وكرر الله وعده لإبراهيم بالنسل والعقبى إلا أن إبراهيم لا يرى حتى الآن من مجال لتحقيق الوعد فأراد أن يتجاوز مع قدرة الله، وكان لسارة جارية اسمها هاجر فأعطتها لإبراهيم وولدت هاجر إسماعيل. هو العهد يتحقق وها هى العقبى المرجوة فما أقدر الله وما أصدق؟ !!!
لقد أحس إبراهيم بالإيمان به"^(٣).

وفى نظر علماء المسيحية: "أن الله لن يتوقف بإبراهيم هنا فولد الجارية لن يرث العهد، ويسمو الله بإيمان إبراهيم إلى أعلى، وتمر السنون ويصبح الإيمان أشق، ومع ذلك فقد رضى إبراهيم بما أراد فازداد بذلك إيمانه"^(٤).

وهنا تأتى المرحلة الثانية: إسحاق

"ورزقت سارة أخيراً ابناً وبذلك نال إبراهيم مكافأة إيمانه وكان يفخر بابنه ويزهو ويقول فى نفسه وهو يراه يكبر بأنه قد صارت له الآن ذرية تعقبه على رأس العشيرة، وإذا بالله يفاجئه بالتضحية الكبرى وهى الأمر بذبح ابنه"^(٥).

(١) تكوين ١٣ : ١٦.

(٢) تاريخ شعب العهد القديم ص ١٠٣، ١٠٤..

(٣) المصدر السابق ص ١٠٥.

(٤) نفس المصدر ونفس الصفحة.

(٥) نفس المصدر ونفس الصفحة.

وهذا الابن فى نظر علماء المسيحية هو إسحاق ويستدلون بما جاء فى سفر التكوين عن هذا الأمر.

يقول سفر التكوين (وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم. فقال له :

يا إبراهيم فقال هأنذا، فقال: خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحاق واذهب إلى أرض المريا^(١) وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذى أقول لك)^(٢).

يقول الأب / ديلى: "إرادتان لله تتنازعان: إسحاق هو الوعد بالعقبى، وإسحاق هو الذبيحة المطلوبة. ويرتقى إيمان إبراهيم مع ذلك إلى حيث يسمو به الله فيرضى مرة أخرى (فبكر إبراهيم صباحاً وشد على حمارة وأخذ اثنين من غلماناه معه وإسحاق ابنه وشقق حطباً لمحرقة وقام وذهب إلى الموضع الذى قال له الله"^(٣) أصبح الآن إيمانه رجاء وحباً وبذلك بلغ الذروة التى دعاه الله إلى ارتقائها.

ويأتيه الله أخيراً بالحل للغز وبالخاتمة للعذاب (فقال الله لا تمد يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئاً. لأنى الآن علمت أنك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عنى. فرفع إبراهيم عينيه وإذا كبش وراءه ممسكاً فى الغابة بقرنيه. فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضاً عن ابنه)^(٤).

وبالوقت ذاته سما إبراهيم بإيمانه إلى تلك الذروة التى هى حقيقة بأن يرتقى جد المسيح إليها^(٥).

أما عن ثواب الإيمان الذى بلغ الذروة والارتقاء :-

فيقول عنه الأب / ديلى (ثواب الإيمان الوعد العظيم، سبق الله فوعد إبراهيم بأرض يعطيه إياها، وقد قال له بعد انفصاله عن لوط: جميع الأرض التى أنت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد^(٦) فالوعد بالذرية كان أساس إيمان إبراهيم وقوام

(١) يقول قاموس الكتاب المقدس عن أرض المريا (هى أرض أوصى إبراهيم أن يصعد إليها وقدم إسحاق ابنه على أكمة منها وهى منطقة فى اورشليم) ص ٨٥٩.

(٢) تكوين ٢٢: ١، ٢.

(٣) تكوين ٢٢: ٣.

(٤) تكوين ٢٢: ١٢ / ١٣.

(٥) تاريخ شعب العهد القديم ص ١٠٦.

(٦) تكوين ١٣: ١٥.

حياته الدينية ، وإذا بوعد الله يتضمن بذبيحة إسحاق عنصراً جديداً يوسع فى الوعد إلى أقصى حد إلى اللانهاية (ويتبارك فى نسلك جميع أمم الأرض من أجل أنك سمعت لقولى)^(١).

لا يخلو هذا الوعد من غموض إلا أن الله ولا شك قد كشف يومئذ لإبراهيم عنه ذيل الستار فاستطاع المسيح أن يقول يوماً: (إبراهيم أبوكم ابتهج حتى يرى يومى فرأى وفرح)^{(٢)(٣)}.

"لهذا جاء المسيح - كما يدعون - وارثاً للوعد وصار كل المؤمنين به أبناء إبراهيم الروحيين

"اعلموا إذا أن الذين هم من الإيمان أولئك هم بنو إبراهيم"^(٤).

"وأما المواعيد فقيلت فى إبراهيم وفى نسله. لا يقول وفى الأنسال كأنه عن كثيرين بل كأنه عن واحد وفى نسلك الذى هو المسيح"^(٥) لتصير بركة إبراهيم للأمم فى المسيح يسوع لينالوا بالإيمان موعد الروح^(٦) وأن تقدمه إسحاق - كما يقولون - ذبيحة كانت رمزاً للفداء^(٧).



والعلامات البارزة فى هذه الحقبة من مراحل عهد النعمة - والتى تستفاد من كلام المسيحيين ما يلى :-

١ - أن الله وعد إبراهيم نتيجة لإيمانه بأن يبارك نسله. والبركة فى نسله إنما تقع خاصة فى نسل إسحاق - كما يعتقدون - الذى هو له حق إرث عهد الله لإبراهيم بهذه البركة وذلك لأن ولد الجارية الذى هو إسماعيل لن يرث العهد، ولكى يؤكد

(١) تكوين ٢٢ : ١٨.

(٢) يوحنا ٨ : ٥٦.

(٣) تاريخ شعب العهد القديم ص ١٠٦.

(٤) غلاطية ٣ : ٧ - ٩.

(٥) غلاطية ٣ : ١٦.

(٦) غلاطية ٣ : ١٤.

(٧) الدين المسيحي للمرحلة الثانوية سنة ١٩٦٦ ص ٣٧.

الله أن الإرث فى البركة لإسحاق وأن الخلاص إنما يكون فى نسله الذى هو المسيح (إبراهيم أبوكم ابتهج حتى يرى يومى فرأى وفرح) أمر الله إبراهيم بذبح ابنه إسحاق ولكن الله فداه فكان هذا الفداء علامة على طريق الخلاص الذى يتم بالمسيح.

٢ - لقد صاحب قطع العهد مع إبراهيم بعض الطقوس الدينية من شطر بعض الحيوانات.... ولقد ثبت الله العهد مع إبراهيم فأعطاه الختان حتى يميز نسله الذى يرث الأرض والعهد عن باقى الأجناس التى لا تختتن.

ولنا وقفة مع هذه المرحلة من عهد النعمة:-

أولاً: أول ما يلفت الأنظار أن سبب إعطاء الله العهد لإبراهيم هو إيمانه بالله سبحانه وتعالى الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له شريك فى الملك ولم تكن له صاحبة ولا ولد. معنى ذلك أنه إذا انتفى هذا الإيمان عند قوم فإنهم ولاشك ليسوا هم المعهود إليهم بالخير والبركة، والحال الآن وما عليه المسيحيون من إثبات الألوهية لغير الله من المسيح والروح القدس مما يضطروننا إلى القول بأنهم ليسوا هم المعهود إليهم بالخير والبركة والكثرة، أى أنه لا يوجد لديهم الإيمان بالإله الواحد الذى يؤهلهم لأن يكونوا ورثة لعهد إبراهيم الذى أعطاه الله له بسبب الإيمان به وبوحدانيته.

ثانياً: بالنسبة لمن له حق إرث العهد. الاعتقاد السائد لدى اليهود والمسيحيين أن إسحاق ونسله هم الذين له حق الإرث لأنه نال البركة ولأنه هو الذبيح.

❖ إن الواقع التاريخي يحدثنا بأن إسحاق هو الابن الثانى لإبراهيم بعد إسماعيل أى أن إسحاق ليس هو البكر لإبراهيم.

ذلك لأن للبكرية امتيازات - كما يشهد بذلك الكتاب المقدس^(١) - يمتاز بها البكر عن غيره من أخوته:

(١) ولا أدل على ذلك مما ورد فى سفر التكوين ادعاء أن يعقوب حاول شراء بكورة أخيه (عيسو) (فقال يعقوب لعيسو بعنى اليوم بكورتك) تكوين ٢٥ : ٣١.

منها: نيابة البكر عن أبيه في البيت حين غيابه.

ومنها: اختصاصه بالبركة على شرط أن يكون مستحقاً لها وإلا فتعطى لغيره كما حدث لعيسو ورأبين.

ومنها: أن يعطى نصيباً واحداً زائداً عن إخوته، ويدل على ذلك ما جاء في سفر التثنية "إذا كان لرجل امرأتان إحداهما محبوبة والأخرى مكروهة فولدتا له بنين المحبوبة والمكروهة. فإن كان الابن البكر للمكروهة فيوم يقسم لبنيه ما كان له لا يحل له أن يقدم ابن المحبوبة بكرًا على ابن المكروهة البكر. بل يعرف ابن المكروهة بكرًا ليعطيه نصيب اثنين من كل ما يوجد عنده لأنه أول قدرته له حق البكورية"^(١).

ومنها: وهو أهمها وأعظمها اعتباراً - عندهم -: أن البكر كان مكرساً للرب^(٢) ويدل على ذلك ما جاء في سفر الخروج ضمن وصايا الرب لموسى (لا تسب الله. ولا تلعن رئيساً في شعبك. لا تؤخر ملء بيدك وقطر معصرتك. وأبكار بنيك تعطيني)^(٣).

وكان للبكر من أولاد الملوك الحق أن يتبوا أريكة الملك بعد أبيه ويدل عليه ما جاء في أخبار الأيام الثاني: "وأما المملكة فأعطاهم ليهورام لأنه البكر"^(٤).

(١) تثنية ٢١: ١٥ - ١٧.

(٢) كانت العادة عند اليهود أن يكرسوا كل بكر لخدمة الرب ويدل على ذلك ما جاء في سفر الخروج "أنك تقدم للرب كل فاتح رحم وكل بكر من نتاج البهائم التي تكون لك. الذكور للرب. ولكن كل بكر حمار تغديه بشاة. وإن لم تغده فتكسر عنقه. وكل بكر إنسان من أولادك تغديه" خروج ١٣: ١٢ / ١٣، ٣٤: ١٩ وهناك سبب آخر وهو أنهم أمروا بذلك ليتذكروا قتل الله لأبكار المصريين وإبقائه على أبكارهم فنسخ حكم هذه العادة منذ تعيين اللاويين (أبناء لاوى الابن الثالث ليعقوب من ليثة) فصار يستعاض عن كل بكر بلاوى، ولما عدوا اللاويين زاد عدد الأبكار ٢٧٣ ذكراً عن عددهم فلما هم العبرانيون بدراهم عن كل رأس خمسة شواقل من الفضة (نحو نصف جنيه إنجليزي). وأما البكر من البهائم فكان مكرساً أيضاً لخدمة الرب. لا يفك ولا يبدل إلا إذا كان من الحيوانات النجسة حسب الشريعة وأراد صاحبه فكه. وإذا لم يرد بيع أو قتل أو بدل "خروج ١٣: ١٣ لاويين ٢٧: ٢٧. راجع قاموس الكتاب المقدس ص ١٨٦.

(٣) خروج ٢٢: ٢٩.

(٤) أخبار الأيام الثاني ٢١: ٣.

على أن ذلك لم يكن مطرداً فإن سليمان ويهوآحازر وأبيا، خلفوا آباءهم فى الملك ولم يكونوا أبكاراً^(١).

ولما كانت البكورية أمراً ذا شأن واعتبار عند اليهود فإنهم كانوا يلقبون كل ما كان كبير الأهمية بالبكر ولذا جاء ذكر البكر^(٢) وبكر من الأموات^(٣) والابن الوحيد فى ألقاب المسيح^(٤).

والسؤال القائم الآن: هل إسماعيل الابن البكر لإبراهيم لا يستحق البركة فيعطى إرث العهد لإسحاق بدلاً منه؟

والجواب من الكتاب المقدس: أن الله بارك إسماعيل: "وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه هأنا أباركه وأثمه وأكثره كثيراً جداً. اثنى عشر رئيساً يلد وأجعله أمة كبيرة"^(٥) معنى ذلك أنه مستحق للبركة فباركه الله، وإذا كان إسماعيل يستحق بركة الله، والله باركه فإنه أولى من أخيه فى إرث العهد الذى قطعه الله مع إبراهيم، ذلك لأنه هو البكر لإبراهيم.

قد يقال: إن إرث العهد شىء والبركة شىء آخر.

فإننا نقول: إن عهد الله لإبراهيم عبارة عن أن الله وعده بأن يبارك نسله، وأن نسله يكثر ويثمر كثرة كبيرة حتى تكون له السيادة على الأرض وعلى جميع الأمم، فإذا كان الله قد بارك إسماعيل ووعد بالبركة فى نسله فهو أولى بإرث العهد من إسحاق الذى هو الابن الثانى لإبراهيم.

قد يقال أيضاً: إن إسماعيل ابن الجارية بينما إسحاق ولد سارة التى هى زوجة إبراهيم.

(١) الملوك الثانى ٢٣ : ٣١، وأخبار الأيام الأول ٣ : ١٤، أخبار الأيام الثانى ١١ : ١٨ - ٢٠.

(٢) (الذى سبق فعرّفهم سبق فعيّنتهم ليكونوا مشابهيّن صورة ابنه ليكون هو بكرًا بين أخوة كثيرين) رومية ٨ : ٢٩.

(٣) (الذى هو البداءة بكر من الأموات" كولوسى ١ : ١٨).

(٤) قاموس الكتاب المقدس ص ١٨٧.

(٥) تكوين ١٧ : ٢٠.

نقول: إنه لا اعتبار لمثل هذا القول بجانب الاعتبار للبكورية، ويدل على ذلك ما جاء فى سفر التثنية فى النص الذى أشرنا إليه من قبل، الذى يدل على أنه لو كان للرجل امرأتان إحداهما مكروهة والأخرى محبوبة ثم كانت البكورة لابن المكروهة فإنه يعطى مما يملك والده نصيب اثنين من كل ما يوجد عنده، أو يعطى ضعف ما يأخذ الابن الثانى.

فإذا كانت بكورة المكروهة لها نصيب اثنين مما يملك الرجل - أى لا يكون كره الرجل لأمه سبباً فى نقض حق البكورة - فإن إسماعيل الذى هو بكر إبراهيم، وأمه ليست مكروهة بالنسبة لإبراهيم، بدليل أن سارة حين قالت لإبراهيم "اطرد هذه الجارية وابنها"^(١) فقبح الكلام جداً فى عينى إبراهيم لسبب ابنه "أى أن كونه من ابن الجارية لا يرفع عنه حقه فى البكورة، بمعنى أنه أحق من أخيه فى إرث العهد، فإذا كانت كراهة الزوج لزوجته لا ترفع حق البكورة فكذلك أيضاً كون البكر من جارية لا يرفع أيضاً حق البكورة.

❖ ولكنهم يقولون: إن الله ثبت إرث العهد لإسحاق بأن أمر إبراهيم بأن يأخذ إسحاق فيذبحه لكن الله فداه، فكان عمل إبراهيم هذا سبباً فى ازدياد الثقة والإيمان الذى هو سبب العهد الذى أعطاه الله له، وهذا العمل أيضاً أعطى للعهد صورته النهائية أى جعل ذبح إسحاق علامة على أنه وارث العهد والذى من نسله يكون الفداء للبشر ويكون خلاصهم من خطاياهم، فكان هذا الفداء الذى فدى الله به إسحاق علامة على أن الفداء سيكون من نسله، أى أنه وارث العهد.

والسؤال الوارد الآن: هل إسحاق فعلاً هو الذبيح؟

كما قلنا سابقاً يعتقد اليهود والنصارى أن الذبيح هو إسحاق، ويستدلون بما جاء فى سفر التكوين (أن الله امتحن إبراهيم. فقال له يا إبراهيم خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحاق^(٢)..) ونحن نقول إنه من خلال النصوص التوراتية نفسها نستطيع أن نؤكد أنه يستحيل أن يكون الذبيح هو إسحاق، بدليل ما جاء فى الفقرة التى

(١) تكوين ٢١: ١٠ / ١١.

(٢) تكوين ٢٢: ٢.

استشهد بها اليهود والنصارى على كون الذبيح إسحاق (ابن إبراهيم الوحيد)؛ ذلك أن إسحاق لم يكن وحيداً، حيث إنه ولد وكان عمر إسماعيل حوالى أربع عشرة سنة، ويدل عليه ما جاء فى سفر التكوين فى الإصحاح السادس عشر (فولدت هاجر لأبرام ابناً. ودعا أبرام اسم ابنه الذى ولدته هاجر إسماعيل. كان أبرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل لأبرام)^(١).

أى أن هاجر ولدت إسماعيل وكان عمر إبراهيم ستاً وثمانين سنة، بينما كان عمره وقت أن ولدت سارة إسحاق كما جاء فى الإصحاح الحادى والعشرين (وكان إبراهيم ابن مئة سنة حين ولد له إسحاق ابنه)^(٢).

فيستحيل من خلال هذه النصوص أن يكون إسحاق هو الوحيد لأنه تبين منها أن عمر إسماعيل وقت أن ولدت سارة إسحاق أربع عشرة سنة فلا يمكن بحال من الأحوال أن يكون إسحاق هو الوحيد.

وأيضاً يدل على ذلك: أن سفر التكوين يذكر أن إسماعيل ختن فى الثالثة عشرة من عمره وذلك حسب ما جاء فى الإصحاح السابع عشر (فأخذ إبراهيم إسماعيل ابنه وجميع ولدان بيته وجميع المتباعين بفضته كل ذكر من أهل بيت إبراهيم وختن لحم غرلتهم فى ذلك اليوم عينه كما كلمه الله، وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين ختن لحم غرلته. وكان إسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن فى لحم غرلته^(٣) وفى نفس هذا اليوم الذى اختتن فيه إسماعيل وعمره ثلاث عشرة سنة جاءت إبراهيم البشرى بأن زوجه سارة ستنجب له مولوداً هو إسحاق).

فعمر إبراهيم وقت أن ختن إسماعيل تسع وتسعون سنة، وكان إسماعيل يبلغ من العمر ثلاث عشرة سنة، بينما ولدت سارة لإبراهيم إسحاق وعمره مائة سنة، وعليه فلا يمكن أن يكون إسحاق هو الوحيد فليس هو الذبيح. يقول الأستاذ/ حافظ بن عياد: "ويتأكد من خلال هذا كله أن كلمة (إسحاق) قد أضيفت إلى النص

(١) تكوين ١٦: ١٥ ، ١٦.

(٢) تكوين ٢١: ٥.

(٣) تكوين ١٧: ٢٣ / ٢٤.

الأصلى من الفقرة الثانية فى الإصحاح الثانى والعشرين من سفر التكوين^(١) لتنفى الذبح عن إسماعيل أبى العرب ولإسناد ذلك الشرف لإسحاق، وقد غفل صاحب الإضافة تلك عن التناقض الذى تصبح عليه بقية النصوص^(٢) والنتيجة الطبيعية أنه إذا لم يكن إسحاق هو الذبيح لأنه لم يكن وحيداً وقت أن أمر الله إبراهيم بذبحه فلا بد وأن يكون هو إسماعيل لأنه كان وحيداً قبل أن يولد لإبراهيم إسحاق.

وعليه فإن كل الدلائل تشير إلى أن إرث العهد والبركة لإسماعيل حيث إنه كان البكر لإبراهيم وحيث إنه هو الذبيح الذى وصف بأنه (وحيد إبراهيم).

وحيث إن نصوص التوراة تشير إلى أن الله وعد هاجر بالكثرة فى نسلها فقال لها "تكثريراً أكثر نسلك فلا يعد من الكثرة"^(٣).

ووعدها بأن يجعل نسلها أمة كبيرة وعظيمة فقال لها (قومى احملى الغلام وشدى يدك به. لأننى سأجعله أمة عظيمة)^(٤).

ووعده الله إبراهيم بأن يجعل من نسل إسماعيل أمة كبيرة بعد أن بارك إسماعيل فقال له "وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه. ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً. اثنى عشر رئيساً يلد وأجعله أمة كبيرة"^(٥).

فكل هذه الحثيات ترجح كفة إسماعيل وتجعله هو المقصود بالعهد الذى وعده الله لنسل إبراهيم، ومن المجافاة للحق القول بخلاف ذلك.

وسنكتفى بالإشارة إلى أن المقصود بنسل إسماعيل الذين يرثون العهد هم العرب وهو إشارة إلى النبى العربى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.



ثالثاً: إن الله ثبت العهد الذى أعطاه لإبراهيم بالختان وجعله علامة للنسل الذى يرث العهد.

(١) يشير بذلك إلى قول الله لإبراهيم - كما فى سفر التكوين - "خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحاق".

(٢) مقال الأستاذ/ حافظ بن عياد فى مجلة منار الإسلام عدد ذى الحجة ١٤٠٣ هـ ص ٣٤.

(٣) تكوين ١٦ : ١٠.

(٤) تكوين ٢١ : ١٨.

(٥) تكوين ١٧ : ٢٠.

والختان أولاً - هو التطهير، وهو من الشعائر المعروفة في اليهودية، وهو قطع لحم غرلة كل ذكر ابن ثمانية أيام، وقد جعل هذا الطقس علامة عهد بين الله وإبراهيم الذي اختن هو وأهل بيته وعبيده الذكور، وكان الختان يقوم به عادة رب البيت أو أحد العبرانيين، وأحياناً الأم^(١)، وقد ختن إبراهيم وهو في التاسعة والتسعين، ثم تجددت سنة الختان لموسى^(٢) ففضى أن لا يأكل الفصح رجل أغرل، وكان اليهود يحافظون كل المحافظة على هذه السنة وقد أهملوها أثناء رحلتهم في البرية، على أنه عند دخول الشعب أرض كنعان صنع يشوع سكاكين من الصوان وختن الشعب كله^(٣) وكان مفروضاً على كل الغرباء الذين يقبلون الدخول في اليهودية أن يخضعوا لهذا الغرض مهما تكن أعمارهم^(٤).

ومن الشرائع اليهودية أنه لا يجوز أن تتزوج المرأة برجل أغلف أى غير مختن ويعتبر هذا العمل عاراً لمن يفعله. ففي سفر التكوين (لا نستطيع أن نفعل هذا الأمر أن نعطي أختنا لرجل أغلف، لأنه عار لنا، غير أننا بهذا نواتيكم. إن صرتم مثلنا بختنكم كل ذكر نعطيكم بناتنا ونأخذ لنا بناتكم ونسكن معكم ونصير شعباً واحداً. وإن لم تسمعوا لنا أن تحتنوا نأخذ ابنتنا ونمضى)^(٥).

وكذلك لا يجوز للضيف أن يتناول من طعام الفصح إلا إذا اختن (وإذا نزل عندكم نزيل وصنع فصحاءاً للرب فليختن منه كل ذكر ثم يتقدم ليصنعه. فيكون كمولود الأرض، وأما كل أغلف فلا يأكل منه، تكون شريعة واحدة لمولود الأرض

(١) خروج ٤: ٢٥، ٢٦ (وحدث في الطريق في المنزل أن الرب التقاه - أى موسى - وطالب أن يقتله. فأخذت صفورة صوّاة وقطعت غرلة ابنها ومست رجله فقالت إنك عريس دم لى. فانفك عنه. حينئذ قالت عريس دم من أجل الختان "وفي قاموس الكتاب المقدس" تعليق على هذه الفقرة يقول (وحسب الظاهر أن الرب طلب قتل موسى لأنه لم يختن ابنه وعرفت صفورة ذلك فأسرعت وختنته بصوانه. ويظهر من هذه القصة أن سنة الختان التي أعطيت لإبراهيم كانت مطلوبة من كل نسله) ص ٩٣١.

(٢) لاويين ١٢: ١ - ٣ (وكلم الرب موسى قائلاً كلم بنى إسرائيل قائلاً. إذا حبلت امرأة وولدت ذكراً تكون نجسة سبعة أيام. كما في أيام طمث علتها تكون نجسة. وفي اليوم الثامن يختن لحم غرلته).

(٣) يشوع ٥: ٢ - ٩ "في ذلك الوقت قال الرب ليشوع اصنع لنفسك سكاكين من صوان وعد فاختن بنى إسرائيل ثانية... إلى آخره".

(٤) قاموس الكتاب المقدس ص ٣٣٧.

(٥) تكوين ٣٤: ١٤ - ١٧.

وللنزيل النازل بينكم. ففعل جميع بنى إسرائيل كما أمر الرب موسى وهارون. هكذا فعلوا^(١).

هذا هو الختان سنة شرعية جعله الله علامة على تثبيت العهد، وعلامة على النسل الذى يرث هذا العهد، ثم إنه أيضاً لا بد لمن يدخل فى الديانة اليهودية أن يختتن ولا يجوز الزواج ولا الأكل مع غير المختتنين.

ولنا أن نقول: إنه إذا كان الختان علامة على تثبيت العهد فلا بد وأن يحدث أو يقع أو يحصل ممن يعتبرون أنفسهم هم المعنيون أو المقصودون من عهد الله لإبراهيم. وحال المسيحيين الذين يجعلون هذا العهد إشارة إليهم. وما هم عليه من عدم الختان يجعلنا نتساءل: كيف يكون الختان علامة على تثبيت العهد وتؤمنون بأنكم أنتم المقصودون من العهد بينما لم يقع منكم الختان؟

فالمسيحيون يقولون بعدم الختان، أو يفسرونه تفسيراً يخرج به عن معناه الحقيقى. ويقولون بعدم الختان استناداً إلى كلام صدر من فم بطرس وبولس لاعلى كلام صدر من فم المسيح عيسى بن مريم عليه السلام.

والمعروف أن المسيح بين أنه غير ناسخ لشريعة وأحكام التوراة، ومن أحكامها كما تقدم (الختان) فكيف ينسخ؟ بينما المسيح يقول (لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس بل لأكمل)^(٢).

ثم إن اليهود الذين آمنوا بالمسيح دعا بعضهم الأمم من بعد المسيح إلى دين المسيح "وقالوا: إنه ينبغى أن يختنوا ويوصوا بأن يحفظوا ناموس موسى"^(٣).

فرد عليهم بطرس ومن معه من التلاميذ بأن الأمم الداخلة فى المسيحية عليهم أن يلتزموا بالامتناع عن أربعة أمور هى :-

(١) خروج ١٢ : ٤٨ - ٥٠.

(٢) متى ٥ : ١٧.

(٣) أعمال الرسل ١٥ : ٥.

نجاسات الأصنام، والزنا، والمخنوق، والدم^(١).

بمعنى أنه لا عليهم أن يلتزموا بالاختان، وما عليهم من واجبات إلا أن يمتنعوا عن تلك الأمور الأربعة.

ثم جاء بولس فيبين أن الختان ليس قطع الغرلة من الجسد بل طهارة القلب من الحقد والحسد وما شابه ذلك وقال للعلماء من بنى إسرائيل: ما نفع قطع قطعة من الجسد والقلب بعيد عن رحمة الله^(٢).

ففى الإصحاح الثانى من رسالته إلى أهل رومية يخاطب العالم اليهودى بقوله: "هوذا أنت تسمى يهودياً وتتكل على الناموس وتفتخر بالله وتعرف مشيئته وتميز الأمور المتخالفة متعلماً من الناموس وتثق أنك قائد للعميان ونور للذين فى الظلمة ومهذب للأغبياء ومعلم للأطفال ولك صورة العلم والحق فى الناموس. فأنت إذا الذى تعلم غيرك أأنت تعلم نفسك. الذى تركز أن لا يسرق أأنت تسرق؟ الذى تقول أن لا يزنى أأنت زنى؟ الذى تستكره الأوثان أأنت تسرق الهياكل؟ الذى تفتخر بالناموس أأنت تعدى الناموس تهين الله؟ لأن اسم الله يجدف عليه بسببكم بين الأمم كما هو مكتوب. فإن الختان ينفع إن عملت بالناموس. ولكن إن كنت متعدياً الناموس فقد صار ختانك غرلة، إذا إن كان الأغرل يحفظ أحكام الناموس أفما تحسب غرلته ختاناً. وتكون الغرلة التى من الطبيعة وهى تكمل الناموس تدينك أنت الذى فى الكتاب والختان تتعدى الناموس. لأن اليهودى فى الظاهر ليس هو يهودياً ولا الختان الذى فى الظاهر فى اللحم ختاناً. بل اليهودى فى الخفاء هو اليهودى وختان القلب بالروح لا بالكتاب هو الختان الذى مدحه ليس من الناس بل من الله"^(٣).

ونقول إن من الثابت قطعياً أن عيسى عليه السلام - كان مختوناً -.

(ولما تمت ثمانية أيام ليختنوا الصبى سمي يسوع)^(٤).

(١) أعمال الرسل ١٥ : ٢٠

(٢) د/ أحمد السقا فى إحدى تعليقاته على كتاب (على التوراة ٩ للباجى ص ٧١).

(٣) رومية ٢ : ١٧ - ٢٩.

(٤) لوقا ٢ : ٢١.

هذا بالإضافة إلى أن الختان من أحكام التوراة والمسيح بين أنه غير ناقض لأحكام وشرائع التوراة، وإذا كان الأمر كذلك فإن تركه والأمر بتركه إنما هو خروج على أحكام التوراة وخروج على شريعة الله التي تؤمنون بها لأن الله هو المشرع فإذا جاء إنسان مهما تكن مرتبته في الديانة وشرع أمراً أو نهى عن شرع فإنما هو مردود عليه. وأما تفسير الختان بأنه هو طهارة القلب فإن الرد عليه كما يلي :-

أولاً: أنهم كذبوا على الله حيث قالوا إنما أراد الله بهذا الحكم "إزالة غلوفية القلب" ولو كان ذلك حقاً لبينه موسى للناس ولما جاءهم بالختان ولما فعله ولما فعل ييحيى^(١) وعيسى وسائر الأنبياء الذين حكموا بالتوراة ولم يزالوا يختنون ويأمرون بالختان إلى زمان المسيح، ثم إن المسيح لم ينه عنه ولا أمر بتركه فهذا على الله ورسله كذب صراح.

ثانياً: أنهم سفهوا أحكام الله ورسل الله حيث قالوا "لا منفعة في ذلك"^(٢).

مع أن الله قد حكم به وشرعه وبلغ ذلك أنبيأؤه ورسله وعلموه الناس فكيف يجوز على الله وعلى أنبيائه أن يتعبدوا الناس بحكم لا فائدة له لا في الدنيا ولا في الآخرة؟ فهذا غاية الافتراء على الله وعلى رسله، ثم يلزمهم على ذلك أن يكونوا عابثين في أفعالهم، وأن وجود والشرائع وعدمها واحدة، وكذلك إرسال الرسل وإنزال الكتب^(٣).

(١) (وفي اليوم الثامن جاءوا ليختنوا الصبي وسموه باسم أبيه زكريا فأجابته أمه وقالت لا بل يسمى يوحنا) لوقا : ١ : ٥٩ - ٦٠.

(٢) وذلك إشارة إلى قول بولس (هأنذا بولس أقول لكم إنه إن اختتمتم لا ينفعكم المسيح شيئاً) غلاطية ٥ : ٢، وأيضاً قوله "لأنه في المسيح يسوع ليس الختان ينفع شيئاً ولا الغرلة بل الخليقة الجديدة" غلاطية ٦ : ١٥.

(٣) الإمام القرطبي: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص ٤٢٠، ٤٢١. ولقد ذكر بعضاً من فوائد الختان فقال "ثم إننا نبدى فوائد الختان حتى يظهر كذبهم وجهلهم وتوابعهم لكل إنسان، ففي الختان فوائد كثيرة منها: أولاً: أنها عبادة في بدن الإنسان إذا فعلها أثيب وإن تركها عوقب - على القول بوجوبه - ولا فائدة أعظم من ذلك. ثانياً: أنه لا يتأتى مع وجود الغلظة مبالغة في النظافة ومع زوالها يتأتى ذلك. ثالثاً: أنه أئذ في الجماع

وأسرع لحيى شهوة الوقاع، ومع وجودها يكون أبعد للشهوة، وقد تكون الغرلة إذا طالت مكسلة عن الإنزال. رابعاً: أن خروج الماء الدافق من غير غلظة وانزعاجه أشد، فإن الغلظة إذا طالت ربما نقصت من انزعاجه وفترته وإذا كان كذلك وخروج الماء فاتراً قد لا يقع في المحل الذي يتعقد فيه النطفة فلا يتعقد الولد ويكون هذا كالعزل ومقصود الشرع في الغالب: تكثير النسل. فهذه أربع فوائد محققة لا يتصور إنكارها وقد لا يبعد أن يقصد الشرع جميعها أو بعضها، فإذا قد تبين أن النصارى كذبوا على الله وجهلوا شرع الله. (الإعلام بما في دين النصارى من الفساد ص ٤٢١).

ولقد فسر عالم الأديان الفرنسي (شارل جنيير) قول بولس بعدم الختان لأنه رأى أن أهل اليونان غير راضين عنه فقال (وكان بولس على علم بأن عملية الختان لا يرضى عنها أهل اليونان، وأن أغلب أحكام الشريعة اليهودية للحياة العملية لا تتفق مع عاداتهم وأساليب تفكيرهم، فلم يلبث أن آمن بأن تعاليم هذه الشريعة قد نسخها^(١) تعاليم المسيح بل إن هذا المسيح أتى خصيصاً ليبدل عهداً قديماً بعهد جديد^(٢)).

والخلاصة :- أنه إذا كان الختان - كما تقولون - علامة على تثبيت العهد وعلامة على حفظ العهد الذى وعده الله لإبراهيم، وإذا كان الختان علامة مميزة للمعهود إليهم بالبركة بين الأجناس الأخرى فإننا نقول إن هؤلاء المسيحيين الذين منعوا الختان أو نسخوه بغيره ليسوا هم المعهود إليهم بالبركة والنسل الكثير والسيطرة على الأجناس الأخرى، لأن الله قال لإبراهيم ولنسله فى الختان (علامة عهد بينى وبينكم^(٣)) وهم لم يختنوا فإنهم ليسوا هم المعهود إليهم لأن الختان هو علامة العهد. وهذا يجعل ما استنتجناه سابقاً فى التعليق الأول من أن إسماعيل ونسله هم المقصودون بالعهد من حيث الكثرة والبركة هو الأصح وهو الأقرب إلى نصوص التوراة لأن نسل إسماعيل هم الذين يختنون وهم الذين يعتبرون الختان سنة شرعية من سنن أبيهم إبراهيم عليه السلام.

العصر الثالث من عصور عهد النعمة :- ويمتد من موسى إلى المسيح. وكل ما اختص بالعصرين السابقين متضمن فيه، أضيف إليه بأمره تعالى كثيراً من الفرائض السياسية والطقسية كالكهنوت والذبائح وغيرها^(٤).

(١) وهو يشير بذلك إلى ما جاء فى رسالة بولس إلى أهل كولوسى (وبه - أى المسيح - أيضاً ختنتم ختناً غير مصنوع بيد بخلع جسم خطايا البشرية بختان المسيح، مدفونين كولوسى فى المعمودية التى فيها أقمتم أيضاً معه بإيمان عمل الله الذى أقامه من الأموات) كولوسى ٢ : ١١ - ١٢ جاء فى قاموس الكتاب المقدس فى تعليقه على هذا النص (فيوضح منه أن بولس يعلم بأن للمعمودية فى العهد الجديد نفس المكانة التى كانت للختان) ص ٣٣٨.

(٢) المسيحية نشأتها وتطورها ص ١٠٤.

(٣) تكوين ١٧ : ١١.

(٤) علم اللاهوت النظامى ص ٧٦٧.

وعهد هذه المرحلة يعتمد أساساً على قصة خروج موسى والعبرانيين من مصر يقول الأب/ ديلي "غاية الله أن يعقد مع العبرانيين عهداً في سيناء، وكانت الخطوة الأولى في هذا السبيل إخراج العبرانيين من مصر. هذا ما كان على موسى أن يقوم به فيعمل على إقناع فرعون بأن يترك العبرانيين يخرجون، وعلى إقناع العبرانيين بأن يقبلوا بالرحيل عن مصر"^(١).

"فقال موسى لله من أنا حتى أذهب إلى فرعون وحتى أخرج بنى إسرائيل من مصر. فقال إنى أكون معك وهذه تكون لك العلامة أنى أرسلتك. حينما تخرج الشعب من مصر تعبدون الله على هذا الجبل. فقال موسى لله هاأنا أتى إلى بنى إسرائيل وأقول لهم إله آبائكم أرسلنى إليكم. فإذا قالوا لى ما اسمه فماذا أقول لهم. فقال الله لموسى أهيه^(٢) الذى أهيه وقال هكذا تقول لبنى إسرائيل أهيه أرسلنى إليكم، وقال الله أيضاً لموسى هكذا تقول لبنى إسرائيل يهوه إله آبائكم إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب أرسلنى إليكم"^(٣)..

"فإذا سمعوا لقولك تدخل أنت وشيوخ بنى إسرائيل إلى ملك مصر وتقولون له الرب إله العبرانيين التقانا. فالآن غضى سفر ثلاثة أيام فى البرية ونذبح للرب إلها. ولكنى أعلم أن ملك مصر لا يدعكم تمضون ولا بيد قوية. فأمد يدي وأضرب مصر بكل عجائبى التى أصنع فيها. وبعد ذلك يطلقكم"^(٤).

ولما لم يستطع موسى أن يقنع فرعون بترك بنى إسرائيل "كلم الرب موسى وهارون فى أرض مصر قائلاً: هذا الشهر يكون لكم رأس الشهور. هو لكم أول شهور السنة. كلما كل جماعة إسرائيل قائلين فى العاشر من هذا الشهر يأخذون لهم كل واحد شاة بحسب بيوت الآباء شاة للبيت. وإن كان البيت صغيراً عن أن يكون كفوا لشاة يأخذ هو وجاره القريب من بيته بحسب عدد النفوس. كل واحد على حسب أكله تحسبون للشاة، تكون لكم شاة صحيحة ذكراً ابن سنة. تأخذون من

(١) تاريخ شعب العهد القديم ص ١٤٣.

(٢) أهيه: اسم عبرى معناه "الكائن" هذه كلمة عبرية فى حروف عربية وهى لفظ اسم الرب الذى أطلقه الرب على نفسه عندما كان يتكلم إلى موسى "قاموس الكتاب المقدس ص ١٢٨".

(٣) خروج ٣: ١١ - ١٥.

(٤) خروج ٣: ١٨ - ١٩.

الخرفان أو من المواعز. ويكون عندكم تحت الحفظ إلى اليوم الرابع عشر من هذا الشهر ثم يذبحه كل جمهور جماعة إسرائيل في العشية. ويأخذون من الدم ويجعلونه على القائمتين والعتبة العليا في البيوت التي يأكلونه فيها. ويأكلون اللحم تلك الليلة مشويًا بالنار مع فطير. على أعشاب مرة يأكلونه. ولا تأكلوا منه نيئًا أو طيخًا مطبوخًا بالماء بل مشويًا بالنار. رأسه مع أكارعه وجوفه. ولا تبقوا منه إلى الصباح، والباقي منه إلى الصباح تحرقونه بالنار. وهكذا تأكلونه أحقاؤكم مشدودة وأحذيتكم في أرجلكم وعصيتكم في أيديكم. وتأكلونه بعجلة. هو فصيح للرب. فإنني أجتاز في أرض مصر هذه الليلة وأضرب كل بكر في أرض مصر من الناس والبهائم. وأصنع أحكامًا بكل آلهة المصريين. أنا الرب. ويكون لكم الدم علامة على البيوت التي أنتم فيها. فأرى الدم وأعبر عنكم. فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب أرض مصر. ويكون لكم هذا اليوم تذكيرًا فتعيدونه عيدًا للرب. في أجيالكم تعيدونه فريضة أبدية^(١).

وهو ما يسمى بعيد الفصح. يقول الأب / ديلي :-

"ليس الفصح مرورًا فقط وعبورًا كما تعنى الكلمة بل هي بجوهره تعبير عن العهد بين الشعب المختار والله"^(٢).

وبعد هذا العمل الذي أمر به الرب خرج موسى ومن معه، وفي الشهر الثالث من خروجهم من مصر جاءوا إلى برية سيناء، وقد أقام الشعب مدة في سيناء، فحدث أثناء إقامته أن صعد موسى الجبل فعرض الله هناك عليه عهدًا وقال له "فالآن إن سمعتم لصوتي وحفظتم عهدي تكونون لي خاصة من جميع الشعوب. فإن لي كل الأرض"^(٣).

وقبل الشعب فأمر الله بالاستعداد لعقد العهد يومين كاملين "فنزل موسى من الجبل إلى الشعب وقدسهم وغسلوا ثيابهم"^(٤).

(١) خروج ١٢ : ١ - ١٤.

(٢) تاريخ شعب العهد القديم ص ١٤٦.

(٣) خروج ١٩ : ٥.

(٤) خروج ١٩ : ١٤.

جاء الله إلى سيناء وسط عاصفة شديدة وأعلن الوصايا التي هي بمثابة ملخص لما يتعهد العبرانيون لله بحفظه، ورجع موسى إلى الشعب وأعلن لهم أقوال الله فأجاب العبرانيون "جميع ما تكلم به الرب نفعله ونأتمر به"^(١).

وعقد العهد وسط الذبائح فأخذ موسى من دم الضحايا ورش به الشعب قائلاً: "هو ذا دم العهد الذي عاهدكم الرب به"^(٢)^(٣).

وصعد موسى مرة أخرى جبل سيناء، ومكث هناك أربعين يوماً يستمع إلى كلام الله، ولم يطل بالشعب الأمر حتى نقض العهد، وذلك لأن الله قد حرم عليهم منعاً للوثنية أن يمثله في شكل من الأشكال: "لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة"^(٤) ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا"^(٥)، فطلب هارون منهم - كما يدعون - أن يأتوه بحلى نسائهم فلما أتوه بها سبكها عجلاً، وللحال نصبوا مذبحاً، وقدموا عليه الذبائح، وأولموا وليمة كبيرة رقصوا فيها الرقصات الطقسية، فكان العصيان الأول والمخالفة الأولى للعهد المقدس"^(٦)، وحين نزل موسى من الجبل ولوحا الشهادة في يده وإذا به يسمع الأناشيد وعندما اقترب أبصر العجل والرقص فحمى غضب موسى، وطرح اللوحين من يده وكسرها في أسفل الجبل، ثم أخذ العجل الذي صنعوا وأحرقه بالنار وطحنه حتى صار ناعماً وذراه على وجه الماء وسقى بنى إسرائيل"^(٧)، ثم اقتص من الذين عصوا الله فسقط منهم بسيف بنى لاوى. الذين ظلوا مخلصين للعهد قوم كثيرون وتكرّس الشعب لله ونال موسى بعد تضرع وتوسل عفو الله عن شعبه وتجدد العهد، وأنشئ هيكل العهد يومئذ على شكل تابوت صغير يحمل فيه الأسفار"^(٨).

(١) خروج ٢٤ : ٣.

(٢) خروج ٢٤ : ٨.

(٣) راجع سفر الخروج ١٩ : ١٦ ، ٢٠ : ٢١ ، ٢٤ : ١ - ٨ راجع تاريخ شعب العهد القديم ص ١٥٠.

(٤) خروج ٢٠ : ٤.

(٥) خروج ٣٢ : ١.

(٦) راجع الإصحاح الثاني والثلاثين من سفر الخروج، (تاريخ شعب العهد القديم ص ١٥٠).

(٧) خروج ٣٢ : ١٥.

(٨) راجع الإصحاح الثاني والثلاثين من سفر الخروج (تاريخ شعب العهد القديم ص ١٥٠).

أما أهمية هذا العهد لموسى: فيقول الأب/ ديلي: "لقد هياها الله بالعهد الذى قطعه قبلاً مع إبراهيم، وليس عهد سيناء ذاته سوى صورة للعهد الحقيقى الذى سيعرضه يوماً على البشرية جمعاء، كما أن موسى وسيط العهد القديم ليس سوى صورة للمسيح وسيط العهد الجديد، ومن هنا يستمد عهد موسى أهميته للحاضر والمستقبل"^(١).



وأهم تعليق لنا على هذه المرحلة من عهد النعمة هو: أن الله أعطى موسى العهد بعد أمره له بأن يدعو قومه إلى الإيمان بالله الواحد، إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب. فلما عبدوا العجل رفع عنهم العهد، حتى توسل موسى لله أن يعفو عنهم فعفا عنهم بعد أن آمنوا به سبحانه وتعالى.

فالله سبحانه وتعالى أعطى موسى وقومه العهد وهذا العهد شرطه الأساسى الإيمان بالله الواحد الأحد.

وعليه فإن معنى ذلك أن العهد يسرى بين من يؤمنون بالله الواحد الأحد. لذلك يقول الأب/ ديلي "لهذا العهد إذاً صفة الشروط والصفقة، به يتعهد إسرائيل أن يطيع الله فى كل أوامره ونواهيه، وبه يتعهد الله مقابل ذلك أن يتخذ له إسرائيل شعباً مختاراً يشملهم بعطف خاص. حتى إذا ما نقض إسرائيل عهده كان الله فى حل من كل وعد معه"^(٢).

وسؤالنا الآن: هل أطاع هؤلاء الله فى كل أوامره ونواهيه حتى يستحقوا عهد الله؟ الحق أنهم لم يطيعوا فى أهم شروط العهد ألا وهو الإيمان بالله وبوحدانيته فكيف بالشروط الأخرى؟ ذلك لأن إيمانهم بألوهية المسيح والروح القدس يجعلهم ناقضين لعهد الله، بل وبعيدين عن أن ينالوا من العهد شيئاً.

• وعموم القول أن القصة بأكملها لا تخلو من أخطاء شائعة ليس هنا موضع بينهاها، ولكن من أهم هذه الأخطاء أنهم نسبوا إلى هارون - زورا وبهتاناً - أنه صنع لهم عجلاً مسبوكة ليعبده بنو إسرائيل. وذلك لأنه لا يتسق مع كون هارون رسولا

(١) المصدر السابق ص ١٥١.

(٢) المصدر السابق ص ١٥٢.

من عند الله. ويتبين ذلك مما جاء فى الكتاب المقدس من أن الله نادى موسى وهارون وأمرهما بأن يقوموا بتبليغ شرع الله للناس ودعوتهم إلى عبادة الله الواحد. يقول سفر الخروج (وقال الرب لهارون اذهب إلى البرية لاستقبال موسى. فذهب والتقاء فى جبل الله وقبله. فأخبر موسى هارون بجميع كلام الرب الذى أرسله وبكل الآيات التى أوصاه بها. ثم مضى موسى وهارون وجمعا جميع شيوخ بنى إسرائيل. فتكلم هارون بجميع الكلام الذى كلم الرب موسى به وصنع الآيات أمام عيون الشعب فأمن الشعب)^(١) ثم أمرهما الله بأن يذهبا إلى فرعون ليلغاه بدعوة الله.

وسؤالنا: كيف يجوز على رسل الله وهم سفراء الله على الأرض ودعائه إلى التوحيد أن يصنعوا هم التماثيل ليعبدها الناس من دون الله؟

كيف يجوز على هارون - وهو القدوة لهم فى الامثال لشرع الله وأوامره - أن يصنع لهم عجلاً ليعبدوه من دون الله مع أن الله أمره هو وموسى بدعوة الناس إلى التوحيد ونهيه عن أن يجعلوا لله ندا وشريكا؟. يقول الرب لموسى وهارون "لا تصنع لك تمثلاً منحوتاً ولا صورة ما مما فى السماء من فوق وما فى الأرض من تحت وما فى الماء من تحت الأرض. لا تسجد لهن ولا تعبدهن. لأنى أنا الرب إلهك"^(٢).

وهناك أخطاء أخرى لو أحصيناها لخرجنا عن موضوع الدراسة.



العصر الرابع: ويمتد من مجيء المسيح إلى انقضاء العالم - كما يدعون :-

وهو يدعى عهداً جديداً بالنسبة إلى العهد الموسوى الذى كان قديماً أو عتيقاً^(٣). يعتقد المسيحيون أنه فى هذا العصر سيتم كل عمل الفداء أى سيتم عهد الفداء. ولقد اختلف اللاهوتيون المسيحيون فى طرفى هذا العهد :- "إنه يظهر من أول وهلة أن فى نصوص الكتاب المقدس تشويشاً من جهة فريقى هذا العهد لأن المسيح

(١) خروج ٤ : ٢٧ - ٣١.

(٢) خروج ٢٠ : ٤ - ٥.

(٣) علم اللاهوت النظامى ص ٧٦٧.

يذكر أحياناً أنه أحد فريقيه وأحياناً أنه وسيطه وضامنه وأن الفريقين المتعاهدين هما الله وشعبه. وقد وفق بعض اللاهوتيين بين تلك النصوص بأن المسيح من وجه نائب المؤمنين في العهد. كما كان آدم نائب الجنس في أمر السقوط، وكذلك أن المسيح قام في ذات العهد مقام وسيط أى أنه تعهد وتوسط معاً في زمن واحد. واستحسن جانب آخر من العلماء التعبير عن العهد على صورتين:-

الأولى: نسبة الله الآب إلى المسيح في عمل الفداء.

الثانية: نسبة الله الآب إلى شعب المسيح المؤمنين.

فعمل الفداء بكماله يتضمن عندهم عهدين: أولها: بين الله والمسيح ويسمى عهد الفداء. وثانيهما: بين الله والمؤمنين ويسمى عهد النعمة وهو الذى صار فيه المسيح وسيطاً وضامناً^(١).

وعن المراد بعهد الفداء (جاء في علم اللاهوت النظامي):-

والمراد بعهد الفداء: العهد بين الله الآب والابن في شأن خلاص الإنسان وهو من الأمور الخارجة بالكلية عن دائرة إدراكنا، ولذلك يجب قبول تعاليم الكتاب المقدس فيه بدون الظن إننا قادرون أن نصل إلى ما يختص به طبعاً من الأسرار^(٢).

فالمسيح - عندهم - هو المقصود بهذا العهد.

أما ماذا لزم المسيح أن يأخذه على نفسه ل يتم عمل الفداء كما في التصور المسيحي:-

١ - لزم أن يتخذ طبيعة البشر ويولد من امرأة ويوجد في الهيئة كإنسان وكان ينبغي أن يكون ذلك تجسداً حقيقياً لا مجرد تجل بحيث يكون عظماً من عظامنا ولحمنا من لحمنا مشبهاً إخوته في كل شيء ومع ذلك بدون خطية لكي يمكنه "أن يرثى لضعفاتنا وأن يشعر مع المجربين لأنه قد تجرب" ^(٣).

(١) المرجع السابق ص ٧٥٤.

(٢) المرجع السابق ص ٧٥٥.

(٣) عبرانيين ٤ : ١٥.

٢ - لزم أن يولد تحت الناموس^(١) وأن يتعهد باختياره أن يعمل كل بر بطاعته لشريعة الله طاعة تامة في جميع صورها التي فرضت على الإنسان^(٢).

٣ - لزم أن يقدم كفارة لأجل خطايا العالم ويحمل خطايا البشر ويصير لعنة لأجلهم مقدماً نفسه ذبيحة لله عن خطايا البشر^(٣).

ولكى يتم ذلك التزم أن يعيش كما عاش على الأرض ويحتمل ما احتمله من الحزن والألم والعار والموت. وأما ما كان عليه أن يعمل بعد ذلك فيختص بارتفاعه^(٤).

لكي يتم المسيح عمل الفداء في التصور المسيحي كان لابد من :-

١ - التجسد.

٢ - الصلب.

٣ - القيامة.

أى أن يظهر بصورة بشرية ويتحمل خطايا البشر ويكفر عنها عن طريق تحمل هذه الخطايا على الصليب وأن يظهر انتصاره على الموت الذى أصاب آدم وذريته بالقيام من قبره.

فأساس العهد - عندهم - هو كفارة المسيح عن البشر وتحمل خطاياهم.

وهذا ما نبخته في الباب الثانى إن شاء الله.

لماذا عقد الله العهد بالخلاص مع الإنسان؟

يعتقد المسيحيون أن الإنسان الذى خلق على صورة الله أخطأ ضد الله وسقط من علياء مركزه جالبا الخراب لنفسه ولكل الجنس البشرى، ولكن الله برحمته ومحبه لم يتركه لمصيره لكنه يسر له طريق للخلاص بإرسال ابنه إلى العالم ليفدى الإنسان بموته

(١) غلاطية ٤ : ٤.

(٢) متى ٥ : ١٧ ، ١٨ .

(٣) ٢ كورنثوس ٥ : ٢١ ، غلاطية ٣ : ١٣ ، أفسس ٥ : ٢ .

(٤) علم اللاهوت النظامى ص ٧٥٦ .

الكفارى على الصليب، فالخلاص هو عمل الله، فالله هو الذى أخذ زمام المبادرة فى الخلاص وهو الذى وضع خطة الخلاص^(١).

يقول الأب بولس إلياس اليسوعى: إن الله محبة، وقد خلق الإنسان بداعى المحبة فقط وتعبيراً عن محبته المجانية له تنازل وعقد عهداً معه منذ فجر الخليقة^(٢).

ويقول كلايد تارنر: (إن الله العظيم هو إله محبة، هذه السجية من سجايا الله تمنح الأمل للقلب الخاطيء. إن معرفة الله كإله كلى القوة والقداسة فقط تجعل الفرد فى خوف ورهبة دائمين ولكن المعرفة أن الإله هذا الإله العظيم القدوس هو إله محبة توقد شعلة الأمل فى القلب^(٣)).

لقد ظهرت محبة الله بعدة طرق ولكن أسمى مظاهرها - كما يقولون - هو أنه وهبهم ابنه "بهذا أظهرت محبة الله فينا أن الله قد أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكى نحيا به^(٤)".

"ولكن الله بين محبته لنا لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا"^(٥).

فهم يعتقدون أن الله سبحانه وتعالى عقد مع الإنسان العهد بالخلاص لأنه سبحانه متصف بالرحمة والمحبة، ورحمته ومحبته جعلته يبذل ابنه الوحيد ليصلب من أجل أن يكفر عن خطايا البشر.

وقبل أن نترك هذه النقطة نقول: هل جعل المسيح يهان ويذل ويصلب يعتبر رحمة من الله بالمسيح؟؟؟



(١) كلايد تارنر: هذه عقائدنا ص ٤٤.

(٢) بولس إلياس اليسوعى: على خطى المسيح ص ٢٤.

(٣) كلايد تارنر: هذه عقائدنا ٣٠ ، ٣١.

(٤) ١- يوحنا ٤ : ٩.

(٥) رومية ٥ : ٨.